مجلد ٧ — عدد ٢٨ يناير ١٩٤٨



الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة

تحت الطبع

كتاب البخــلاء للجاحظ

تحقيق وشرح الاستاذ طه الحاجرى

تأريخ قضاة الأندلس

نشره وعلق عليه إ. ليڤى پروڤنسال

قطوف

كتاب فى جزأين يجمع عدة مقالات و بحوث

بقلم عبد العزيز البشرى

البيت السبكى

بيت علم فى دولتى المماليك

تاليف محمد الصادق حسين بك

تربية سلامه موسى

بقلم سلامه موسى

النفس فى الصحة والمرض

تأليف الدكتور محمد زكى شافعى بك

أربعون جنيها للفائز الأول فى مسابقة الشعر

تعلن محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية افتتاحها مسابقة شعرية جديدة تقبل فيها القصائد التى تتوفر فيها الشروط الآتية :

(ا) أن يكون موضوع القصيدة « الربيع » .

(ب) أن لا يقل عدد أبيات القصيدة عن خمسة وعشرين بيتاً ولا يزيد على أربعين بيتاً .

(ح) أن ترسل القصيدة قبل اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس (أذار) سنة ١٩٤٨ إلى محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية ، القدس ، فلسطين ، برسم « مسابقة الشعر » ، مطبوعة على أربع نسخ وأن لا يذكر اسم الناظم على هذه النسخ بل يرفق اسمه وعنوانه كاملين مكتوبين على ورقة منفصلة .

أما جوائز القصائد فهى كما يلى :

الجائزة الأولى : أربعون جنيهاً فلسطينياً

الجائزة الثانية : خمسة وعشرون جنيهاً فلسطينياً .

الجائزة الثالثة : خمسة عشر جنيهاً فلسطينياً .

وترسل هذه الجوائز على أثر إذاعة النتائج فى ٣٠ أبريل (نيسان) سنة ١٩٤٨ ويحق للمحطة أن تلحن وتذيع ما تشاء من القصائد الفائزة من دون مقابل ، كما تبقى القصائد الفائزة ملكا للاذاعة مدة ثلاثة أشهر من تاريخ إعلان نتائج المسابقة وبعد ذلك يحق لأصحابها التصرف بها .

العقيدة والشريعة فى الإسلام

للمستشرق العظيم

إجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية وعلق عليه

محمد يوسف موسى

عبد العزيز عبد الحق

على حسن عبد القادر

٤٠٠ صفحة

الثمن ٨٥ قرشاً (البريد ٤٠ مليما)

تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط

تأليف

الأستاذ يوسف كرم

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

بجامعة فاروق الأول

٢٦٦ صفحة

الثمن ٥٠ قرشاً (البريد ٣٦ مليما)

الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها.
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٤٠٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published
by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
Editor-in-chief : Taha Hussein

الكاتب المصرى

صفـــر ١٣٦٧ ينـــاير ١٩٤٨

السـنة الثالثـة مجلد ٧ — عدد ٢٨

أردت أن أكتب فصلا أدرس فيه أدب أندريه جيد بعد أن عرفت أنه ظفر بجائزة نوبيل فى شهر نوفمبر الماضى ، ولكنى رأيته أكبر وأكثر من أن يحيط بأدبه فصل مهما يكن طويلا . فآثرت أن أثنى عليه بترجمة هذا الكتاب الرائع وأنا أرجو أن يجد الشباب المثقفون بين عشبه الخبيث المجنون ، كما يقول أندريه جيد ، حبا حسنا لا يكاد يستقر فى القلوب والعقول حتى ينبت فيها نباتاً حسناً . [طه حسين]

بروميتيه ذو الغل المهمل

إلى بول-ألبير لورانس

إليك أهدى هذا الكتاب أيها الصديق العزيز لأنك تفضلت فأثنيت عليه . لعل قليلا من الذين يشبهونك أن يجدوا فى هذا العشب الخبيث المجنون كما وجدت حبًّا حسنا . [أندريه جيد]

فى يوم من أيام شهر مايو ١٨٩* ، فى تمام الساعة الثانية بعد الظهر رأى الناس هذا المنظر الذى وقع من نفوسهم موقعا غريبا :

رأوا فى الشارع الذى يؤدى من المادلين إلى الأوپرا ، رجلا ضخما نصفا لا يميزه إلا ضخامته النادرة ، وقد أقبل عليه رجل نحيف وهو يبتسم غير مضمر فيما نظن شيئا يريب، ورد إليه منديلا كان قد سقط منه . فيشكر الرجل الضخم فى إيجاز ويهم أن يمضى. ثم يبدو له فيميل إلى الرجل النحيف كأنما يطلب إليه شيئا، وكأن الرجل النحيف قد أنبأه بما أراد ؛ فقد أخرج من جيبه دواة وقلما ودفعهما فى سذاجة إلى الرجل النحيف ، ومعهما غلاف كان فى يده . ورأى المارة الرجل النحيف يكتب عنوانا على الغلاف . وهنا يبدأ ما فى القصة من غرابة لم تشر إليها صحيفة ما ؛ فقد رد النحيف إلى البدين دواته

وقلمه وغلافه . ولم يكد يبتسم بعد ذلك مودعا حتى أهدى اليدين إليه شكره لطمة مفاجئة عنيفة ، ثم وثب إلى عربة واستخفى قبل أن يستفيق النظارة (وكنت بينهم) من الدهش ويفكر أحدهم فى التعلق به .

وقد علمت بعد ذلك أن هذا الرجل كان زوس ، غنى من رجال الأعمال .

وضاق الرجل النحيف بالتفاف الناس حوله وعنايتهم به ، فجعل يؤكد أنه لم يكد يشعر باللطمة على حين كان أنفه يرعف وكانت شفته تقطر دما ، وكان يلح فى أن يخلى بينه وبين نفسه . فلما رأى الناس منه ذلك تفرقوا عنه قليلا قليلا . والقارئ يأذن لنا فى ألا نعنى منذ الآن برجل سيراه كثيرا فيما يستقبل من هذا الحديث .

تاريخ الحياة الخلقية الخاصة المستقيمة

١

لن أتحدث عن الحياة الخلقية العامة فليس لها وجود ، ولكنى أروى بمناسبتها قصة :

أحس بروميتيه فى أعلى جبل القوقاز أن الأغلال والقيود والوسوق والحواجز والموانع الأخرى قد أثقلته ومسه منها الضر، فأراد أن يغير من موضعه ، فارتفع بجنبه الأيسر ومد ذراعه اليمنى ، ورآه الناس ينحدر فى الشارع الذى يؤدى من المادلين إلى الأوبرا بين الساعة الرابعة والخامسة فى يوم من أيام الخريف .

وجعلت جماعات من الشخصيات الباريسية المعروفة تمر أمام عينيه ، وجعل هو يسأل نفسه إلى أين تذهب هذه الجماعات ؟ ثم جلس فى إحدى القهوات إلى قدح من الجعة وسأل الخادم : « إلى أين تمضى هذه الجماعات ؟ »

تاريخ الخادم وصاحب الملايين

قال الخادم : لو رآهم سيدى كما أراهم يمرون فى كل يوم لجاز أن يسأل نفسه من أين أقبلوا . فهو سؤال واحد لأنهم يمرون فى كل يوم . وأنا أقول لنفسى : ما داموا يمرون فى كل يوم فهم لم يجدوا ما يبتغون . وأنا أنتظر الآن أن يسألنى سيدى : ماذا يبتغون ؟ وسيرى سيدى بماذا أجيبه .

هنالك سأل بروميتيه :

— ماذا يبتغون ؟

قال الخادم :

— ما داموا لا يستقرون فهم لا يلتمسون السعادة . ويستطيع سيدى أن يصدقنى . ثم دنا منه وقال هامسا : — انما يلتمسون شخصياتهم . أليس سيدى من أهل باريس ؟

قال بروميتيه :

— لا !

قال الخادم : إن هذا لبين . نعم ! شخصياتهم : ما نسميه نحن هنا بالمزاج . فأنا مثلا ، كما ترانى الآن ، لاتشك فى أنى خادم قهوة . كلا ياسيدى ! لست بطبعى خادم قهوة ، وإنما أتكلف هذه المهنة عن حب لها . صدقنى ، إن شئت ، أن لى حياة مضمرة : إنى ألاحظ الشخصيات ، إنها وحدها تثير حب الاستطلاع ، ثم الصلات بين الشخصيات . لقد رتب كل شئ هنا على أحسن وجه ؛ فى هذا المطعم مائدة لكل ثلاثة من الناس ، وسأبين لك بعد حين تدبير ذلك . ستتناول العشاء بعد قليل ، أليس كذلك ؟ ستقدم . . .

وكان بروميتيه متعباً بعض الشئ . قال الخادم :

— مائدة لكل ثلاثة من الناس . نعم هذا أوفق ما وصلت إليه . يقبل ثلاثة من الناس فيعرف بعضهم إلى بعض (إذا أرادوا ذلك بالطبع) . ففى مطعمى يجب أن يذكر الطارئون أسماءهم قبل الجلوس إلى المائدة ، وأن يذكروا صناعتهم . وليس عليهم بأس إن أخطأوا . ثم يجلسون (ولا أجلس أنا) ، ثم يتحدثون (ولا أتحدث أنا) ، وإنما أصل بين الناس وأسمع لهم وأنظر إليهم وأدير بينهم الحديث . فاذا انتهى الطعام فقد عرفت دخيلة ثلاثة من الناس ، ثلاثة من الشخصيات . أما هم ، فلم يعرفوا شيئا . أما أنا فافهم عنى : إنى أسمع ، إنى أنشئ الصلات ، على حين يخضعون هم لهذه الصلات التى أنظمها . وقد تسألنى ماذا يجدى على هذا كله ؟ لا يجدى على شيئا ، وإنما أنا موكل بانشاء الصلات . . . لا بالقياس إلى نفسى . . . إنما هو عمل يشبه أن يكون شيئا من العبث المطلق .

وكان شئ من التعب يظهر على بروميتيه .

قال الخادم :

— عمل عابث ! هذا لفظ لا يدلك أنت على شئ . أما أنا فانه يدلنى على شئ خطير عظيم الخطر . لقد فكرت وقتاً طويلا فى أن العمل العابث هو الذى يميز الانسان من الحيوان . وكنت أعرف الانسان بانه الحيوان القادر على العمل العابث . ثم بدا لى فرأيت عكس هذا الرأى ، وهو أن الانسان هو الكائن الوحيد الذى لايستطيع أن يعبث . أن يعبث ؟ فكر إذن : أن يتصرف لغير علة . — نعم ! قد فهمت . — لنقل لغير دافع إلى العمل . ومنذ ذلك الوقت جعلت هذه القضية تغيظنى ، وجعلت أسأل نفسى : لم يفعل الانسان هذا ؟ ولم يفعل الانسان ذاك ؟ . . . وليس مصدر ذلك مع هذا أنى جبرى . . . ولكن لهذه المناسبة اسمع هذه القصة :

لى صديق يا سيدى من أصحاب الملايين قد لا تصدق ذلك . وهو إلى ثرائه ذكى ، أثار فى نفسه فكرة العمل العابث ، وسأل نفسه كيف السبيل إليها ؟ ويجب أن تقدر أنه لا ينبغى أن يفهم من هذا عمل لا ينتج شيئا ، فهذا شئ . . . إنما يريد عملا عابثا لا دافع إليه . أتفهم عملا لا تدفع إليه منفعة ولا شهوة ولا سبب ما ، عملا غير نافع ، عملا ينشئ نفسه ، عملا لا غاية له ولا مسيطر عليه ، عملا حرا ، عملا أصيلا ؟

قال بروميتيه : — ماذا ؟

قال الخادم :

— ألق بالك ، إن صاحبى يهبط فى كل صباح وفى جيبه ورقة مالية قيمتها خمسمائة فرنك قد طوى عليها غلافا وفى يده لطمة مهيأة . وهمه أن يلقى رجلا لا يختاره ، فيلقى فى الشارع منديله ثم يقول لمن يلتقط هذا المنديل متلطفاً :

— عفوا يا سيدى ! ألا تعرف أحداً ؟

يجيبه الآخر : بل أنا أعرف غير واحد .

فيقول صاحب الملايين: فستتلطف إذن ياسيدى وتكتب اسمه على هذا الغلاف ، وإليك القلم والدواة . . .

ويكتب الآخر فى سماحة ثم يتجه إلى صاحب الملايين قائلا :

— والآن يا سيدى أتفسر لى . . . ؟

فيجيب صاحب الملايين :

— هذا مبدأ ثم (وقد أنسيت أن أقول إنه قوى) يضع على خده اللطمة التى أعدها فى يده ، ويدعو عربة فيستقلها ويستخفى .

أفهمت الآن ؟ عملان عابثان فى لحظة واحدة : هذه الورقة المالية ترسل إلى عنوان لم يختره هو ، ولطمة تهدى إلى رجل قد اختار نفسه ليتلقاها حين التقط المنديل . — ألا ترى أن هذا هو العبث ؟ إنه عمل قابل للعكس . أحد الرجلين تلقى خمسمائة فرنك لأجل لطمة ، والآخر تلقى لطمة من أجل خمسمائة فرنك . . . ثم لا سبيل إلى الفهم . . . فقد نضل الطريق . — فكر ! عمل عابث ليس أشد من ذلك بلبلة للنفوس . — ولكن سيدى قد أخذ يجد الجوع . إنى معتذر إلى سيدى . ما أيسر ما يندفع الناس فى الحديث . . . أيريد سيدى أن يلقى إلى اسمه لأقدمه ؟

قال بروميتيه فى يسر :

— اسمى بروميتيه .

قال الخادم :

— بروميتيه ! لقد قدرت أن سيدى ليس من هذه المدينة . . . ومهنة سيدى ؟

قال بروميتيه :

— لا شئ .

قال الخادم فى ابتسامة حلوة :

— كلا ! يكفى أن يرى الانسان سيدى ليعلم أنه فعل شيئا .

قال بروميتيه هامسا :

— مضى على ذلك زمن طويل .

قال الخادم :

— لا بأس لا بأس ! وليطمئن سيدى ! فأنا حين أقدم الناس أذكر أسماءهم ، فأما صناعاتهم فلا أذكرها بحال . — لننظر لننظر : — ماذا يصنع سيدى . . .

قال بروميتيه مغمغما خجلا :

— كنت أصنع الثقاب .

هنالك ساد صمت ثقيل بعض الشئ. وقد فهم الخادم أنه أخطأ حين ألح فى السؤال، وفهم بروميتيه أنه أخطأ حين أقدم على الجواب .

ثم قال الخادم فى لهجة رفيقة :

– والآن قد ترك سيدى صناعة الثقاب . ومع ذلك فينبغى أن أكتب شيئا ، فلست أستطيع أن أكتب هكذا: بروميتيه ، ثم لا أزيد. فلسيدى من غير شك صناعة متواضعة ما أو تخصص فى شئ من الأشياء . . . وأخيراً ماذا يحسن سيدى أن يعمل ؟

فأعاد بروميتيه قوله :

– لا شئ .

قال الخادم :

– إذن فلنقل إنك أديب . والآن إذا تفضل سيدى بالدخول إلى قاعة الطعام . فلست أستطيع أن أخدمه خارج القاعة . ثم صاح : – مائدة لثلاثة ! مائدة ! . . . وهنا دخل رجلان من بابين مختلفين . وقد رئيا يمليان اسميهما على الخادم ، وإذ لم يطلب أحد تعارفاً ، فقد جلس الرجلان إلى المائدة .

فلما استقر بهم المجلس :

٢

قال أحدهم :

– يا سيدى ! إنما أقبلت على هذا المطعم مع أن الأكل فيه ردئ لشئ واحد هو الحديث. فأنا أبغض الخلوة إلى الطعام ، وأحب المائدة التى يجلس عليها ثلاثة ؛ لأن الاثنين إذا خلا أحدهما إلى الآخر جاز أن يختصما. . . ولكنكما صموتان فيما يظهر !

قال بروميتيه :

– على رغمى آثرت الصمت .

قال المتكلم :

– سأمضى إذن فى الحديث .

قال الثالث :

– تفضل .

قال المتكلم :

– أنا أرى أن ساعة يجلس فيها ثلاثة رجال إلى المائدة تكفيهم ليتعارفوا إذا لم – يسرفوا فى الأكل – . وهذا يسير هنا إذا أقللنا الكلام واجتنبنا الموضوعات الشائعة ، أريد ألا نذكر إلا ما يمس الحياة الفردية الخاصة . ولست أزعم أن هذا الحديث ضربة لازم . ولكن إذا لم يعجبنا الحديث فما قدومنا إلى هذا المطعم ؟

وكان بروميتيه متعباً جدا وقد مال الخادم إليه وهمس قائلا :

– هذا الذى تكلم هوكوكليس ، وهذا الذى سيتكلم هو داموكليس .

قال داموكليس :

قصة داموكليس

سيدى لو قلت لى ذلك منذ شهر لما استطعت أن أجيب . أما بعد الذى حدث لى فى الشهر الماضى ، فلم يبق شئ مما كنت أعتقده من قبل . وما كنت لأحدثكم بشئ مما كنت أفكر فيه قديما لولا أن العلم به يعينكما على أن تفهما الفرق بينه وبين ما أفكر فيه الآن . وإذن ياسيدى فأنا أشعر منذ ثلاثين يوما بأنى كائن ممتاز فريد ميسر لمصير غريب . فاستنبطا من أنى كنت أشعر قبل ذلك شعورا يناقض هذا الشعور مناقضة تامة . فقد كنت أحيا حياة عادية خالصة ، وأفرض على نفسى الاذعان لهذه القاعدة وهى أن أسير سيرة أشد الناس محافظة على المألوف . أما الآن فأنا واثق بأن الرجل العادى لا وجود له ، وبأن من الجهد الضائع أن يحاول أحد أن يشبه كافة الناس ، لأن كافة الناس تأتلف من الأفراد جميعا ، وليس فى وسع الفرد الواحد أن يشبه جميع الأفراد . ومع ذلك فقد كنت أفتن وأتكلف الاحصاء وأتلمس أوساط الأمور — دون أن أفهم أن الأطراف تتقارب ، وأن من نام متأخرا لقى من استيقظ مبكرا : وأن من تحرى أن يجلس فى المكان الأوسط كان خليقا أن يجلس بين كرسيين .

فكنت آوى إلى سريرى كل يوم فى الساعة العاشرة ، وأنام ثمانى ساعات ونصف ساعة ، وأحرص فى كل عمل من أعمالى على أن أقلد أكبر عدد من الناس ، ولن أطيل فى ذلك .

ولكن عرضت لى ذات يوم مغامرة خاصة . وخطر ذلك فى حياة رجل متزن لا يفهم إلا بعد حين .

٣

وإذن فتعلما أنى تلقيت كتابا ذات صباح .

— وأنا أرى يا سيدى أنى أقص عليكما قصتى فى غير مهارة ؛ لأنى لا أرى الدهش فى وجهيكما . فقد كان يجب أن أنبئكما بأنى لم أكن أنتظر كتبا . فأنا أتلقى ثلاث رسائل فى كل عام : إحداها من صاحب البيت يطالبنى فيها بالأجر ، والثانية من المصرف ينبئنى بأنى قادر على أدائه ، والثالثة فى أول يناير . . . وأوثر ألا أنبئكما بمصدرها . وكان عنوان الرسالة التى تلقيتها قد كتب بخط لا أعرفه . وخلو هذا الخط من الخصائص كلها، كما عرفت فيما بعد حين لجأت إلى المختصين فى تأويل الخطوط ، لم ينبئنى عن صاحب الرسالة بشئ . فلم يجد المختصون فى هذا الخط آية إلا على كرم النفس وشئ من الضعف ، ولم يستطيعوا أن يحددوا شيئا . الخط . . . لست أتحدث إلا عما كان على الغلاف ، فلم يكن داخل الغلاف شئ ، لم يكن داخله سطر ولا نقطة . لم يكن فى الغلاف إلا ورقة مالية قيمتها خمسمائة فرنك .

وكنت أهم أن أتناول قدح «الشيكولاتة» الذى تعودت أن أتناوله كل صباح ، ولكنى

كنت عظيم الدهش حتى صرفنى ذلك عنه فأدركته وقد برد مافيه . جعلت أبحث ... ولم يكن أحد مدينا لى بشئ . ولى دخل محدود ياسيدى ، وأنا أستعين بالاقتصاد على الموازنة بينه وبين النفقات برغم ما يصيب الأسهم من نقص فى كل عام . قلت إنى لم أكن أنتظر شيئاً ولم أطلب قط إلى أحد شيئاً . وقد تعودت الحياة المنظمة حتى منعنى ذلك من أن أؤمل شيئاً . وقد فكرت كثيراً متوخيا فى التفكير أقوم مناهجه : من أين ؟ إلى أين ؟ من أى طريق ولماذا ؟ وكانت هذه الورقة لاتجيب على سؤال من هذه الأسئلة ؛ فقد كنت ألقى هذه الأسئلة للمرة الأولى .

وقد فكرت فى أن هذا خطأ ، وفى أنى سأحاول إصلاحه . فقد قدرت أن هذه الورقة قد كانت مخصصة لرجل غيرى يشاركنى فى الاسم . وقد بحثت فى الدليل عن شريك لى فى اسمى لعله كان ينتظر هذه الورقة . ولكن اسمى ليس شائعاً ، فرأيت أنى الوحيد الذى يحمله . وقد قدرت أنى سأجد على الغلاف اسم من أرسله بعد أن لم أجد اسم من أرسل إليه . وهنالك لجأت إلى المختصين فى تأويل الخطوط . ولكن لاشئ — لم يستطيعوا أن ينبئونى بشئ ، ولم أصل إلا إلى زيادة ما أنا فيه من الضيق . فهذا المبلغ من المال يزداد ثقله على من يوم إلى يوم ، وأنا أحاول أن أتخفف منه فلا أجد إلى ذلك سبيلا . فقد يجب — لو أن أحداً من الناس قد أهدى إلى هذا المبلغ غير مخطئ — أن أشكر له هديته . إنى لحريص على أن أكون معترفا بالجميل — ولكنى لا أدرى لمن أعترف بالجميل .

وأنا أحمل هذه الورقة دائما مؤملا أن تعرض لى المصادفة التى تخرجنى من هذا العناء . أحملها لا أفارقها فى النهار ولا فى الليل لقد أصبحت مملوكا لها . — لقد كنت فيما مضى رجلا عاديا ولكنى كنت رجلا حرا . أما الآن فانى رق لهذه الورقة ! لقد حددت هذه المغامرة شخصيتى ، كنت إنسانا ما ، فأصبحت الآن إنسانا بعينه .

وأنا منذ هذه المغامرة أزعج نفسى أبحث عمن أستطيع أن أتحدث إليه ، وإذ آثرت الاختلاف إلى هذا المطعم فى أكثر الأحيان ، فمصدر ذلك أنى أرجو أن أجد على مائدة من هذه الموائد المخصصة لثلاثة أشخاص واحداً من جليسى يعرف صاحب هذا الخط على هذا الغلاف الذى أعرضه عليكما . . .

ثم أخرج من صدره زفرة ومن سترته غلافا أصفر قذرا قد كتب اسمه عليه كتابة عادية واضحة . هنالك وقع هذا الحادث الغريب : فقد كان كوكليس ملتزما للصمت ، وظل ملتزما للصمت — ولكنه فجاءة رفع يده على داموكليس ، لم يكد الخادم يردها إلا فى جهد . فاضطر كوكليس إلى أن يضبط نفسه وقال فى حزن هذه الكلمات التى لم تفهم إلا فيما بعد :

— على أن الخير فى هذا . فلو قد رددت إليك اللطمة لخيل إليك أن من الحق أن ترد إلى الورقة مع أنها ليست لى . — وإذ ظهر على داموكليس أنه ينتظر تفسيراً لهذه الحركة قال كوكليس : أنا الذى كتب عنوانك على هذا الغلاف .

قال داموكليس فى شئ من الغضب : ولكن كيف عرفت اسمى ؟

قال كوكليس : عرفته مصادفة . على أن هذا لا خطر له فى هذه القصة ، فقصتى أغرب من قصتك فأذن لى فى أن أقصها فى إيجاز :

قصة كوكليس

ليس بينى وبين الناس صلات ذات شأن، بل لم أكن أعلم، أن لى بالناس صلة قبل أن يقع ما سأنبئكم به الآن. لست أعرف من أخرجنى إلى هذا العالم وقد تلمست وقتاً طويلا بعض ما يحبب إلى الحياة . وقد هبطت إلى الشارع ملتمساً فيه ما يوجه حياتى مقدراً أن مصيرى مرتبط بأول ما يكون بينى وبين النـاس من صلة . فلم أنثنِ نفسى فأنا أدنى إلى الخير من ذلك . وكنت أعلم أن أول عمل أعمله سيعلل وجودى . وإذ كنت خيراً بالفطرة فقد كان أول عمل أتيته أنى التقطت منديلا . ولم يكن صاحبه قد بعد عن مكانه إلا خطوات ثلاثا، فأسرعت نحوه ورددته إليـه . وأخـذه فى غير دهش ظـاهر ، وإنما الدهش أصابنى أنا حين رأيته يقدم إلى غلافا هو هـذا ويقول لى باسما : تفضل بكتابة عنوان على هـذا الغلاف . قلت أى عنوان ؟ — قال : عنوان أحد ما . — وقدم فى أثناء ذلك إلى أدوات الـكتابة . ولم أكن أرغب فى التخلص من علة ظاهرة ، فأجبتـه إلى ما أراد . وقد قلت لـكما أن ليس بينى وبين الناس صلة ذات شأن . وكان الاسم الذى كتبته ، ولست أدرى كيف خطر لى اسم رجل لا أعرفه . ثم دفعت إليه غلافه وحييته معتقداً أنى قد أديت ما على، وهممت أن أنصرف، ولـكنى تلقيت على خدى لطمة مروعة.

وقد دهشت لذلك فلم أعرف ما صار إليه لاطمى . فلما ثبت إلى نفسى رأيت جماعـة ضخمة تحيط بى . وكانت الجماعـة كلها تتكلم . وقد تعلق بى بعضهم يريد أن يصحبنى إلى صيدلية مجـاورة . ولم أخلص من عنـايتهم إلا حـين أكـدت لهم أن ليس بى بأس ، على حين كان أنفى يرعف وكنت أجد ألماً شديداً فى الفك .

وقد اضطرنى ما أصاب خدى من التورم إلى أن ألزم غرفتى ثمانية أيام .

وقد أنفقت هذه الأيام مفكراً :

لم أهدى الرجل إلى هذه اللطمة ؟

لا شك فى أنه أخطأ فلم أقدم إليه ما يسوءه !

لم أقدم شرا إلى أحد ، وليس أحد من الناس يمكن أن يتمنى لى الشر ، فالشر شئ يرد على من قدمه .

وقد فكرت لأول مرة أن هذه اللطمة إن لم تـكن قد أهديت إلى عن خطأ — فهى شئ قد كتبه على القضاء ، على أنى أضفت إلى ذلك أن المهم هو أنى قد تلقيت اللطمة سواء أكان ذلك عن خطأ أم عن عمد ، وهل أردها — وقد أنبأتـكما بأنى خير بالطبع ، وأضيف الى ذلك أن من لطمنى كان أقوى منى ؟

فلما برئ خدى واستطعت الخروج جعلت أبحث عن لاطمى . نعم ! ولـكن لأتجنبه على أنى لم ألقه . وإذا كنت قد تجنبته فقد كان ذلك على غير علم منى .

ثم انحنى نحو بروميتيه قائلا :

— أنظر كيف يتعقد اليوم كل شئ وكيف تختلط الأمور بدل أن تتضح : — فقد علمت أن لطمتى قـد أدت إلى هذا السـيد خمسمائة فرنك . . .

قال داموكليس :

— ولكن عفوا .

قال كوكليس مجيباً :

— اسمى كوكليس ياسيدى .

قال داموكليس :

— سأذكر لك اسمى يا كوكليس ، فأنا داموكليس ، وأنا واثق بأنه سيسرك أن تعرف اسم من ساق إليك حظك . . .

— ولكن . . .

قال كوكليس :

— نعم ! — وستعلم أم من ساق إليك حظك ، فما ينبغى أن تجهل أن ربحك مستمد من بؤسى .

قال داموكليس :

— ولكن . . .

قال كوكليس :

— أرجو ألا تكثر ، فان بين ربحك وألمى صلة لا أدرى ما هى ، ولكن هناك صلة .

قال داموكليس :

— ولكن يا سيدى .

قال كوكليس :

— لا تدعنى سيدك .

— ولكن عزيزى كوكليس .

بل ادعنى كوكل — فى غير تكلف .

قال داموكليس :

— ولكن مرة أخرى أيها الرجل الطيب كوكل . . .

قال كوكليس :

— كلا يا سيدى — كلا يا داموكل — فقد تستطيع أن تقول كل شئ ، فأثر اللطمة قائم على خدى . . . أستطيع أن أظهرك عليه .

وجعل الحديث يتصل بالأشخاص ويمعن فى السوء . وهنا استبانت لباقة الخادم .

٤

فقد صب فى حركة رشيقة — طبقاً من أطباق الطعام على بروميتيه ، فحول إليه فجاءة عناية صاحبيه . لم يستطع بروميتيه أن يحبس صيحة ، وقد ظهر صوته بالقياس إلى صوت الآخرين عميقاً أجش ، حتى لاحظت الجماعة أنه آثر الصمت إلى الآن .

فقال داموكليس وكوكليس فى غيظ مؤتلف :

— إنك لا تقول شيئا !

بروميتيه يتكلم

قال بروميتيه :
— يا سيدى لا صلة بين ما يمكن أن أقوله وبين ما نحن فيه . . . حتى إنى لا أدرى كيف . . . بل كلما فكرت . . . كلا ! فى الحق أنى لا أدرى كيف أقول . لكل منكما قصته ، أما أنا فلا قصة لى . فاعذرانى . ثقا بأنى أسمع فى متعة خالصة لكل منكما وهو يقص قصته التى أود لو . . . أن لى . . . ولكنى لا أستطيع حتى أن أعبر عن ذات نفسى فى يسر . كلا ! فى الحق أنه يحسن أن تعذرانى يا سيدى العزيزين ، فلم أصل إلى باريس إلا منذ قريب من ساعتين . ولم يعرض لى فيها شئ — إلا لقاؤكما الذى لا يقدر والذى يشعرنى بما يمكن أن يصير إليه حديث باريسى حين يقبل عليه أصحاب الذكاء و . . .
قال كوكليس :
— ولكن قبل أن تأتى إلى باريس . . .
أضاف داموكليس :
— قد كنت فى مكان ما .
قال بروميتيه :
— هذا حق أعترف به . . . ولكنى أعيد أن ليس بين ذلك وبين ما نحن فيه صلة ما . . .
قال كوكليس :
— ولو ! لقد جئنا إلى هذا المطعم لنتحدث . وقد أخرجنا داموكل وأنا قصتينا وأنت وحدك لم تأت بشئ . إنما تسمع وليس هذا عدلا . قد آن لك أن تقول يا سيدى . . .
وأحس الخادم فى لباقته كلها أن قد آن الوقت لتعريفه ، فأزلق الاسم كأنما يتم الجملة قائلا فى يسر :
— بروميتيه
قال داموكليس :
— بروميتيه ! معذرة يا سيدى . يخيل إلى أن هذا الاسم قد . . .
قال بروميتيه مقاطعا :
— أوه ! ليس لهذا خطر ما .
قال الآخران فى حنق :
— ولكن إذا لم يكن لشئ خطر فلم جئت إلى هذا المطعم أيها السيد العزيز . . . سيدى . . . ؟
قال بروميتيه فى رفق :
— بروميتيه .
قال كلوكليس :
— أيها السيد العزيز بروميتيه ، ألم ألفتكما آنفا إلى أن هذا المطعم يدعو إلى القول ؟ على أنك لن تقنعنى بأن اسمك هذا الغريب هو وحده الذى يميزك . إذا لم تكن قد

عملت شيئا فستعمل شيئا ، فماذا يسعك أن تعمل . بين لنا الخصلة التى تميزك ، بأى شئ تمتاز من سائر الناس ؟ لماذا سميت بروميتيه ؟

وفى هذا الموج من الأسئلة أغرق بروميتيه فنكس رأسه ، واضطر إلى أن يجيب فى صوت أشد عمقا ، وفى شئ من الاختلاط :

— ما يميزنى يا سادتى ؟ — ما يميزنى أنا — إنه نسر .

— إنه ماذا ؟

— نسر — أو لعله صقر . . . هذا موضوع تردد .

— نسر ! هذا غريب ! — نسر . . . أين هو ؟

قال بروميتيه :

— أتحرصان على أن ترياه ؟

قالا :

— نعم ! إن لم يكن فى ذلك تطفل .

هنالك نسى بروميتيه مكانه ، كل نسيان ، ونهض فجاءة ودفع صيحة عظيمة ، صيحة دعاء لنسره العظيم ، فوقع هذا الحادث المذهل :

قصة النسر

طائر يظهر ضخما من بعيد ، ولكنه من قريب ليس شديد الضخامة ، يغمر بالظلام سماء الشارع لحظة — ثم يهوى كالعاصفة على القهوة ، فيحطم الواجهة ، ويقع وقد فقأ عين كوكليس بخفقة من جناحه ، وفى زقزقة متصلة فيها حنان ولكن فيها قوة ، يسقط على الجنب الأيمن لبروميتيه ، الذى يسرع إلى صدارته فيفرجها ويقدم إلى النسر قطعة من كبده .

٥

اشتدت الضوضاء فى القهوة .

واختلطت الأصوات فى غير ائتلاف ، ثم تفرقت حين انضمت إليها أصوات أخرى .

وكان كوكليس يقول :

— خذ حذرك !

ولكن إنكاره ضاع فى وسط الضوضاء الضخمة التى كانت تقول :

— هذا نسر؟ هيهات !! انظروا إليه، هذا الطائر الناحل ! هذا ... نسر! هيهات!! إنه لا يزيد على أن يكون ضميرا .

والواقع أن النسر العظيم كان بائسا ، نحيفا خفاق الجناحين رثا . وكان إقباله فى شره على قوته القاسى يدل على أن المسكين لم يطعم شيئا منذ ثلاثة أيام .

وأسرع آخرون مع ذلك ، فجعلوا يعرضون فى همس لبروميتيه قائلين : ولكن

أيها السيد لا تظن أن هذا النسر يميزك بشئ . نسر ، أأقول لك الحق نسر ، كل منا له نسره .

وكان أحدهم يقول :

— ولكن . . .

فيضيف الآخر :

— ولكننا لا نحمل نسرنا فى باريس . فهو لا يروق فى باريس . إن النسر يضايق . أنظر إلى ما فعل ! إن سرك أن تطعمه من كبدك فذلك إليك . ولكنى أؤكد لك أن هذا منظر مؤلم لمن يراه . فاذا عمدت إلى هذا الأمر فاستخفِ به .

وكان بروميتيه يغمغم فى اختلاط :

— معذرة يا سادتى — إن أسفى لعظيم . ماذا أصنع !

— عليك أن تخلص منه قبل أن تدخل يا سيدى .

وكان بعضهم يقول :

— يجب خنقه .

وبعضهم الآخر يقول :

— يجب بيعه ؛ فلم توجد مكاتب الصحف إلا لهذا يا سيدى .

وفى هذا الضجيج المختلط المتزايد لم يلاحظ أحد أن داموكليس يطلب الحساب إلى الخادم فجاءة . فقدم إليه الخادم حسابه على هذا النحو :

غذاء كامل لثلاثة أشخاص (مع الحديث) . . .	٣٠ فرانكا
زجاج الواجهة	٤٥٠ فرانكا
عين من الزجاج لكوكليس	٣,٥٠ فرانكا

. . . ثم قال داموكليس للخادم وهو يزلق ورقته إليه . . . : واحتفظ بالباقى . ثم انصرف سعيداً .

وآخر هذا الفصل قليل الغناء . فقد أخذ المطعم يخلو قليلا قليلا . وعبثاً حاول بروميتيه وكوكليس أن يؤديا نصيبهما من الحساب ، فقد أدى داموكليس كل شئ . وودع بروميتيه الخادم وكوكليس ، ومضى مستأنيا إلى القوقاز وهو يفكر : أيبيع النسر ؟ — أيخنقه ؟ . . . وما يمنع من استئناسه ؟ . . .

سجن بروميتيه

١

وما هى إلا أيام حتى يرى بروميتيه نفسه سجيناً بفضل تلطف الخادم الذى وشى به إلى السلطان وزعم أنه يصنع الثقاب بغير ترخيص .

وكان السجن معتزلا عن العالم لا ينظر منه إلا إلى السماء . وكان خارجه يشبه البرج . وكان من داخله يسلط السأم على بروميتيه .

وأقبل الخادم ذات يوم يزوره .

فقال له بروميتيه باسماً :

— ما أسعدنى بلقائك ! لقد كان الملل يضنينى . تحدث أنت الذى يقدم من خارج . إن جدران هذا السجن تعزلنى عن العالم ، ولست أعرف من أمر الناس شيئاً . ماذا يصنعون ؟ — وأنت أولا ماذا تصنع ؟

قام الخادم :

— لا أكاد أصنع شيئاً منذ كانت قصتك المثيرة . لم يكد أحد يلم بنا . وقد أنفقنا وقتا طويلا فى إصلاح الواجهة .

قال بروميتيه :

— إنى آسف لذلك . ولكن داموكليس ما خطبه ؟ أرأيت داموكليس ؟ لقد انصرف مسرعاً من المطعم ذلك اليوم فلم أودعه . وأنا لذلك محزون . فقد كان يظهر رجلا عذباً شديد الحياء قوى الضمير . كان يعرض ألمه فى غير تكلف ، وكان يؤثر فى نفسى . أكان على أقل تقدير سعيداً حين ترك المائدة ؟

قال الخادم :

— لم تطل سعادته . فقد رأيته من غد وقد ازداد قلقه جدا حتى بكى وهو يحدثنى . وأخص ما يقلقه صحة كوكليس .

سأل بروميتيه :

— أهو إذن مريض ؟

قال الخادم :

— كوكليس ؟ — كلا ! بل أستطيع أن أقول إنه يرى الآن بعين واحدة خيراً مما كان يرى بعينين . وهو يظهر للناس جميعاً عينه الزجاجية ويسعده أن يرثى له . فاذا لقيته فقل له إن عينه الجديدة تزينه ، وأنه يحملها فى رشاقة وظرف ، ولكن أضف أنه قد تألم من غير شك . . .

— أيألم إذن ؟

— لقد يألم حين لا يقال له إنه يألم .

— ولكن إذا استقامت حال كوكليس ، بل إذا لم ينله ألم فما قلق داموكليس ؟

— يقلق مما كان يجب أن يؤلم كوكليس .

— أتشير على حقا بأن أقول لكوكليس إنه ألم . . .

— نعم ! قل له ذلك ، ولكن داموكليس يعتقده ، وهذا يغنيه .

— وماذا يصنع غير ذلك ؟

— لاشئ . قد استأثر به هذا الخاطر الوحيد . وهو فيما بينى وبينك رجل مشغول البال — فهو يقول لولا هذه الفرنكات الخمسمائة لما صار كوكليس إلى هذا البؤس .

— وكوكليس ؟

— يقول هذا أيضاً . . . ولكنه أصبح غنيا جدا .
— وكيف كان ذلك ؟
— لست أدرى بالضبط ، — ولكن الناس رثوا له كثيراً فى الصحف ، وجمعت له معونة صالحة .
— وماذا يصنع بها ؟
— إنه ماكر . يفكر فى أن ينشئ ملجأ بالمال الذى يجمع له .
— ملجأ !
— ملجأ صغيراً ، نعم ! لا يؤوى إلا العور . وقد عين نفسه مديراً .
صاح بروميتيه :
— هيه ! إن حديثك ليمتعنى .
قال الخادم :
— لقد كنت فى ذلك راغباً . . .
— وأنبئنى أيضاً . . . ما خطب صاحب الملايين ؟
— أما هو فثعلب ! — أتظن أن شيئا من ذلك يسوءه !! إنه مثلى: يلاحظ الناس ... إن سرك ذلك قدمتك إليه — حين تخرج من هذا السجن . . .
وأخيرا قال بروميتيه :
— وعلى ذكر السجن لماذا أنا هنا ؟ وبم أتهم ؟ أتعرف هذا أيها الخادم الذى يعرف كثيراً من الأشياء ؟
قال الخادم متكلفاً :
— لا والله ! كل ما أعلمه أنك فى سجن احتياطى . وستعرف ذنبك بعد أن يحكم عليك .
قال بروميتيه :
— هذا خير . إنى أوثر على كل حال أن أعلم .
قال الخادم :
— وداعاً ! لقد تأخرت . من عجب أن الوقت يمضى مسرعاً فى صحبتك . . . ولكن أنبئنى عن نسرك ما خطبه ؟
قال بروميتيه :
— عجباً ! لقد أنسيته .
ولم يكد الخادم ينصرف حتى أخذ بروميتيه يفكر فى نسره .

« يجب أن ينمو وأن أخف »

وإذ كان بروميتيه شديد السأم فقد دعا نسره حين أقبل المساء . — وجاء النسر . قال بروميتيه :
— لقد طال انتظارى لك .
أجاب النسر :
— فهلا عجلت دعائى !

ونظر بروميتيه لأول مرة إلى نسره ، وقد قام فى غير عناية على حديد السجن الملتوى ، وكان ذهب الأصيل يبين عن شحوبه الشديد . كان داكناً دميماً متداخلا كئيباً مستسلماً بائساً . وكان يظهر أضعف من أن يطيق الطيران . فلما رأى ذلك بروميتيه بكى إشفاقاً على نسره قائلا له :

— أيها الطائر الوفى كأنك تألم . أنبئنى ما خطبك ؟

قال النسر :

— إنى جائع .

قال بروميتيه وقد كشف عن كبده :

— كل .

فأكل الطائر . قال بروميتيه :

— إنك تؤذينى .

ولكن النسر لم يقل شيئاً آخر ذلك اليوم .

٢

فلما كان الغد حن بروميتيه إلى نسره منذ الفجر . فدعاه من أعماق حمرة الصبح المشرق ، وأقبل النسر مع الشمس ، وقد نبتت له ريشات ثلاث . فانتحب بروميتيه حناناً ، وقال وهو يمسح الريشات النابتة :

— شد ما تأخرت !

قال الطائر :

— ذلك أنى لا أقدر على الطيران السريع ، ولا أرتفع إلا فويق الأرض . . .

— لماذا ؟

— لأننى شديد الضعف .

— إلام تحتاج لتطير مسرعاً ؟

— إلى كبدك .

— إليك فكل .

فلما كان الغد زاد ريش الطائر ثمانى ريشات . وما هى إلا أيام حتى جعل يسبق مطلع الصبح . أما بروميتيه فجعل ينحف . وكان بروميتيه يقول له :

— أنبئنى عن خارج السجن . ماذا يصنع الآخرون ؟

فكان النسر يجيب :

— أما الآن فأنا أحلق ، ولا أعرف غير السماء وغيرك .

وقد أخذ جناحاه ينموان شيئاً فشيئاً .

— أيها الطائر الجميل ماذا تقص هذا الصباح ؟

— لقد روضت جوعى فى الفضاء .

— أيها النسر ! ألا تكون فى يوم من الأيام أقل قسوة على ؟

— لا ! ولكنى أستطيع أن أزداد جمالا .

وكان بروميتيه مفتوناً بماسيستقبل نسره من الجمال ، فكان يزيد فى طعامه من يوم إلى يوم .

وذات مساء أقام النسر ولم يرم .

ثم لم يبرح السجن من غد .

وكان يشغل السجين بنهسه ، وكان السجين يشغله بمسه الرفيق ، يزيده الحب نحولا كل يوم ، وكان ينفق النهار ماسحا ريشه مسحا رفيقا ، وكان ينفق الليل مغفياً تحت جناحه ، مقدما إليه من الطعام ما يشاء . — والنسر لا يفارقه ليلا ولا نهارا .

— أيها النسر الحلو ! من كان يظن ؟

— يظن . ماذا ؟

— أن ساعات حبنا ستكون عذابا .

— آه بروميتيه . . .

— قل لى أى نسرى العزيز أتعلم فيم أنا سجين ؟

— ما يعنيك من ذلك ؟ ألست معك ؟

— أجل ! ماذا يعنينى ؟ أراض أنت عنى على الأقل يانسرى الجميل ؟

— أجل ! إن رأيتنى رائع الجمال .

٣

وجاء الربيع ، والتفت حول أعواد البرج الحديدية أغصان مزهرة عطرة من اللبلاب .

قال النسر :

— سنبرح الأرض ذات يوم .

صاح بروميتيه :

— أحق هذا ؟

قال النسر :

— لقد أصبحت قويا أيداً ،وأصبحت أنت نحيلا ضئيلا ، فأستطيع أن أحملك .

— أيها النسر أيها النسر . . . احملنى .

واحتمل النسر بروميتيه .

فصل يتيح انتظار ما بعده

فى ذلك المساء التقى كوكل وداموكل وتحدثا . ولكن شيئاً من الفتور كان بينهما من غير شك . فكان كوكليس يقول :

— ماذا تريد ؟ إن الرأى بيننا مختلف .

وكان داموكل يجيب :
— أواثق أنت ؟ ليس أحب إلى من أن نتفق .
— تقول ذلك ولكنك لا تؤمن إلا لنفسك .
— أما أنت فلا تعنى حتى بالاستماع لى . قل إذن إن كنت تعلم .
— أتزعم أنك تعلم خيراً منى ؟
— وا أسفاه يا كوكليس! إنك تغضب — ولكن رحماك! قل لى ماذا يجب أن أصنع ؟
— لا تصنع لى شيئا أكثر مما صنعت . لقد اتخذت لى عينا من زجاج .
— من زجاج لأنى لم أجد خيراً من ذلك يا عزيزى كوكليس .
— نعم ! بعد أن جعلتنى أعور .
— ولكن لست أنا الذى جنى عليك يا عزيزى كوكليس .
— هذا أقل ما كان يجب أن تفعل . على أنك كنت تستطيع أن تتكلف الثمن — فقد كنت غنيا بفضل لطمتى .
— أى كوكليس لننس الماضى ! . . .
— بالطبع يروقك أن تنساه .
— ليس هذا ما أعنى . . .
— ولكن ماذا تريد أن تقول إذن ؟ هلم تكلم !
— إنك لا تسمع لى .
— لأنى أعلم ما ستقول .

وكاد الحوار الذى لا جديد فيه يتخذ مجرى سيئاً ، وإذا هما يصطدمان فجاءة بلوحة إعلان متنقلة وقد كتب عليها :

هذا المساء فى الساعة الثامنة

فى قاعة الأهلة

سيتحدث عن نسره

بروميتيه محرراً

وفى الساعة الثامنة والنصف

يقدم النسر إلى النظارة ويأتى ببعض الحركات

وفى الساعة التاسعة

يجمع الخادم التبرعات لملجأ كوكليس

قال كوكليس :
– يجب أن نرى هذا .
قال داموكليس :
– سأصحبك .

٤

ودخلت جماعة النظارة قاعة الأهلة فى تمام الساعة الثامنة .

وجلس كوكليس فى وسط القاعة عن يسار ، وجلس داموكليس فى وسطها عن يمين ، وجلس سائر الناس بين ذلك .

واستقبل بروميتيه برعد من التصفيق . فصعد درجات المنصة ، ووضع نسره إلى جانبه ، وثاب إلى نفسه . وجرى فى القاعة صمت مرتعش . . .

الاستدلال بالدور

وبدأ بروميتيه حديثه قائلا :

– سادتى ! لاأزعم لنفسى مع الأسف القدرة على إمتاعكم بما سأقول ، ولهذا استصحبت هذا النسر ، ليلعب بعض اللعب حين أفرغ من كل جزء ممل لهذا الحديث . وأنا أحمل كذلك بعض الصور الماجنة وبعض الصواريخ الطائرة . وسأسلى النظارة بها فى المواطن الخطيرة من خطبتى . فلى أن أنتظر منكم أيها السادة بعض الالتفات .

وسيشرفنى أيها السادة أن أشهدكم طعام النسر فى كل موضع جديد من خطبتى – لأن خطبتى أيها السادة تنقسم إلى ثلاثة أقسام ، (ولم أرد أن أعدل عن هذا التقسيم الذى يلائم عقلى التقليدى) . – وإذا ما كان ما قدمت يصلح فاتحة لهذه الخطبة ، فسأعلن إليكم الآن مقدماً وفى غير تكلف القسمين الأولين من أقسامها :

القسم الأول : يجب أن يكون لكل إنسان نسر .

القسم الثانى : على أن لكل واحد منا نسراً .

وإذ كنت أخشى أيها السادة أن تظنوا بى التعصب ، وإذ كنت أخشى كذلك أن أقيد حريتى فى التفكير ، فقد تعمدت ألا أعد من خطبتى إلا هذين القسمين . أما القسم الثالث فسينتج بالطبع عن القسمين الآخرين ، وسأدع الحماسة تسلك سبيلها إلى أبعد حد . – وسيختم النسر هذا الحفل بجمع التبرعات .

فصاح كوكليس :

– مرحى ! مرحى !

شرب بروميتيه جرعة من ماء . ودار النسر ثلاث مرات حول بروميتيه ثم حيا ، ونظر بروميتيه فى القاعة ، وابتسم لداموكليس ثم لكوكليس ، ولم ير آية من آيات السأم فأجل صواريخه ، واستأنف قائلا :

٥

مهما يكن حظى من البراعة البيانية أيها السادة فلن أستطيع أمام بصائركم النافذة ، أن أخفى التناقض الذى لا مفر منه والذى ينتظرنى فى أول حديثى .

فمهما تصنع أيها السادة فلا سبيل لنا إلى الافلات من التناقض . ماعسى أن يكون التناقض ؟ أجرؤ أيها السادة على أن أقول : إن كل تناقض إنما هو تأكيد للمزاج ، إذ حيث ينعدم الدليل يتأكد المزاج .

فاذا أعلنت : يجب أن يكون لكل إنسان نسر ، كان لكم أن تتصايحوا : لماذا ؟ — وإذن فكيف تريدون أن أجيب بغير هذا الجواب الذى يؤكد شخصيتى ومزاجى وهو : لا أحب الناس ، وإنما أحب مايلتهمهم .

المزاج أيها السادة هو مايجب أن يثبت نفسه . ستقولون : هذا تناقض جديد . ولكنى قلت آنفاً إن كل تناقض إنما هو تأكيد للمزاج . ومن حيث إنى أرى وجوب تأكيد المزاج فانى أعيد : لا أحب الناس وإنما أحب ما يلتهمهم . — وعلى ذلك فماذا يلتهم الانسان ؟ يلتهمه نسره . وإذن أيها السادة فيجب أن يكون لكل إنسان نسر . وأظن أنى قد أثبت ذلك إثباتاً كافياً .

. . . وا أسفاه ! إنى أرى أيها السادة أنى قد أمللتكم ، فبعضكم يتثاءب . وقد أستطيع فى الحق أن أسوق هنا بعض النكات ، ولكنكم قد تجدونها متكلفة ، فان عقلى مطبوع على الجد لا يحيد عنه . لذلك أوثر أن أدير عليكم بعض الصور الماجنة . ذلك أحرى أن يهدئ الذين يملهم حديثى ، فأمضى إلى الغاية .

وشرب بروميتيه جرعة من ماء ، ودار النسر ثلاث مرات حول بروميتيه ، ثم حيا . واستأنف بروميتيه :

بقية حديث بروميتيه

سادتى : لم أعرف دائماً نسرى . وهذا هو الذى يحملنى على أن أستنتج بقياس له اسم خاص فى المنطق أنسيته ، لأنى حديث عهد بالمنطق لم أدرسه إلا منذ ثمانية أيام — أقول إن هذا هو الذى يحملنى على أن أستنتج . وإن لم يكن هنا إلا نسر واحد هو نسرى ، أن لكل واحد منكم أيها السادة نسراً .

لقد كتمت قصتى إلى الآن . على أنى إلى الآن لم أكن أفهمها . وإذا أخذت نفسى بأن أقصها عليكم فى هذه الساعة ، فلأنها تظهر لى فى هذا الوقت بفضل نسرى رائعة حقا .

٦

سادتى ، قلت لكم إنى لم أكن أعرف نسرى دائماً . وكنت قبل أن أعرفه خلياً جميلا ، سعيداً عارياً دون أن أعلم ذلك . يا لها أياماً سعيدة . على جوانب القوقاز المشرقة كانت آسيا الهلوك تعانقنى سعيدة عارية أيضاً ، وكنا معاً نتدحرج فى الأودية ، ونجد غناء الهواء ، وضحك الماء ، وأرج أيسر الزهر شأناً . وكثيراً ما كنا نضطجع فى ظل الأغصان العراض ، بين أزهار يتنازى عليها ذبابها متناغياً . وكانت آسيا تقترن بى يملؤها الضحك ، ثم فى شئ من العذوبة يمتزج طنين الذباب ، وهفيف الورق ، وخرير الجداول الكثيرة ، فيدعونا إلى أعذب النوم وأحلاه . وكان كل شئ من حولنا يسمح و يحمى عزلتنا التى لا يطيقها الانسان . — وذات يوم قالت لى آسيا فجاءة : ينبغى أن تعنى بالناس .

وكان يجب على أولا أن أتمسهم .

كنت أريد أن أعنى بهم ، ولكن عنايتى بهم كانت إشفاقا عليهم .

كانوا يغمرهم شئ من ظلمة . فاخترعت لهم شيئا من نار . ومنذ ذلك الوقت بدأ نسرى . من ذلك الوقت جعلت أشعر أنى عريان .

وهنا انطلق التصفيق من بعض جوانب القاعة . وفجأة أمعن بروميتيه فى النحيب . وخفق النسر بجناحه وتغنى . وفى حركة بشعة فرج بروميتيه صداره وقدم كبده الجريحة إلى الطائر . فتضاعف التصفيق . ثم دار النسر ثلاث مرات حول بروميتيه . وشرب هذا جرعة من ماء ، وثاب إلى نفسه ، واستأنف حديثه قائلا :

٧

سادتى كان التواضع يسيطر على . معذرة إليكم فانى إنما أتحدث إلى الجمهور لأول مرة . أما الآن فالصراحة هى المسيطرة : سادتى لقد عنيت بالناس أكثر جدا مما كنت أقول . سادتى لقد أهديت إلى الناس خيرا كثيرا . سادتى لقد أحببت الناس حبا عنيفا هائما سيئ العاقبة . — ولقد أحسنت إليهم حتى كأننى خلقتهم خلقا ؛ فأى شئ كانوا قبلى ؟ — كانوا موجودين ، ولكنهم لم يكونوا يشعرون بوجودهم . — صنعت لهم يا سادتى بكل ما ملكت من حب ، هذا الضمير كأنه النار التى تضئ لهم . — وأول ما عرفوا من الشعور إنما كان الشعور بجمالهم . هذا الذى أتاح لهم بقاء النوع . وكذلك استطاع الانسان أن يبقى فى ذريته . وكذلك تكرر جمال الانسان الأول مستويا لا يحفل به أحد ولا يتحدث عنه أحد . وكان ذلك خليقا أن يتصل زمنا طويلا . — ولكنى كنت بهم معنيا ، وكنت أحمل على غير علم منى البيضة التى خرج منها نسرى . فأردت أكثر من ذلك بل خيرا من ذلك . خيل إلى أن بقاء النوع وأن اتصاله المتقطع إنما يصوران فيهم تنظر شئ — على حين كان نسرى وحده هو الذى ينتظر . أما أنا فلم أكن أعلم ؛ إنما كنت أظن أن الانسان هو الذى كان ينتظر ؛ كنت أضع هذا الانتظار فى الانسان .

على أنى وقد وضعت الانسان على صورتى . أفهم الآن أن فى كل فرد من أفراده شيئا ينتظر وهو لم يتفتح بعد . فى كل فرد من أفراده كانت بيضة النسر . . . ثم لا أدرى ؛ لا أستطيع أن أفسر ذلك ، وإنما أعرف أنى لم أقنع بمنحهم الشعور بوجودهم فمنحتهم الأسباب التى تجعل وجودهم نافعا مغنيا . منحتهم النار واللهب وكل الفنون التى يكون اللهب لها سادة . أشعت الحرارة فى نفوسهم ، فتفتح فيهم مايلتهمهم من الايمان باستعداد الانسان للرق . وكنت أجد متعة غريبة حين أرى الانسان يفنى صحته ليبقى نوعه — لا مؤمنا بالخير بل مريضا طامحا إلى خير من الخير . وكان إيمانهم بالرق ، أيها السادة ، هو نسرهم . فنسرنا ، أيها السادة ، هو علة وجودنا .

وقد جعلت سعادة الانسان تنقص وتنقص ولكنى لم أحفل بذلك : فقد ولد النسر . لم أكن أحب الناس ، وإنما كنت أحب ما يبقى من آثارهم . وقد فرغت من انسانيتى التى لا تاريخ لها . . . إنما تاريخ الانسان أيها السادة هو تاريخ النسور .

٨

وهنا اندفع شىء من تصفيق ، فاعتذر بروميتيه مضطربا :

— أيها السادة لقد كنت أكذب ، معذرة إليكم ؛ فلم يكن هذا سريعا إلى هذا الحد . كلا لم أحبب النسور دائما . لقد آثرت عليها الانسان وقتا طويلا ؛ وكنت حريصا على سعادته المنقوصة لأنى نقصتها فكنت أرانى مسئولا عنها . وكنت كلما فكرت فيها حين يقبل المساء أقبل نسرى على محزونا كأنه الندم وأخذ يأكل .

كان فى ذلك الوقت نحيفا شاحبا مهتما كئيبا .— كان دميما كأنه الصقر .— فانظروا إليه الآن أيها السادة وافهموا لماذا أتكلم ؛ لماذا أجمعكم هنا ! لماذا أضرع إليكم فى أن تسمعوا لى : ذلك أنى استكشفت هذا ، وهو أن النسر يمكن أن يصير جميلا جدا — ولكل واحد منكم نسره كما أكدت لكم ذلك آنفا . نسر ؟— وا أسفاه ! لعله أن يكون صقراً ! لا ، لا ! لا صقر أيها السادة ! — يجب أيها السادة أن يكون لكل إنسان نسر . . .

والآن أصل إلى المسألة الخطيرة : — لماذا النسر ! آه ! لماذا ! — ليجب النسر على هذا السؤال . هذا نسرى أيها السادة أحمله إليكم ... أيها النسر أمجيب أنت الآن ؟ ...

ثم التفت بروميتيه قلقا إلى نسره . وكان النسر ساكتا وظل ساكتا . . . فاستأنف بروميتيه فى صوت أسف :

— أيها السادة ! لقد سألت نسرى فى غير طائل . . . أيها النسر ! تكلم الآن : إنهم يستمعون لك . من أرسلك ؟ — لماذا اخترتنى ؟ من أين أقبلت ؟ إلى أين تذهب ؟ تكلم ما طبيعتك ؟ . . . (وظل النسر صامتا .) — كلا ! لا شىء ! لا كلمة ! لا صيحة ! وقد ظننت أنه سيكلمكم أنتم ؛ ولهذا استصحبته . . . أأتكلم إذن وحدى هنا . كل شىء صامت ! كل شىء صامت — ما معنى هذا ! . . . لقد سألته فى غير طائل .

ثم التفت إلى النظارة قائلا :

— لقد أملت أيها السادة أن تحبوا نسرى ، وأن حبكم سيجعل لجماله علة . — من أجل ذلك منحته نفسى وغذوته بدم قلبى . ولكنى أرى أنى أعجب به وحدى ... أليس يكفيكم أن يكون جميلا ؟ — أم تنكرون على جماله ؟ — أنظروا إليه على أقل تقدير ... إنى لم أعش لشئ غيره . — وأنا الآن أحمله إليكم . ها هو ذا ! — ولقد كنت أعيش من أجله — أما هو فلم يعيش ؟ — أيها النسر الذى غذوته بدمى بنفسى والذى منحته كل حى . . . (وهنا قطع النحيب على بروميتيه حديثه) — أيجب إذن أن أترك الدنيا دون أن أعلم لماذا أحببتك ، ودون أن أعلم ماذا تعمل وإلى أى حال تصير بعدى على هذه الأرض . . . على الأرض سألت . . . سألت فى غير طائل .

وكان الكلام يحتبس فى حلقه ؛ وكانت الدموع تمنع صوته من أن يبلغ السامعين .

ثم استأنف قائلا وقد استرد شيئا من هدوء :

— معذرة أيها السادة ؛ — معذرة من أن تحدثت إليكم بأشياء عظيمة الخطر ؛ ولو قد علمت شيئا أعظم منها خطرا لأفضيت إليكم به .

ثم مسح بروميتيه عرقه المتصبب وشرب جرعة من الماء وأضاف :

آخر حديث بروميتيه

لم أعدد من حديثى إلا هذا القدر . . .

وهنا اشتدت الحركة فى القاعة ؛ وهم الذين أدركهم السأم أن ينصرفوا . فصاح بروميتيه :

— سادتى إنى أتوسل إليكم فى أن تقيموا . لن أطيل . ولكن المهم لم يقل بعد إن لم أكن قد أقنعتكم . أيها السادة ! — أرجو . . . هلم ! شيئا من السرعة . . . بعض الصواريخ . . . وأنا محتفظ بأقوسها للحظة الأخيرة . . .

— أيها السادة رحماكم اجلسوا ؛ انظروا . أترون أنى أقتصد . إنى أرسل منها ستة فى وقت واحد . ومع ذلك فغلق الأبواب يا فتى .

وأثرت الصواريخ تأثيرا حسنا ، فجلس أكثر الواقفين .

— والآن أين بلغت من حديثى ؟ لقد اعتمدت على الاندفاع الذى أصبته فقد قطعته حركتكم . . .

فصاح صائح :

— ليكن ، هذا خير .

قال بروميتيه :

— آه ! لقد ذكرت . . . كنت أريد أن أقول لكم . . .

(فتصايح الناس من كل جانب : — حسبك ! حسبك ! !)

. . . إنه يجب عليكم أن تحبوا نسركم .

فارتفعت إليه فى سخرية من هنا وهناك أسئلة : « لماذا ؟ »

— إنى أسمع أيها السادة أسئلتكم « لماذا » : فأجيب : لأنه حينئذ سيصير جميلا .
— وإذا صرنا نحن إلى الدمامة .
— أيها السادة إن ما أحمل إليكم هنا ليس كلاما تبتغى به المنفعة . . .
— هذا بين .
— إنما هو كلام قوامه الاخلاص . أيها السادة يجب أن يخلص الانسان لنسره . . . (فيضطرب الناس وينهض كثيرون) . أيها السادة لا تقفوا ! فسأسمى بعض الشخصيات . . . لست فى حاجة إلى أن أذكر هنا قصة كوكليس وداموكليس . فكلكم يعرفها . وهأنذا أواجههما بالحق . إنما سر حياتهما فى إخلاص كل منهما فى دينه . فى إخلاصك للطمتك يا كوكليس ، وفى إخلاصك لورقتك يا داموكليس . أى كوكليس كان يجب عليك أن تتعمق جرحك وعينك الفارغة أى كوكليس . أما أنت يا داموكليس فقد كان يجب أن تستبقى المئات الخمس من الفرنكات ، وأن تظل مدينا بها فى غير خجل ، وأن تظل مدينا بأكثر منها ، وأن تظل مدينا فى فرح . هذا هو نسركما أنتما . وهناك نسور أخرى ؛ هناك نسور أعظم منهما مجدا . ولكنى أقول لكم هذا : إنما النسر يلتهمنا على كل حال سواء أكان فضيلة أم رذيلة ، واجبا أم شهوة . إجتهد فى ألا تكون رجلا عاديا ، وإذن فلن تفلت من النسر . ولكن . . .
(وهنا كاد صوت بروميتيه يضيع فى صخب الجمهور) — ولكنكم إذا لم تطعموا نسركم محبين له فسيظل شاحبا بائسا مستخفيا من الناس جميعا ولكنه مع ذلك متربص ؛ وهو الذى يسمى حينئذ بالضمير ، وهو غير خليق بما يثير فى النفوس من آلام ؛ لا حظ له من جمال . — أيها السادة يجب أن يحب الانسان نسره ، وأن يحبه ليصير جميلا . فقد يجب أن تحبوه لأنه سيصير جميلا . . . أما الآن فقد فرغت . وسيأخذ نسرى فى جمع التبرعات . أيها السادة يجب أن تحبوا نسرى : — وأنا مع ذلك أرسل بعض الصواريخ .

. . . .
. . . .

وبفضل هذه التسلية الصاروخية تفرقت الجماعة فى غير مشقة ؛ ولكن داموكليس أصابه البرد حين خرج من القاعة .

مرض داموكليس

١

قال الخادم لبروميتيه وقد لقيه بعد ذلك بأيام :
— هل تعلم أن حاله تسوء ؟
— من ؟
— داموكليس . أجل تسوء جدا : — أدركته العلة منصرفه من محاضرتك . . .
— أى علة ؟

— يتردد فيها الأطباء ؛ — إنها علة شديدة الندرة . . . يتحدثون عن ضيق فى العمود . . .
— فى العمود ؟
— فى العمود . — وإذا لم تدركه العافية باحدى المعجزات فلن يزداد المرض إلا خطراً . إنه ضعيف جدا لاشك فى ذلك ؛ وإنك لا تحسن بعيادته .
— أتعوده كثيراً ؟
— أنا ؟ كل يوم . إنه قلق على كوكليس ، وانا أحمل إليه أنباءه .
— ولما لا يذهب إليه بنفسه ؟
— كوكليس ؟ — إنه مشغول جدا . لقد أثر فيه حديثك تأثيراً هائلا . أتجهل ذلك ؟ فهو لا يتحدث إلا عن الاخلاص . وهو ينفق وقته مطوفا فى كل مكان متلمسا لطمة جديدة تؤدى شيئا من المال لرجل من أمثال داموكليس . وهو يغرى فى غير نفع خده الآخر .
— نبئ بذلك صاحب الملايين .
— إنى أنبئه بذلك فى كل يوم . بل أنا من أجل ذلك أعود داموكل فى كل يوم .
— ولم لا يعوده هو ؟
— هذا ماأقوله له ولكنه يرفض . لايريد أن يعرف . ومع ذلك فقد يبرأ داموكليس إذا عرف من أحسن إليه : أقول له ذلك ولكنه يمعن فى إبائه ويحرص على أن يظل مجهولا — فقد فهمت الآن أنه لا يعنى بداموكليس وإنما يعنى بعلته .
— ألم تقل لى إنك ستقدمنى إليه . . . ؟
— منذ الآن إن شئت .
ومضيا إليه من ساعتهما .

٢

وإذ لم نعرف زوس صديق الخادم فقد أزمعنا ألا نتحدث عنه إلا قليلا . فلنرو عنه فى يسر هذه الكلمات .

حديث صاحب الملايين

الخادم : — أليس حقا أنك عظيم الثراء ؟
صاحب الملايين ملتفتا قليلا نحو بروميتيه : — أنا غنى ، أغنى جدا مما يمكن أن يظن . أنت لى ، وهو لى ، وكل شئ لى . — إنكم تظنون أنى صاحب مصرف ، ولكنى شئ آخر . وإن تأثيرى فى باريس خفى ، ولكن هذا لا يقلل من قيمتى . هو خفى لأنى

لا أتتبعه . نعم ! إنى أحب قبل كل شئ الابتكار . أنا أنشئ . ثم إذا تقدم ما أنشأته أعرضت عنه ، ثم لم أمسسه .

الخادم : — أليس حقا أن أعمالك عابثة ؟

صاحب الملايين : — أنا وحدى ، إنما صاحب الثراء الذى لا حد له هو الذى يستطيع أن يعمل فى غير غاية . أما الانسان فلا . ومن هنا أحببت اللعب ؛ لم أحب الكسب ، افهما عنى — إنما أحب اللعب . وماذا عسى أن أكسب وقد ملكت كل شئ ؟ حتى الزمن . . . أتعرفان سنى ؟

بروميتيه والخادم : — يظهر أن سيدنا مازال شابا .

صاحب الملايين : — وإذن فلا تقاطعنى يا بروميتيه . نعم أنا كلف باللعب . واللعب الذى أوثره هو أن أقرض الناس — أقرضهم لاعبا . أقرضهم مضيعاً للمال . أقرضهم وكأنما أعطيهم . — يعجبنى ألا يعلم الناس أنى أقرض . أنا ألعب ولكنى أخفى لعبى . أنا أجرب . أنا ألعب كما يلقى الهولندى بذوره ، كما يزرع بصيلة خفية . وما أقرضه للناس وما أزرعه فى الناس يعجبنى أن ينمو ، يعجبنى أن أراه ينمو . وبغير ذلك يصبح الانسان فارغاً !—دعانى أقصص عليكما أحدث تجاربى ، وستعينانى على ملاحظتها . اسمعا لى أولا وستفهمان بعد ذلك . ستفهمان .

لقد هبطت إلى الشارع ملتمساً الوسيلة إلى أن أوذى أحد الناس بالخير الذى سأسوقه إلى غيره ، لأمتع هذا الأخير بالألم الذى سأمتحن به ذلك الأول . ويكفينى لذلك لطمة وورقة قيمتها خمسمائة فرنك ؛ لأحدهما اللطمة وللاخر الورقة . أواضح هذا ؟ أما ما هو أقل من هذا وضوحا ، فهى الطريقة التى يكون بها المنح .

قال بروميتيه مقاطعاً :

— أعرف ذلك .

قال زوس :

— ماذا ! أتعرف ؟

— لقد لقيت داموكليس وكوكليس ؛ إنما أحدثكما عنهما بالضبط : إن داموكليس يلتمسك ويدعواك ؛ إنه قلق ؛ إنه مريض ؛ أشفق عليه وأظهر له نفسك .

— ياسيدى حسبك — لست فى حاجة إلى أن أتلقى النصح من أحد .

وهم بروميتيه أن ينصرف . ولكن يبدو له فجاءة :

— سيدى معذرة إليك واعف لى عن سؤال متطفل . أظهره لى متفضلا ! كم أود لو أراه . . .

— ماذا ؟

— نسرك .

— لا نسر لى يا سيدى .

— لا نسر لك ؟ ليس له نسر !! ولكن . . .

— لا نسر لى كما أنه لا نسر فى باطن يدى . النسور (وكان زوس يضحك) النسور أنا الذى أعطيها .

وكان ذهول بروميتيه عظيما .

قال الخادم لصاحب المصرف :
— أتعرف ماذا يقال ؟
— ماذا يقال ؟
— يقال إنك الاله !
قال الآخر :
— لقد سمعت ذلك .

٣

ذهب بروميتيه ليعود داموكليس . ثم عاده مرات كثيرة . ولم يكن يتحدث إليه كل مرة ؛ ولكن الخادم كان يعطيه أنباءه . وقد استصحب كوكليس ذات يوم . فاستقبلهما الخادم . قال بروميتيه :
— كيف هو ؟
أجاب الخادم :
— سيء سيء جداً . لم يطعم البائس شيئاً منذ ثلاثة أيام . إن مصير ورقته يعذبه ، فهو يلتمسها في كل مكان ولا يجدها في مكان . يظن أنه أكلها فيتخذ المسهل ويلتمسها فيما يخرج منه . فاذا ثاب إليه عقله وذكر هذه المغامرة لم يزده ذلك إلا حزناً ونغصاً . وهو واجد عليك يا كوكليس ، فهو يزعم أنك تعقد دينه حتى يختلط الأمر عليه ، وهو يهذي في أكثر الأحيان . ونحن ثلاثة نسهر عليه الليل ، ولكنه يثب في سريره حتى يحول بيننا وبين النوم .
قال كوكليس :
— أيمكن أن نراه ؟
— نعم ! ولكنك ستراه قد تغير . إن القلق يفنيه . لقد نحف ونحف ونحف . أتراك تعرفه ؟ — وهو أتراه يعرفك ؟
ودخلوا يسعون على أطراف أقدامهم .

الأيام الأخيرة لداموكليس

وكانت غرفة داموكليس بغيضة الرائحة لما اشتملت عليه من أدوية ، وكانت ضيقة منخفضة السقف . وكان ينتشر فيها ضوء حزين من ساهرتين . وكان داموكليس يرى في سرير تحت كومة قذرة من الأغطية . وكان يتحدث إلى شخص ما وإن لم يكن أحد يصغي إليه ؛ وكان صوته أجش مبحوحاً . وقد نظر كل من بروميتيه وكوكليس إلى صاحبه وقد ملأهما الروع ! ولم يسمعهما داموكليس حين أقبلا ، فمضى في حديثه كأنه كان وحيداً .

كان يقول :

— ومنذ ذلك اليوم ظهر لى فى وقت واحد أن حياتى قد أصبحت ذات معنى ، وأنى لا أستطيع أن أحيا ! هذه المئات الخمس من الفرنكات البغيضة الممقوتة ، كنت أظن أنى مدين بها للناس جميعاً ولا أجرؤ على أن أعطيها لأحد — لقد حرمتها الناس جميعاً . ولم أكن أفكر إلا فى أن أتخلص منها — ولكن أين ؟ — فى صندوق التوفير ! لقد كان ذلك خليقا أن يزيد همى . كان دينى يزداد بمقدار ما ينتج من فائدة ؛ وكان ثقيلا على أن أدع هذا المال راكداً . وكذلك رأيت أن أدير هذا المقدار من المال . فكنت أحمله دائما ؛ وكنت أستبدل فى نظام كل ثمانية أيام بالورقة نقداً وبالنقد ورقة . وليس فى الصرف ربح ولا خسارة ، وإنما هو جنون دائر ليس غير . وإلى هذا كان يضاف الألم من أنى إنما تلقيت هذه المئات الخمس من الفرنكات بفضل لطمة تلقاها رجل آخر ! — وفى ذات يوم لقيتك فى المطعم كما تعلم . . .

قال الخادم :

— إنما يتحدث عنك .

— وإذا نسر بروميتيه يحطم واجهة ويفقأ عين كوكليس . . . لقد نجوت !! عابثا متنهزا للمصادفة مستفيدا من الحظ . سأزلق هذا المبلغ فى أثناء هذه الأحداث . لا دين ! لقد نجوت ! — واحسرتاه يا سادتى . ياله من خطأ . . . إنما احتضر منذ ذلك اليوم . كيف أفسر لكم هذا ؟ أيمكن أن تفهموا ما أجد من لوعة هذه المئات الخمس من الفرنكات ؟ أنا مدين دائما ولكنها ليست فى يدى ! لقد هممت فى جبن أن أتخفف من دينى ولكنى لم أؤده . وإنى ليأخذنى الكابوس أثناء الليل فأهب وقد تصببت عرقا وأجثو صائحا : « رباه ! رباه ! لمن كنت مدينا ؟ — رباه ! لمن كنت مدينا ! » لست أدرى ولكنى كنت مدينا . — إن الدين يا سادتى شىء بغيض . أما أنا فقد آثرت أن أموت . — والآن فان أشد ما يؤلمنى هو أنى نقلت إليك هذا الدين يا كوكليس . . . كوكليس ! إن عينك ليست لك لأن المال الذى اشتريتها به لم يكن لى . يقول الكتاب المقدس : « أى شىء عندك لم يعط لك » . . . يعطى لى ممن ؟ ممن ؟ ممن ؟ — إن شقائى لا يطاق .

وكان صوت البائس يتقطع ويبتل ويختنق فى الشهيق والنحيب والدموع . وكان بروميتيه وكوكليس قلقين يسمعان . قد أخذ كل منهما بيد صاحبه وهما يرتعدان . وكان داموكليس يقول وكأنه كان يراهما :

— إن الدين لبغيض أيها السادة . . . ولكن أشد منه هولا الندم على محاولة التخلص من الدين . . . كما لو كان الدين أقل وجوداً إذا حمله شخص آخر . . . ولكن عينك تحرقك يا كوكليس ! — أى كوكليس !! إنى واثق بأن عينك الزجاجية تحرقك . انزعها ! — إن لم تكن تحرقك فهى خليقة أن تحرقك . — إنها ليست لك هذه العين . . . وإذا لم تكن لك فهى إذن لأخيك . . . لمن هى ؟ لمن ؟؟ لمن ؟؟

وكان البائس يبكى ؛ وكان يفقد عقله وقوته ؛ وكان أحياناً يحدق فى كوكليس وبروميتيه كأنه يعرفهما ثم يصيح بهما :

— إفهما عنى إشفاقاً على ! إن الاشفاق الذى أطلبه إليكما ليس عصابة مبتلة على جبهتى

وليس قدحا من الماء البارد وليس شرابا حارا ؛ وإنما هو أن تفهما عنى . أعينانى إذن رحمة لى على أن أفهم نفسى ! — إن عندى هذا الذى لا أدرى من أين جاءنى ، والذى أنا مدين به لا أدرى لمن ! لمن !! لمن !! — ولأجل أن أخلص من هذا الدين ظننت أنى أقدر على ذلك فذهبت أمنحه لغيرى ! لغيرى !! لكوكليس تصدقت عليه بعين !! ولكن هذه العين ليست لك يا كوكليس . أرددها . أرددها ، إلى من ! إلى من !! إلى من !!
ولم يستطع كوكليس وبروميتيه أن يحتملا فانصرفا .

٤

قال كوكليس وهما يهبطان فى السلم :
— هذا جزاء من اكتسب الغنى من ألم غيره .
قال بروميتيه :
— ولكن أتجد على أقل تقدير شيئاً من الألم ؟
قال كوكليس :
— أجد الألم فى عينى أحيانا ، فأما اللطمة فلا أكاد أجد لها ألماً ؛ لقد خف وقعها . ولست أحب ألا أكون قد تلقيتها لأنها أظهرتنى على أنى رجل خير . وهذا يعجبنى ويرضينى ، فما أنفك أفكر فى أن ألمى قد عاد على نظير لى بالرزق وأغل عليه مئات خمساً من الفرنكات .
قال بروميتيه :
— ولكن نظيرك هذا يموت من ذلك يا كوكليس .
— ألم تكن تقول له إن عليه أن يغذو نسره ؟ — ماذا تريد ؟ لم نستطع قط ، داموكليس وأنا ، أن نتفق ؛ فان آراءنا متناقضة إلى أبعد حدود التناقض .

ثم انصرف بروميتيه عن كوكليس ومضى مسرعا إلى زوس صاحب المصرف . فقال له :
— أشفق على هذا الرجل وأره نفسك أو أعلمه من أنت . إن البائس يموت حسرة . وقد أفهم أن تقتله لأنك تجد فى ذلك لذة ، ولكن يجب أن يعلم على الأقل من قاتله — ليستريح إلى هذا العلم .
قال صاحب الملايين :
— لا أريد أن أفقد سلطانى .

٥

وكانت آخرة داموكليس خليقة بالاعجاب ؛ فقد نطق قبيل ساعته الأخيرة ببعض هذه الكلمات التى تبكى أشد الناس جحودا وتحمل المؤمنين بالدين على أن يقولوا إنها مليئة بالعبرة والموعظة . وكان أظهر شعوره ما تصوره هذه الكلمات : — أرجو على الأقل ألا يكون هذا المبلغ قد قضى عليه الحرمان .

فسئل : من هو ؟
قال داموكل وهو يجود بنفسه :
— هو من أعطانى شيئاً . . .
قال الخادم فى لباقة :
— كلا ! إنما هو الاله .
ومات داموكليس حين سمع هذه الكلمة الطيبة .

الجنازة

وكان بروميتيه يقول لداموكليس وهما يتركان غرفة الموت :
— إن هذا لفظيع ! إن آخرة داموكليس لتملأ نفسى جزعاً . أحق أن محاضرتى كانت مصدر مرضه ؟
قال الخادم :
— لا أستطيع أن أؤكد ذلك ، ولكنى أعلم على الأقل أنه كان شديد التأثر بما كنت تقول عن نسرك .
قال كوكليس :
— عن نسرنا .
قال بروميتيه :
— لقد كنت شديد الاقتناع . ولذلك أقنعته . . . لقد كان حديثك شديد القوة . . .
— كنت أظن أن أحداً لم يكن يصغى إلى . . . وكنت من أجل ذلك ألح . . . ولو قد علمت أنه كان يسمع لى . . .
— ماذا كنت قائلا ؟
قال بروميتيه مغمغماً :
— نفس ما قلته .
— وإذن ؟
— ولكنى لن أقول ذلك منذ الآن .
— ألم تعد مقتنعاً ؟
— لقد أسرف داموكليس فى الاقتناع . فأما الآن فان لى فى نسرى آراء أخرى .
— وعلى ذكر النسر أين هو ؟
— لا تخف يا كوكليس فانى أرقبه من كثب .
— وداعاً . سأتخذ الحداد . متى نلتقى ؟
— حين الدفن فيما أظن . سأتكلم عند القبر . يجب أن أصلح شيئاً . ثم أدعوكما بعد ذلك ، سأقدم طعام الحداد ، وفى نفس المطعم الذى رأينا فيه داموكليس لأول مرة .

٦

وفى ساعة الدفن لم يكن المشيعون كثيرين ، فلم يكن داموكليس معروفا إلا قليلا ، فلم يلتفت إلى موته أحد من الذين لم يعرفوا هذه القصة ، وقد التقى بروميتيه والخادم وكوكليس عند القبر وشهد الدفن بعض الفارغين من الذين استمعوا للمحاضرة ، وكان كل واحد ينظر إلى بروميتيه وكان معروفا أنه سيتكلم ، وكان بعضهم يسأل بعضا : « ما عسى أن يقول ؟ » لأنهم كانوا يذكرون ما قال . وكان الدهش يسبق خطبته وكان مصدر هذا الدهش أن الناس لم يكونوا يحققون بروميتيه ، كان بدينا نشيطا مبتسما مبتسما إلى حد أن سيرته كادت تعد مخالفة للمألوف ، ثم تقدم نحو القبر باسما دائما ولم يكد يبلغه حتى استدار ونطق بهذه الكلمات :

قصـــة تيتــير

أيها السادة الذين يتفضلون بالاستماع لى إن الجملة التى أقتبسها من الكتاب المقدس وأتخذها مقدمة لما سأستأنف من حديث هى هذه :

— « دعوا الموتى يدفنوا الموتى » . فلن نشغل أنفسنا إذن بداموكليس . — لقد رأيتكم لآخر مـرة مجتمعين تسمعون لى وأنا أتحدث عن نسرى . — لقد مات لهذا الحديث داموكليس ، فلندع الموتى . . . ومع ذلك فبسببه ، بل بفضل موته قتلت نسرى . . .

فتصايح الناس : قتل نسره ! ! !

— وبهذه المناسبة استمعوا لهذه القصة . . . وهبونى لم أقل شيئا .

١

فى البدء كان تيتير .

وكان تيتير وحده يعانى السأم وقد أحاطت به المستنقعات . — وهنا مر مينالك فوضع فكرة فى رأس تيتير وألقى حبة فى المستنقع أمامه . وكانت هذه الفكرة هى الحبة وكانت هذه الحبة هى الفكرة . وبمعونة الله نبتت الحبة وأصبحت نبتة ضئيلة. وكان تيتير فى المساء والصباح يجثو أمامها ويشكر الله الذى وهبها له . وهذه النبتة نمت . وإذ كان جذرها قويا فما أسرع ما أيبست الأرض من حولها ، بحيث وجد تيتير أرضا جامدة يضع عليها قدميه ، ويسند إليها رأسه ويقوى عمل يديه .

فلما بلغت هذه النبتة قامة تيتير استطاع تيتير أن يذوق بعض اللذة بالنوم فى ظلها . وإذ كانت هذه الشجيرة بلوطة فقد كان من الطبيعى أن تعظم جدا ، حتى عجزت يد تيتير عن أن تقوم وحدها بتنقية الأرض وعزقها حول هذه البلوطة ، وبسقى الشجرة وتنظيفها وتقليمها والعناية بها وصيانتها من الدود واجتناء ثمراتها الكثيرة المختلفة

فى الفصل الملائم لذلك . فاستعان إذن بمنق وعازق ، وساق ، ومنظف ، ومقلم ، ومهذب ، ومشذب ، وذائد للدود ، وبعض الغلمان الذين يحسنون العناية بالفاكهة . وإذ كان على كل واحد من هؤلاء أن يقصر جهده على ما كلف من عمل فقد كان من المأمول أن يكون كل منهم متقنا لعمله .

ولتنظيم دفع الأجور لهؤلاء الناس احتاج تيتير إلى حاسب كما احتاج إلى خازن يشاركه فى العناية بثروة تيتير ، التى جعلت تنمو بنمو شجرة البلوط .

وقد شجر بعض الخلاف بين المشذب والمهذب حول توزيع عملهما ، فعرف تيتير الحاجة إلى حكم ، واستعان هذا الحكم بمحاميين : أحدهما مدع والآخر منكر ، واتخذ تيتير مسجلا يقيد الأحكام . وإذ كانت الأحكام إنما تسجل لتنفع وليستعان بها فى مستقبل الأيام فقد اتخذ تيتير حافظا للأحكام . وقد جعلت الدور ترتفع على الأرض شيئا فشيئا . ولم يكن بد من شرطة لحفظ الأمن ، ومن شرطة لحماية الآداب .

وقد ثقل العمل على تيتير فأخذ يحس ثقل المرض ، وقد دعا الطبيب فوصف له الزواج — وإذ لم يكن تيتير يستطيع أن ينهض وحده بأعباء هؤلاء الناس الكثيرين ، فقد اتخذ له مساعدا ، ونشأ عن ذلك أن أصبح هو عمدة . ومنذ ذلك الوقت لم يبق له إلا شئ قليل من فراغ ليتصيد السمك من نافذة بيته التى ظلت مطلة على المستنقعات .

وقد اتخذ تيتير أيام أعياد يباح فيها لشعبه أن يلهو . وكان اللهو يحتاج إلى نفقة كثيرة ، وكان كل واحد من أفراد الشعب قليل المال لا يستطيع أن يقرض الناس جميعا ، فبدأ تيتير بجباية بعض المال من كل واحد .

وقد قامت شجرة البلوط فى السهل (فلم تتحول الأرض برغم المدينة وبرغم الجهود التى بذلها هؤلاء الناس الكثيرون عن طبيعة السهل) وقد قامت الشجرة فى السهل بحيث كان أحد جانبيها فى الظل والآخر معرضا للشمس . وكان تيتير يصدر أحكامه فى الجانب الظليل ويقضى حاجته الطبيعية فى الجانب الآخر .

وكان تيتير سعيدا لأنه كان يشعر بأنه ينفع الناس بحياته الحافلة بالأعمال .

٢

وجهد الانسان قابل للاستثمار . فقد كان نشاط تيتير يزداد بفضل مايلقى من النجح . وكان حذقه الطبيعى يغريه بأعمال أخرى ، فجعل يعنى بتأثيث داره وفرشها وتهيئتها للسكنى . وقد أعجب الناس بحسن تنظيمه للاستار وتهيئة كل إداة لما يسرت له . وكان ماهراً بارعا فى التجربة ، بل هو قد اخترع مشاجب معقوفة يعلق عليها الاسفنج ، ثم لم تمض أربعة أيام حتى تبين أنها غير ملائمة بحال من الأحوال .

وأقام تيتير إلى جانب حجرته حجرة لمصالح الشعب العامة . ولما كان المدخل مشتركا بين الحجرتين ، لم يكن من الممكن أن تطرد المدفئتان الدخان معاً ، فكان ايقاد إحداهما فى أوقات البرد يشيع الدفء فى حجرة والدخان فى الحجرة الأخرى . فتعود تيتير إذا أراد أن يوقد النار أن يحتفظ بنافذته مفتوحة .

وكان تيتير يحمى كل شئ، ويعمل على انتشار أنواع الحيوان ، فانتهى به الأمر إلى أن رأى الديدان تسعى فى مسالك حديقته متكاثرة ، حتى أشفق أن يحطم منها واحدة فلم يكن يدرى أين يضع قدمه ، واضطر آخر الأمر إلى ألا يخرج إلا قليلا .

وقد أنشأ مكتبة دائرة ودعا إليها مؤجرة واشترك عندها فى هذه المكتبة . وكانت هذه المؤجرة تسمى أنجيل ، فتعود أن ينفق عندها السهرة مرة كل ثلاثة أيام . وكذلك تعلم تيتير ما بعد الطبيعة والجبر والعلم الالهى . وقد أخذ تيتير وأنجيل يعنيان معا فى نجح ببعض الفنون الجميلة الرفيعة . وأظهرت أنجيل ذوقا خاصا فى الموسيقى ، فاستأجرا بيانا مذيلا ، وجعلت أنجيل تعزف عليه مقطوعات كان ينشئها من أجلها بين حين وحين .

وكان تيتير يقول لأنجيل : — إن هذه المشاغل الكثيرة ستهلكنى ؛ فقد بلغت من الاعياء غايته ، وإنى لأحس الفناء يسعى فى ، وإن هذا التضامن ليزيد ضميرى يقظة وتحرجا ، فاذا زادا نقصت . ما العمل ؟

قالت له أنجيل :

— فلو سافرنا ؟

— لا أستطيع أنا . تمنعنى من ذلك شجرة البلوط .

قالت أنجيل :

— فلو تركتها !

— أترك شجرتى ! أتقدرين ذلك ؟

— ألم تكبر بعد بحيث أصبحت تستطيع أن تنمو وحدها ؟

— ولكنى موصول بها .

قالت أنجيل :

— فانفصل عنها .

وبعد قليل من الوقت استيقن تيتير أن أعماله وتبعاته وشواغل ضميره وشجرة البلوط لا تمسكه ، فابتسم وتوسم مهب الريح وانطلق وقد استصحب الخزانة وأنجيل . وهبط نحو آخر النهار الشارع الذى يؤدى من المادلين إلى الأوبرا .

٣

وكان منظر الشارع فى ذلك المساء غريبا يؤذن بأن شيئا شاذا رهيباً يريد أن يحدث . وكان جمهور ضخم جاد قلق يزدحم قد اكتظ به الافريز وكاد يسيل إلى الطريق التى كان يحميها شرط باريس وقد اصطفوا فى نظام متقاربين . وكانت الأرصفة أمام المطاعم تظهر مسرفة فى السعة لكثرة ما صف عليها من الموائد والكراسى ، فتزحم الطريق وتجعل الحركة شيئا مستحيلا . وربما ارتقى أحد النظارة كرسيه لحظة يدفعه إلى ذلك تطلعه ، ثم لا يلبث أن ينزل حين يدعى إلى النزول . وكان واضحا أن الناس جميعا كانوا ينتظرون . وكان الشعور عاما واثقا بأن شيئا سيهبط عند شاطىء الافريز ساعيا على الطريق التى تحميها

الشرط . وبعد مشقة عظيمة وجد أنجيل وتيتير مائدة ودفعا لها أجراً عالياً وجلسا إلى قدحين من الجعة وسألا الخادم :

— ماذا ينتظر الناس ؟

قال الخادم :

— من أين عاد سيدى ؟ ألا يعلم سيدى أن الناس ينتظرون ميليبيه ؟ إنه يمر بين الخامسة والسادسة . . . وانظر ، واسمع : يخيل إلى أن مزاميره تسمع .

وارتفع من أعماق الشارع صوت نحيل من أصوات القصب ، فرجف الجمهور الذى ازداد لحسه إرهافا وعظم الصوت ودنا . قالت أنجيل :

— إن هذا لمؤثر جدا !

وكانت الشمس متهالكة ترسل أشعتها من أقصى الشارع إلى أقصاه . ورئى ميليبيه كأنما تنزل من روعة الغروب وهو يتقدم وصوت مزماره يسعى بين يديه . ولم يكن يتميز منه فى أول الأمر إلا مظهره ، فلما دنا قالت أنجيل :

— يا له فاتنا خلاباً !

وقد بلغ ميليبيه مجلس تيتير فقطع غناء مزماره ، ووقف لجاءة ورأى أنجيل واستبان كل إنسان أنه كان عريان . قالت أنجيل وقد مالت إلى تيتير :

— ما أجمله! وما أحسن اعتدال قوامه! وما أخلب مزاميره للعقول !

وكان تيتير يجد بعض الضيق . قالت أنجيل :

— سله إلى أين يذهب .

قال تيتير :

— إلى أين تذهب ؟

أجاب ميليبيه :

— *Eo Romam*

سألت أنجيل :

— ماذا يقول ؟

تيتير : — لن تفهمى ياصديقتى .

قالت أنجيل :

— ولكنك ستفسر لى .

فعاد ميليبيه يقول :

— *Romam, urbem quam dicunt Romam*

أنجيل : — ما أعذب ما يقول ! — ما معنى هذا ؟

تيتير : — أؤكد لك يا عزيزتى أنجيل أن هذا ليس من العذوبة بحيث تظنين . فهو لا يزيد على أن يقول إنه ذاهب إلى روما .

قالت أنجيل :

— روما ! — كم أحب أن أرى روما !

وأخذ ميليبيه أعواده واستأنف لحنه الساذج .

ولم تكد أنجيل تسمع الصوت حتى شغفت ثم ارتفعت ثم نهضت ثم دنت . وإذ كان

ميليبيه يعطف ذراعه فقد أخذتها ، ثم سعيا فى الشارع فنأيا فازدهيا فاستخفيا فى الأصيل الذى ليس وراءه شئ .

وقد أطلق للجمور عنانه ، فجعل يضطرب فى اصطخاب شديد . وكنت تسمع الناس يتساءلون من كل جانب : — ماذا قال ؟ — ماذا عمل ؟ — من هذه المرأة ؟ ولما ظهرت بعدذلك بقليل صحف المساء تخطفها استطلاع عنيف كأنه الاعصار ، وعرف الناس فجاءة أن هذه المرأة هى أنجيل ، وأن ميليبيه هذا رجل عريان ذاهب إلى إيطاليا .

هنالك خبا حب الاستطلاع ، وسال الجمهور كأنه الماء الحر منصرفا عن الشارع الأعظم . — ورأى تيتير نفسه وحيداً قد أحاطت به المستنقعات من جميع جهاته .

فهبونى لم أقل شيئاً .

وعصف بالسامعين ضحك لا سبيل إلى وقفه .

قال بروميتيه وهو يضحك :

— أيها السادة إنى لسعيد حين أرى قصتى تلهيكم . فقد استكشفت سر الضحك منذ مات داموكليس . — وقد فرغت الآن أيها السادة . فلندع الموتى يدفنوا الموتى ، ولنسرع إلى تناول الغداء .

وأخذ الخادم باحدى ذراعيه ، وأخذ كوكليس بذراعه الأخرى ، وخرجوا جميعا من دار القبور . ولما تجاوزوا الباب تفرق سائر الجماعة .

قال كوكليس :

— معذرة إليك . فقد كانت قصتك ظريفة وقد سليتنا . . . ولكنى لم أتبين صلة بينها وبين ما نحن فيه . . .

قال بروميتيه :

— لو تبينت الصلة لما ضحكت كما تضحك الآن . لا تلتمس لهذا كله معنى ذا خطر .
— إنما أردت أن أسليكم . وأنا سعيد لأنى بلغت ما كنت أريد . ألم أكن مدينا لكم بذلك ؟ لقد أمللتكم فى حديثى الأول .

وبلغوا الشارع .

قال الخادم :

— إلى أين نذهب ؟

— إلى مطعمك إن شئت تذكارا للقائنا الأول.

قال الخادم :

— لقد جاوزته .

— لا أعرف الواجهة .

— لأنها جديدة الآن .

— أنسيت أن نسرى . . . إطمئنا : لن يحطمها مرة أخرى .

قال كوكليس :

— أحق إذن ما كنت تقول .

— ماذا ؟

— أنك قتلته .

قال بروميتيه :

— وأننا سنأكله . . . أتشك فى ذلك ؟ ألم تنظر إلى ! أكنت أستطيع أن أضحك فى حياته ؟ ألم أكن شديد النحافة ؟

— من غير شك .

— لقد كان يأكلنى منذ زمن طويل . فقد آن لى أن آكله .

إلى المائدة! هلم ! إلى المائدة يا سيدى ! — أيها الخادم . . . لا تخدم : وخذ مكان داموكل لنذكره للمرة الأخيرة .

وكان الغداء أشد مرحا مما يباح لنا أن نصوره هنا . وكان النسر شهيا لذيذاً .

وسأل سائل :

— ألم يكن فى وجوده نفع ما ؟

— لا تقل هذا يا كوكليس ! — فان لحمه قد غذانا . — كنت أسأله فلا يجيب . . . وأنا آكله غير واجد عليه . ولو قد عذبنى أقل مما عذبنى لكان أقل سمنا مما هو . ولو قد كان أقل سمنا لوجدنا فى أكله لذة أقل مما نجد .

— ماذا بقى من جماله الرائع أمس ؟

— لقد احتفظت بريشه كله .

وبريشة من هذا الريش أكتب هذا السفر الصغير .

فسعيت أيها الصديق النادر ألا تراه رديئاً .

خاتمة

تحاول أن تبين للقارئ
أن هذا الكتاب إن كان كما هو
فليس ذلك من ذنب صاحبه

فالكاتب لا ينشئ من الكتب ما يريد
يوميات جونكور

كانت قصة ليدا قد ملأت الدنيا ضجيجاً ، وبنت لتندار مجداً عظيما ، حتى لم يكن مينوس يحفل بزوجه باسيفاييه حين كانت تقول له : « ماذا تريد؟ أما أنا فلا أحب الرجال . »

ولكنها قالت بعد ذلك : « هذا شئ يغيظ ، (على أنه لم يكن يسيراً !) قد كنت آمل أن إلهاً تقمصه . — ولو عنى زوس بهذا الأمر لكنت خليقة أن ألد ابناً إلهيا . ولكنى بفضل هذا الحيوان لم أهد إلى الدنيا إلا عجلا . »

الدستور البلغارى

كانت بلغاريا بين الأقاليم الأوربية الأولى التى ضمتها الفتوحات العثمانية إلى السلطنة ، ولكنها ظلت دائماً تنتهز الفرص لاعلان عصيانها فى وجه حكومة الآستانة إلى أن فازت باستقلالها الذاتى الذى قررته معاهدة برلين العتيدة سنة ١٨٧٨ . ولم تلبث أن حظيت بعد ثلاثين عاماً باستقلالها التام ، إذ أعلنت نفسها دولة ملكية ذات سيادة فى سنة ١٩٠٨ وفى نفس الوقت الذى فاز فيه رجال تركيا الفتاة باعلان الدستور وخلع عبد الحميد .

وكانت الإيالة الممتازة — كما كانوا يسمون مصر ولبنان وبلغاريا فى ذلك الأوان — قد اتحدت مع إقليم الروملى سنة ١٨٨٥ فاتسعت بذلك حدودها بعض الشئ . فلما وقعت حرب البلقان سنتى ١٩١٢ و١٩١٣ أفادت منها بلغاريا المستقلة الظافرة على جيوش متبوعها السابق ، فحصلت على أقاليم تصل بها إلى بحر إيجه . لكنها لم تفد من هذا الاطلال على مياه البحر المتوسط إلا قليلا ؛ فقد انضمت إلى جانب ألمانيا والنمسا فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٥ فساهمتهما الفشل الذى لحقهما ونالها منه أن أبعدت عن مياه ذلك البحر بمقتضى أحكام معاهدة نويى سنة ١٩١٩ .

ولما قامت الحرب العالمية الثانية انضمت فيها كذلك إلى جانب ألمانيا واستولت فى سنة ١٩٤٠ على إقليم دوبرداجه الذى كان جزءا من رومانيا .

وكانت طوال هذه الحرب محتفظة بالتحالف مع المحور ومستمسكة فى الوقت عينه بالصداقة السوفيتية التى ترجع فى الحقيقة إلى إحساس البنوة الصقلبية وإلى فضيلة العرفان ، إذ كانت روسيا القيصرية هى المكتنفة دائما لبلغاريا والباذلة فى سبيل استقلالها .

وشاءت المقادير أن يكون أحد شبان البلغار النابهين ببرلين يوم احترق فيها الريخستاج ، كما شاءت أن توجه له تهمة الاقدام على ذلك الجرم ، وقد

كان هو من الشيوعيين . فاحتضنه الاتحاد السوفييتى ، وذاع من ذلك اليوم صيته ، ولجأ إلى موسكو ينتظر فيها تطور الأمور .

وتطورت الأمور بالفعل ، فهزمت ألمانيا وانسحبت جيوشها من بلغاريا ، وتوفى العاهل البلغارى ، ونودى بابنه الصبى ملكا ، وعاد ديمتروف من موسكو إلى صوفيا ، وقامت فى بلغاريا كلها حركة فكرية تدعو إلى الجمهورية ، ولاح فيها اتجاه إلى تنظم الاختيار بين النظامين الملكى والجمهورى ، فأصدرت الجمعية الوطنية فى شهر يونيه من سنة ١٩٤٦ قانوناً يقضى باجراء استفتاء عام يشترك فيه جميع المواطنين البلغاريين البالغين الثامنة عشرة أو ما يزيد ليختاروا الملكية أو الجمهورية الشعبية .

وقد جرى الاستفتاء فى اليوم الثامن من شهر سبتمبر فى السنة نفسها ، وأعلن بما يكاد يكون إجماعاً أن الشعب البلغارى قد اختار الجمهورية الشعبية لحكمه نظاما . وفى السابع والعشرين من شهر أكتوبر بعده ، وتنفيذاً للقانون الخاص بالاستفتاء والاختيار ، جرت انتخابات عامة انبعثت منها الجمعية الوطنية الكبرى لتضع الدستور الجديد للجمهورية الشعبية الفتية .

وكانت اللجنة الوطنية لجبهة الوطن — وهى التى قامت بالدعوة إلى الجمهورية بين أفراد الشعب البلغارى — قد أعدت مشروع دستور طبعته وعممت توزيعه قبل الانتخابات العامة ، فدارت الحملة الانتخابية بين المرشحين للنيابة على أصوله وأحكامه ، فساهم الشعب بذلك فى وضع مبادئه العامة ، وإن عن طريق غير مباشر .

وبمجرد انعقاد الجمعية الوطنية الكبرى تألفت لجنة من خمسة وعشرين عضواً كلفت وضع مشروع الدستور فى مدة معينة مع تحقيق استمرار مساهمة الشعب فى وضعه . فاتصلت مرات عدة بجميع الهيئات السياسية والاجتماعية والثقافية والفنية و بالمواطنين الفرادى أيضاً ، سائلة عن الرغبات والتوصيات والاقتراحات تبعث إليها كتابة أو تقدم إليها عن طريق الحضور والادلاء بالذات . وكذلك لجأت اللجنة إلى الاستعانة بخبرة أهل الذكر بين الأساتذة والسياسيين والاقتصاديين .

وخرج من ذلك كله مشروع الدستور البلغارى الجديد ، وعرض على الجمعية الوطنية الكبرى فتولته بالبحث والدرس والمناقشة ، ثم أصدرته فى اليوم الخامس

من شهر ديسمبر لسنة ١٩٤٧ . وقد تضمن بابه الأول أحكام السلطة العليا فنصت مادته الأولى على أن شكل الحكومة الجمهورية الشعبية هو الشكل النيابى . وسجلت مادته الثانية أن السلطة جميعها تصدر عن الشعب وتظل فيه ، وأن الشعب يستعمل سلطانه عن طريق « انتخابات حرة ومباشرة عامة وسرية تقوم على قاعدة المساواة فى الحقوق ، وكذلك عن طريق الاستفتاء » كما نصت المادة الثالثة على أن « الناخبين والمرشحين للنيابة هم كل المواطنين ، بلا تمييز يرجع إلى اعتبار النوع أو القومية أو الجنس أو الدين أو المعرفة أو المهنة أو الأصل الاجتماعى أو حالة الثروة ، البالغين الثامنة عشرة أو المتجاوزين إياها ما عدا المحجور عليهم والمحكوم عليهم بالحرمان من الحقوق المدنية والسياسية . » ومن شأن هذه النصوص التفصيلية أن تقضى على كثير من الخلافات التى تدور حول النصوص التقليدية الواردة فى عموم الدساتير القائمة فى عديد الأمم . فاضافة أن السلطة تظل فى الشعب ، إلى جانب النص على أنها جميعها تصدر عن الشعب ، صراحة فى الدلالة على تغليب الارادة الشعبية على سائر الارادات ، ومنع التصادم المتناقض من الاتجاهات ، بل حكم بضرورة الاستفتاء الشعبى يتلمس عن طريقه القول الفصل فى كل نزاع . وتفصيل نعت الانتخابات بالحرة المباشرة و بالعامة السرية والمتساوية قضاء على بلبلة أفكار المتفقهين الدستوريين وحيرتهم بين الدرجة الواحدة والدرجتين ، والفرد والقائمة ، ووحدة الأصوات وتعددها ، وردع هذا التعدد إلى المؤهلات العلمية أو حالات الثراء .

لكن المبدأ الفذ الذى تضمنه الدستور البلغارى الجديد — وقد أخذه عن الدستور السوفيتى الذى انفرد بالسبق إليه — إنما هو مبدأ مسئولية النواب وممثلى الشعب أمام ناخبيهم . وقد جرى العرف الدستورى إلى الآن فى عموم على أن النائب بمجرد تمام انتخابه إنما يمثل الأمة كلها ، فلا يسأل أمام دائرته التى انتخب فيها أو أمام الناخبين الذين خصوه بأصواتهم بحال . ولهذه المسئولية التى يقررها الدستور البلغارى ، كما يقررها الدستور السوفيتى من قبل ، نتيجة هى جواز سحب الناخبين ثقتهم ممن أنابوه عنهم قبل أن يتم دورته التشريعية . وقد حسب أصحاب هذا التجديد فى النظريات الدستورية أن ذلك أدعى

إلى سهر النائب على مصالح الشعب طوال مدة نيابته ، وأبعد به عن الميل إلى استثمار نيابته لذاتيات .

وقد جدد الدستور البلغارى كذلك فى تنظيمه النيابى ، فخرج على تقليد تأليف الهيئة النيابية من مجلسين ، واكتفى بمجلس واحد احتفظ لتسميته باسم البرلمان البلغارى القديم مضيفاً إليه ثقته بالشعبى « ناروديو نوسوبرانى » . واجتهد فى التجديد إذ لم ينص على مدة الانعقاد السنوى للهيئة النيابية ، بل لم يحدد حادثاً لا يصح انتهاء العمل قبل حلوله ، بل نص على أن للانعقاد صفة الدوام ، وأن الهيئة النيابية هى وحدها التى تحدد مواعيد عطلتها السنوية ، وأن مكتبها هو الذى يدعوها للانعقاد إذا كانت فى هذه العطلة من تلقاء نفسه أو بناء على طلب الحكومة .

ومن اختصاص هذه الهيئة النيابية التى تؤلف من نواب يمثل كل منهم دائرة عدد سكانها ثلاثون ألفاً ، انتخاب رئيس الجمهورية بالاشتراك مع ممثلين للمجالس الاقليمية والمركزية ، وانتخاب رئيس مجلس الوزراء وقبول استقالته ، وانتخاب رئيس محكمة النقض ، ورئيس المحكمة الادارية العليا ، والنائب العام ، وتقرير الالتجاء إلى الاستفتاء وتحديد موعده ، وتقرير صحة انتخاب الأعضاء على سبيل الانفراد ، ومناقشة الميزانية ، واصدار القوانين جميعاً ، على أن يكون حق المبادأة التشريعية للحكومة وللنواب بشرط ألا يقل عدد المتقدمين بمشروع قانون منهم عن خمس مجموعهم .

وإذا كان شرط السن بالنسبة للناخبين والنواب هو بلوغ الثامنة عشرة فانه بالنسبة لرئيس الجمهورية بلوغ الثالثة والعشرين . ومدة الانتخاب له وللنواب واحدة وهى أربع سنوات .

ولا يعين رئيس الجمهورية رئيس الوزارة ، فانتخابه من اختصاص الهيئة النيابية على نحو ما ذكرنا ، ولكنه يعين الوزراء الذين يختارهم رئيس الوزارة بالذات ، كما يعين القائد الأعلى للجيش بناء على اقتراح مشترك مقدم من الحكومة ومكتب الهيئة النيابية .

أما الحكومة التى أفرد لها الباب الثالث من أبواب الدستور فمؤلفة من رئيس مجلس الوزراء ونوابه ورئيس المجلس الاقتصادى الأعلى والوزراء الذين يجوز أن يكونوا من غير النواب .

ويجرى انتخاب الهيئة النيابية لرئيس مجلس الوزراء بالاقتراح السرى وبالكثرة المطلقة لمجموع النواب . فاذا لم تتوافر هذه الكثرة فى الاقتراع الأول أعيد فى بحر ثلاثة أيام على الأكثر ، فاذا لم يسفر الاقتراع الثانى عن كثرة مطلقة تحل الهيئة النيابية ويعتبر حائز أكثر الأصوات عدداً رئيس حكومة يتولى منصبه إلى أن تجرى انتخابات عامة تجىء بهيئة نيابية جديدة ، ويجرى فيها انتخاب جديد لرئيس مجلس الوزراء . ولا يتولى رئيس مجلس الوزراء منصبه إلا بعد أن يتقدم للهيئة النيابية ببرنامجه وينال على هذا البرنامج الثقة . ويجرى الاقتراع على هذه الثقة فى بحر ثلاثة أيام على الأكثر من يوم انتخاب رئيس الوزراء .

ومن طرائف الدستور البلغارى فى صدد الاداة الحكومية أنه يضع الجيش تحت هيمنة مجلس الوزراء وإدارته العليا ورقابته ، وينص على صدور قانون ينظم علاقات هذا المجلس ووزارة الدفاع بالجيش تحقيقاً لتلك الهيمنة والادارة العليا والرقابة . وكذلك فانه يفرض على جميع موظفى الحكومة بمختلف درجاتهم أن يؤدوا يمين الولاء للجمهورية الشعبية قبل تولى وظائفهم .

وإذا كان رئيس محكمة النقض ورئيس المحكمة الادارية العليا والنائب العام ينتخبون عن طريق الهيئة النيابية بالذات لمدة خمس سنوات فان الدستور البلغارى قد نص على قيام مجلس قضائى أعلى ينظم وحده شؤون تعيين سائر القضاة ورجال النيابة وترقيتهم وعزلهم ، ويؤلف من ستة أعضاء تنتخبهم الهيئة النيابية وعضوين يختارهما رئيس الجمهورية الشعبية وثلاثة يمثلون اتحاد القضاة ، يرأسهم وزير العدل .

وقد اختص الباب الثانى من أبواب الدستور البلغارى بالتنظم الاقتصادى والاجتماعى للجمهورية الشعبية الجديدة . فقررت مواده فيما قررت أن « العمل عامل اجتماعى واقتصادى أساسى توليه الدولة كل أنواع العناية » ، وأن « الدولة تعين وتشجع الجماعات التعاونية الشعبية » ، وأنها « تخص بحمايتها الذين يقومون بالعمل مباشرة فلاحين وعمالا وصناع حرف وعقليين عن طريق سياستها العامة الاقتصادية والاجتماعية وعن طريق الاعانات بالسلف ذات الفائدة القليلة وعن طريق نظام الضرائب وتشريعات الجماعات التعاونية » .

وكذلك قررت تلك المواد أن « الملكية قد تكون للدولة ، وللهيئات

المحلية ، وللجماعات التعاونية ، وللمنشآت الاجتماعية ، وللأشخاص الطبيعية والمعنوية » . ومعنى هذا أن الدستور البلغارى يبيح الملكية الخاصة كما يجيز الملكية العامة شأنه فى هذا شأن سائر الدساتير القائمة فى الأمم ذات الأنظمة الاقتصادية الفردية ، وإن كان قد نص من ناحية أخرى على أن « المناجم والثروات الطبيعية للأرض وباطن الأرض والمياه ، والمياه المعدنية ، ومصادر القوى الطبيعية والمواصلات الحديدية والجوية والتلغراف والتليفون والاذاعة تكون كلها ملكا للدولة » .

وقد نصت المادة التاسعة منه على أن « الملكية الخاصة وميراثها والاستثمار الخاص فى الاقتصاد الأهلى معترف بها وتحظى كلها بحماية القانون » .

وتحظى الملكية الخاصة الناشئة عن العمل والادخار وميراثها بحماية ممتازة خاصة . على أن عقود الاحتكار الخاص وجماعاته (ترست وكارتل) ممنوعة ، وأن للدولة أن « تؤمم » بعض فروع الصناعة والتبادل والنقل والائتمان تأميما كليا أو جزئيا .

أما الأرض فيمتلكها امتلاكا خاصا أولئك الذين يفلحونها على وجه العموم . ويحدد القانون المساحات القصوى التى تكون محل الامتلاك الخاص ، كما يحدد الحالات التى يجوز للمواطنين غير الفلاحين أن يمتلكوا أرضا قابلة للزراعة .

وأما التجارة الداخلية والخارجية فقد نص الدستور على أن الدولة هى التى توجهها وتراقبها .

ولم يجر الدستور البلغارى الجديد على غرار سائر الدساتير القائمة من التقدم بحقوق المواطنين وواجباتهم فى باب من أبوابه الأولى ، بل إنه أبقاها إلى الباب الرابع من أبوابه السبعة . وقد بدأها بحق المساواة أمام القانون مع حرية المواطنين المطلقة فى اختيار القومية التى ينتمون إليها ، وعدم الاعتراف بأى امتياز ينحدر عن الجنس أو الأصل أو الدين أو الثروة ، والنص على معاقبة القانون على كل دعوة للكراهية القومية أو الدينية أو الجنسية .

وثنى بحق المواطنين فى العمل . وعقب على تقريره بأن الدولة تضمن تحقيقه عن طريق توجيه الاقتصاد الأهلى والسهر على إنماء قوى الانتاج انماء منظما مستمرا وخلق المهام الاجتماعية . كما عقب بأن مقابل العمل إنما يقدر

حسب قدر الانتاج ونوعه ، وبأن العمل واجب على كل مواطن قادر عليه وشرف له .

ويلحق بحق العمل فى الدستور البلغارى الجديد حق الراحة يضمنه نقص أيام العمل ومنح إجازات سنوية مدفوعة أجورها ، وإقامة شبكة واسعة من دور الاستراحة والأندية وما إليها .

وكذلك يلحق به حق «المعاش» والتقاعد والاعانة والتعويض فى حالات المرض والاصابة والبطالة والشيخوخة ، وتضمن الدولة ذلك كله عن طريق التأمينات الاجتماعية والعناية الطبية يفيد منها الجميع .

وقد سوى الدستور البلغارى الجديد فى هذا المضمار بين الرجل والمرأة ، فنص فى مادته السادسة والستين على أن المساواة بين النوعين مطلقة « فى جميع ميادين الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية ما اتصل منها مباشرة بالدولة وما رجع منها إلى الاستثمار الفردى » ، فيكون للمرأة نفس أجر الرجل وعين شروط العمل والراحة والتأمين والتثقف . بل إنه قد ميزها عليه إذ خص الأم بحمايته ، فقضى بتحمل الدولة أعباء العناية بالأمومة والطفولة عن طريق دور الولادة والحضانة ومدارس الأطفال والمستوصفات ، كما نص على تمتع المرأة بالانقطاع عن العمل قبل الولادة وبعدها مع استمرار أجرها وتقديم المعاونات الطبية لها مدة الحمل وأثناء الوضع .

أما الزواج والأسرة فقد وضعهما الدستور فى حماية الدولة ، فلا يعتبر زواجا إلا المعقود أمام الجهة الرسمية المعينة لشؤونه . ويسوى فى الحقوق بين جميع الأبناء وإن جاءوا عن غير طريق الزواج الشرعى . وكذلك تأخذ الدولة على كاهلها العناية بشؤون التربية الاجتماعية والثقافية والبدنية والمرانة على العمل .

ونصت المادة التاسعة والستون على أن « حرية الاعتقاد وتأدية الشعائر مضمونة للمواطنين وأن الكنيسة مفصولة عن الدولة » .

وعرضت المادة السبعون لحق التعليم فقالت إن « التعليم عام وقائم على روح ديموقراطى وتقدمى» ، وأن الابتدائى منه إلزامى وبالمجان ، وأن المدارس كلها للدولة ، وأن المأذون به من المدارس الحرة موضوع تحت رقابة الدولة أيضا .

وكذلك نص الدستور على أن الدولة تعنى بتقدم العلوم والفنون بتنظيمها معاهد البحوث العلمية ودور النشر والمكتبات ودور التمثيل والمتاحف وقاعات

القراءة الشعبية والمعارض ودور الاخراج السينمائى ودور عرض الأفلام ، وبتشجيع جميع المتفوقين فى هذا المضمار .

أما الصحة فقد نصت المادة الثانية والسبعون على أن الدولة ساهرة عليها عن طريق تنظيم و إدارة المصالح والمعاهد ونشر التعلم الصحى بين أفراد الشعب.

وكذلك قرر الدستور حرمة الأشخاص ، فقضى بألا يقبض على شخص لأكثر من اثنتين وسبعين ساعة إلا بأمر من السلطات القضائية ، وبألا يعاقب شخص إلا بمقتضى نص من نصوص القانون ، وألا يوقع عقاب إلا إذا صدر من المحكمة المختصة ، وأن للمتهم حق الدفاع .

ويحظى المواطنون البلغاريون فى الخارج بحماية الجمهورية الشعبية البلغارية ، كما أن للرعايا الأجانب حق الالتجاء إذا كانوا مدافعين عن المبادئ الديموقراطية والتحرر القومى وحقوق العاملين أو عن حرية النشاط العلمى والثقافى.

وكذلك قرر الدستور البلغارى الجديد حرمة المنازل والمراسلات وحرية تأليف الجمعيات ، بشرط ألا تكون موجهة ضد النظام العام ولا متعارضة مع أحكام الدستور .

ونصت المادة الثامنة والسبعون على أن «حرية الصحافة والخطابة والاجتماع « والتكتل » والتظاهر مكفولة للمواطنين البلغاريين » . كما عرضت المادة التالية لحق تقديم العرائض لهيئات الدولة أو الشكوى منها ومن الموظفين فيها وحق المطالبة بتعويض الاضرار التى لحقت من إساءة التصرفات .

وختم باب الحقوق والواجبات بالنص على الخدمة العسكرية الالزامية ، وعلى فرض الضرائب بنسبة قدرة المواطنين .

أما تعديل الدستور فقد وردت أحكامه بالمادة السابعة والثمانين وهى المادة السابقة للأخيرة مقررة أن اقتراح التعديل لا يصدر إلا عن الحكومة أو عن ربع مجموع النواب ، وأن مناقشته لا تجرى إلا بعد إيداعه بأسبوع على الأقل ، وأن تقريره لا يكون إلا بموافقة ثلثى النواب كلهم ، على ألا يصبح التعديل نهائيا إلا بعد عرضه على الشعب عن طريق الاستفتاء وموافقة نصف الناخبين عليه ، ولا يكون نافذاً إلا بعد أن تعلن محكمة النقض نتيجة الاستفتاء وبعد أن ينشر القانون الخاص به فى الجريدة الرسمية .

محمود عزمى

فى أفق السياسة العالمية

مأساة ألمانيا

لم يكن لألمانيا فى مستهل القرون الحديثة وجود قومى أو سياسى شبيه بما كان إذ ذاك لفرنسا و إنجلترا وأسبانيا التى توحدت قومياتها وتركزت حكوماتها ، واستعدت كل منها لتوسيع سلطانها وحدودها لا فى أوربا وحدها ، بل كذلك وراء البحار والمحيطات فى العالم الجديد — الذى كشفه الملاحون العظام من أهل تلك البلاد — غربا وشرقا فى عصر الاستكشافات . أما ألمانيا فقد ظلت كايطاليا عبارة عن اصطلاح جغرافى تنطوى تحته إمارات ودويلات متنافرة متقاطعة ما برحت تثير الفتن والحروب بين بعضها وبعض ، حتى قيض الله لها أن تتحد فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر .

وكان من جراء تأخر تحقيق الوحدتين الألمانية والايطالية أن فازت الدول الكبرى القديمة بنصيب الأسد فى الأراضى الجديدة التى استعمرت ، حتى إذا ما اشتد ساعد الدولتين الفتيتين وتاقت نفساهما إلى منافسة كبريات الدول لم تجدا أمامهما فى عالم الاستعمار سوى بضع لقيمات جافة ازدردتاها وهما حانقتان تتحينان الفرص وتتربصان بغيرهما الدوائر .

ومن سوء حظ الدولة الألمانية الحديثة التى أعلنها وليم ملك بروسيا فى يناير سنة ١٨٧١ وسط هتاف الأمراء الألمان فى قصر فرساى بباريس عقب انتصار الألمان فى الحرب السبعينية ، أن الوحدة التى وضع أساسها بسمرك السياسى الألمانى العظيم وحاك خيوطها بمهارة أصبحت مضرب المثل فى التفوق الدبلوماسى ، كانت وليدة الروح العسكرية البروسية المتأصلة فى نفوس البروسيين ، ونتيجة حتمية للسياسة التى ابتدعها بسمرك ولاءم فيها بين الخطط الحربية الصارمة والأساليب الدبلوماسية الحازمة الناعمة ، وهى التى عرفت بسياسة اليد الحديدية داخل القفاز الحريرى . وبفضلها خاضت بروسيا فى مدى سبع سنوات ثلاث حروب ظافرة متعاقبة : الأولى ضد الدنمرقة ، والثانية ضد

النمسا ، والثالثة ضد فرنسا . وقد اصطنع بسمرك هذه الحروب اصطناعا ومهد لها بحيدة الدول ، حتى لم تجرؤ واحدة منها كبيرة كانت أو صغيرة أن ترفع أصبعا واحدة لنجدة الدول المغلوبة على أمرها . وقد خرجت ألمانيا من هذه الحروب جميعا مزهوة بانتصارها شديدة الايمان بمستقبلها وقوة سيفها الظافر .

ودخلت ألمانيا على أثر ذلك فى طور سياسى جديد تلمست فيـه أسباب العظمة والتفوق ، فوجدتها متوافرة فى داخليتها : فى جيشها وفى هيئة أركان حربها الذين رسموا لهـا خطط النصر . ووجدتها فى علمها وفنها وأدبها وفى فلسفتها وموسيقاها ونظم بلدياتها . ولكنها افتقدتها فى الخارج حيث السبل إلى البحار والمستعمرات تحكمها بريطانيا سيدة البحار . وكانت ألمـانيا فى القارة الأوربية مضيقاً عليها من كل الجهات تقريباً : فمن الغرب تقف بلاد الأراضى المنخفضة وفرنسا وإنجلترا سدًّا منيعاً فى وجهها ، ومن الشرق يجثم الدب الروسى الضخم ، ومن الجنوب يقوم أبناء عمومتهم فى إمبراطورية النمسا . فلم يكن أمام ألمانيا من سبيل إلى التوسع من هذه الجهات إلا بالعدوان والهجوم على جاراتها ، وهو أمر لم يكن سهلا ولا سائغاً بعد أن لطخت ألمـانيا أيديها بدماء الالزاس واللورين اللتين اغتصبتهما من فرنسا بعد انتصارها فى الحرب السبعينية .

على أن بسمرك قد استطاع فى أول عهد الامبراطورية الجديدة أن يكبح جماح الروح العسكرية البروسية ، وأن يجنب ألمانيا وهى فى بدء وحدتها وتكوين عظمتها الصناعية والثقافية الاشتباك فى أية حرب أوربيـة أو استعمارية . ذلك لأنه كان يعلم أن الشعب الألمانى إذا اندفع فى تيار التوسع أو الاستعمار فلا بد له من أن يصطدم بالمصالح البريطانية ، وقد يؤدى الاصطدام إلى حرب مع الانجليز تخرج منها ألمانيا خاسرة كما خرجت فى الماضى أسبانيا وبعدها فرنسا . لذلك انتهج بسمرك فى حكمه خطة كان من شأنهـا أن تضرم نار الحقد والتباغض بين جاراتها ومنافساتها من جهة ، وأن تكفل لألمـانيا أن تمسك بميزان القوى السياسية فى القارة الأوربية من جهة أخرى . لذلك شجع فرنسا على أن تحتل تونس ، حتى يسلو الفرنسيون الالزاس واللورين ، وحتى تقع الجفوة والنفور بينها وبين إيطاليا التى كانت تطمع فى تونس ؛ ووقف يرقب النزاع المرير الذى شجر بين انجلترا وفرنسا من أجل مصر والسودان . ولما تفاقمت الحال بين روسيا وتركيا فى الحرب الروسية التركية وتدخلت بريطانيا وتعرض

السلام العام فى أوربا للخطر كانت ألمانيا هى الداعية إلى عقد المؤتمر الدولى ببرلين فى سنة ١٨٧٨ برياسة بسمرك لاعادة النظر فى المسألة الشرقية ، وكانت ألمانيا هى الدولة الكبرى التى ليس لها فى البلقان مطامع تقتضى — كما قال بسمرك — أن تراق فى سبيلها قطرة دم من ألمانى واحد .

غير أن بسمرك لم يستمر طويلا على هذه السياسة ؛ فقد جاء وقت أصبح فيه التسابق والتكالب على أشده بين الدول الأوربية بشأن استعمار إفريقية أو القارة المظلمة كما كانوا يسمونها حينذاك . وجاءت ثورة المهدى فى السودان وانسحاب القوات المصرية مؤقتاً من ربوعه فرصة سانحة أغرت الدول على التهام ما يمكن التهامه من هذه الأرض المباحة التى اعتبرتها الدول نهباً لمن غلب . فخشى بسمرك إذا واصلت ألمانيا سياسة القناعة والحذر أن يجىء وقت لا تجد أمامها بقعة خالية تستعمرها وتمدها بالخامات والقواعد اللازمة لصناعاتها ومشروعاتها الحربية البعيدة المدى . لذلك اندفع بسمرك فى سياسة الاستعمار بعد سنة ١٨٨٤ وكان فى ذلك مدفوعاً بقوة هيئة أركان الحرب التى كانت تسيطر جهراً أو سرا على مرافق الحكومة جميعاً . وكان من مظاهر ذلك النشاط الاستعمارى الناشئ أن دعت ألمانيا الدول ذوات المصالح الاستعمارية إلى عقد أول مؤتمر استعمارى دولى فى برلين سنة ١٨٨٥ وفيه سوت الدول خلافاتها بشأن استعمار إفريقية ، وتقررت القواعد التى تجب مراعاتها عند ما تزاول رياضة القنص الاستعمارى فى أحراش افريقية ! وكانت أولى هذه القواعد أن تخطر الدول بعضها بعضا بالفرائس التى يراد أن يستولى عليها ، وأن تتفق فيما بينها على دوائر نفوذ كل منها وحدودها . واستغلت ألمانيا عوامل الخلاف التى كانت ناشبة إذ ذاك بين فرنسا وإنجلترا ، وعلى ذلك سرعان ما أصبح لها فى القارة المظلمة دولة استعمارية تلى إنجلترا وفرنسا فى الأهمية؛ إذ صار لها مستعمرات فى شرق إفريقية وغربها وفى تنجانيقا والكمرون وتوجولند وبعض الجزر .

وفى سنة ١٨٨٨ اعتلى العرش الامبراطور وليم الثانى ، وكان شابا طموحا مستبدا ، أشربت نفسه حب العسكرية البروسية وانطوت على إيمان صادق بمستقبل ألمانيا العظيم . ولم يطق أن يظل طويلا وراء اسم بسمرك وعظمته السياسية ، فسرعان ما أقصاه عن الحكم وجعل يصرف شؤون الدولة مستشاروه من دعاة التسليح والعظمة الحربية ، إلى أن أعلن صراحة

فى بدء القرن العشرين أن ألمانيا قد أصبحت، بفضل صناعتها واتساع نفوذها الاقتصادى ، دولة عالمية ذات مصالح حيوية ، وأن هذه المكانة وتلك المصالح تقتضيان حتما أن يكون لألمانيا أسطول بحرى يضارع أكبر أسطول فى العالم. وهو يعنى بطبيعة الحال الأسطول البريطانى . وكانت ألمانيا قد استردت من إنجلترا جزيرة هليجولند فى بحر الشمال ، فاتخذت منها قاعدة بحرية حصينة ، ثم أنشأت قناة كيل التى تصل بين البحر البلطى وبحر الشمال ؛ وبذلك اتخذ الأسطول الألمانى سبيله فى البحر سربا . وما فتئت ألمانيا تمعن فى التسليح وتقيم المظاهرات البحرية فى البحر المتوسط لتعلن عن قوتها الناشئة تارة أمام طنجة وأخرى أمام أغادير على ساحل الأطلنطى فى مراكش ، حتى لم يبق شك فى أن ألمانيا إنما تعد نفسها لتتحدى بريطانيا وتصل إلى تحقيق الغرضين اللذين كانت العسكرية البروسية ترمى إليهما منذ توحدت ألمانيا ، وهما التفوق الحربى فى أوربا ، واغتصاب السيادة البحرية والاستعمارية من بريطانيا . أما التفوق الحربى فكان أمره يسيراً هينا ؛ إذ لم يبق فى أوربا بعد إذلال روسيا وانهزامها أمام اليابان سوى فرنسا ، وهى وحدها لم تكن ذات خطر بسبب ما أصابها على أيدى رجال أحزابها من أزمات ومؤامرات وتقلبات لا تكاد تنقطع . وأما فى الخارج فان ألمانيا قد توغلت فى سياستها الخارجية متحدية بريطانيا تحديا صريحا ؛ إذ وثقت علاقاتها بدول البلقان وبتركيا حتى يخلو لها الميدان فى الشرق ويكون الطريق أمامها بين برلين وبغداد وخليج فارس سالكا ميسورا متى دنت ساعة الفصل بينها وبين بريطانيا .

وعلى ذلك قامت الحرب العالمية الأولى . وعلقت ألمانيا مصيرها فيها على حرب خاطفة تسحق فيها قوات روسيا من الشرق وفرنسا من الغرب ، ويتعذر معها على بريطانيا تعبئة قواتها وقوات إمبراطوريتها لانقاذ حليفتيها فى الوقت المناسب . وفعلا اخترق الألمان حيدة بلجيكا ولكسمبورج ، وتقدموا مثل وميض البرق الخاطف داخل فرنسا ميممين صوب باريس مكتسحين أمامهم جميع القوى التى اعترضت طريقهم . وكادوا ينفذون خطتهم لو لم يقف القائد الفرنسى « جوفر » وقفته الشهيرة عند المارن فى سبتمبر سنة ١٩١٤ فاضطر الجيش الألمانى إلى الارتداد . ومن ثم لجأ الجيشان المتحاربان إلى مكابدة حرب الخنادق ببطئها وسقمها ونزولها بالانسان إلى أسفل الدرك فى المعيشة والحرب جميعاً .

ثم تطورت الحرب بعد ذلك على أثر ثورة العرب فى الشرق على الأتراك حلفاء الألمان وقيام الثورة البلشفية الكبرى وانسحاب روسيا من ميدان الحرب ، وأخيراً بدخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء ، فرجحت كفتهم ، وأيقن كبار القواد الألمان بالهزيمة ، وذاعت بين الجنود والبحارة الألمان أنباء تقدم الحلفاء وتحسن مراكزهم إلى جانب ما كانوا يحسون من خيبة الأمل وسوء المصير الذى ينتظرهم . وكان قد نمى إليهم أيضاً خبر نجاح الثوار فى روسيا وما أحدثوه فيها من انقلاب سياسى واجتماعى خطير ، فلم يتوانوا فى انتهاز أول فرصة للعصيان والانتقاض على السلطات الرجعية التى تواصل حرباً خاسرة إرضاء لشهواتها . فما إن وصلت إلى أسماعهم مبادئ ولسون الأربعة عشر التى أعلنها فى يناير سنة ١٩١٨ حتى تحركت روح الثورة فى نفوسهم وارتضوا هذه المبادئ أساساً للصلح العتيد . وما لبثت شرارة الثورة أن اندلعت بين البحارة فى كيل وسرت منها إلى جميع الميادين . فلم ير الامبراطور بدًّا من الفرار إلى هولندة ومعه ولى عهده ، وترك زعماء الثورة يطلبون الهدنة فى الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادى عشر من الشهر الحادى عشر من سنة ١٩١٨ وكانت هذه الهدنة إيذانا بالسلام بعد حرب مدمرة شملت أرجاء أوربا وآسيا ووصلت نيرانها إلى أجواز الفضاء فى الجو و إلى مسارب الأسماك فى بحار العالم ومحيطاته ، وقد ذهب ضحيتها نحو عشرة ملايين من الأنفس عدا الذين شوهتهم الحرب وأشلتهم وشردتهم أو حطمت أعصابهم فى جميع أنحاء العالم .

وجاء مؤتمر الصلح فى فرساى ، فحرّم على الألمان الخدمة العسكرية الالزامية ، وحرم التسليح إلا بالقدر الذى يحتاج إليه الجيش وقد خفضوه إلى ١٠٠,٠٠٠ جندى ، والأسطول وقد خفضوه إلى ست سفن كبيرة وستة طرادات وأربع وعشرين سفينة صغيرة أخرى لا يعمرها سوى ١٥,٠٠٠ بحار . ومن شروط الصلح التى فرضوها على الألمان ، حيدة مقاطعات الرين ونزع سلاحها ، وفرض غرامة حربية باهظة قدروها فى أول الأمر بأكثر من عشرة آلاف مليون جنيه . هذا فضلا عن فقدان ألمانيا لجميع مستعمراتها وخسارتها ما يقرب من ٨٧,٠٠٠ ميل مربع من أراضيها يبلغ عدد سكانها نحو سبعة ملايين ضمت إلى بولندة وغيرها من الدول المجاورة التى ظهرت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

فكأن الحلفاء انما أرادوا بصلح فرساى أن يعاقبوا الألمان على اقترافهم جريمة الحرب الكبرى ، ولم يلقوا بالا إلى ثورة الشعب على الطغيان العسكرى الامبراطورى ، وما كانت تطلبه الثورة وهى فى مهدها من عطف الحلفاء ومناصرتهم لزعمائها حتى يصلب عودها وتقوى على مناهضة العناصر الرجعية التى تتمثل فى الجيش وهيئة أركان الحرب .

وقامت ثورة الاشتراكية الديمقراطية فى ألمانيا بزعامة رئيسهم إبرت Ebert وتقرر دستور الجمهورية الجديدة فى ويمار سنة ١٩١٩ فخيل للناس أن ألمانيا قد انتهت أخيرا إلى عهد ديمقراطى جديد ، وأن الشعب الألمانى ستتاح له الفرصة بعد طول الانتظار ليفصح عن رأيه ويثبت استحقاقه لمكانة مرموقة بين شعوب العالم الديمقراطية . ولكن الحلفاء حين أملوا شروط الصلح كانوا قد أبقوا على كيان ألمانيا ووحدتها ولم يمسوا الروح العسكرية البروسية بسوء ، وخافوا من تفشى المبادئ الشيوعية فى أوربا فأصموا آذانهم عن نداء الثورة فى ألمانيا وجنحوا إلى جانب الرجعيين ، فجعلت هيئة أركان الحرب البروسية تعمل سرا وعلانية على إحياء الروح العسكرية القديمة ، ولبثت تتربص الدوائر بالنظام الجمهورى الديمقراطى حتى تضافرت القوى وفاز المرشال هندنبورج بانتخابه رئيسا للجمهورية . فكان انتخابه أذانا للناس بأن الجمهورية قد أشرفت على الزوال ، وأن الملكية أو الامبراطورية القديمة آتية لا ريب فيها .

وبقى هندنبورج فترة من الزمن يترجح بين الاشتراكية والملكية حتى تغلبت فى النهاية الروح العسكرية المتأصلة فى دماء القوم ، وأخذ المرشال ينحرف رويدا رويدا عن الاشتراكية ويمهد للدكتاتورية . وكانت الفترة التى رأس فيها هندنبورج ألمانيا من أرغد وأهنأ ما مر بألمانيا فى المرحلة التى تلت الحرب العالمية الأولى ؛ فقد دخلت ألمانيا عصبة الأمم على قدم المساواة مع سائر الدول الكبرى ، وأخذت تزول عنها وصمة الحرب وتبعاتها ، ثم خفت عن كاهلها أعباء التعويضات ، فدفقت على البلاد رءوس الأموال الأجنبية ، ونشطت فيها حركة الصناعة والتجارة نشاطا لم تعهده من قبل . غير أن فترة الاستجمام مع الأسف لم تطل ؛ فقد اجتاحت العالم أزمة سنة ١٩٣٠ الاقتصادية وتعرضت المؤسسات الصناعية فى البلاد للخسارة بل للافلاس . وعلى ذلك تجمعت الأسباب التى ساعدت على ظهور هتلر على رأس

حركة الاشتراكية الوطنية . وكان هندنبورج قد طعن فى السن فلم يستطع مقاومة التيار الجديد ، فأخذ انصار هتلر يتفوقون فى البلاد ويفوزون فى الانتخابات ، حتى إذا انتهت مدة رياسة هندنبورج فى سنة ١٩٣٢ ونزل إلى ميدان الانتخاب يريد تجديد انتخابه نال ١٩,٣٦٠,٠٠٠ صوت مقابل ١٣,٤١٨,٠٠٠ نالها هتلر ، ورأى الرئيس أنه لم يعد قادرا على تنحية هتلر ، فعينه مستشاراً للدولة فى يناير سنة ١٩٣٣ ومات هندنبورج فى صيف العام التالى ، فأصبح هتلر رئيسا غير منازع للدولة ، بل لقد كان كذلك فعلا قبل أن يموت هندنبورج . ومع أن الدستور الجمهورى الذى أصدرته الجمعية الوطنية فى ويمار لم يلغ رسميا فان هتلر قد جمع فى شخصه وركز فى حزبه وأعوانه السلطات الادارية والتشريعية والتنفيذية جميعاً ، حتى صار كل شئ فى البلاد لا يشتق وجوده أو يستمد بقاءه إلا منه ، حتى الكنيسة والعلم والتعليم قد طغت عليها جميعاً الفكرة النازية طوعا أو كرها . وكان فى مقدمة العقائد النازية التى بشر بها هتلر ، تأمين تفوق الجنس النوردى أو الآرى ، وقمع اليهودية والشيوعية ، وتجنيد الشباب والشعب بكامل طبقاته لخدمة النازية والدولة . وأخيراً وليس آخرا ، محو آثار معاهدة فرساى ، واستئناف العمل الذى بدأ سنة ١٩١٤ لكى تتبوأ ألمانيا مركزها الاسمى فى أوربا وبين دول العالم أجمع .

أما أهدافه الخارجية فكانت تقوم على الأخذ بمبدأ المجال الحيوى Lebensraum وهى النظرية التى لفقها هتلر للبرهنة على أن عدد سكان ألمانيا سيصل فى مدى قرن إلى ٢٥٠ مليون نفس ، وأن هذه الزيادة الهائلة يجب أن تقابلها أراض وميادين جديدة ينتشر فيها شعب الآلهة المفضل ويستثمر فيها مواهبه للقضاء على الشعوب المنحطة الأخرى !

وفكر هتلر فى المستعمرات القديمة التى كانت لألمانيا ، وهى لم تكن فى نظره إلا وديعة تسلمتها عصبة الأمم ، وعلى الحلفاء أن يردوا الودائع إلى أهلها ، فاذا تعذر عليهم ذلك فهناك مستعمرات واسعة تملكها دول من الدرجة الثانية فى الأهمية مثل هولندة والبرتغال وبلجيكا ، ويمكن تعويض ألمانيا من مستعمرات تلك الدول . وجال فى خاطر ساسة الدول الغربية من مروجى سياسة السلم بأى ثمن ، أن هتلر قد عنى حقا أن يكتفى بالمستعمرات القديمة

فأبدوا له استعدادهم لاعادة النظر فى موضوع الخامات الأولية ونظام توزيعها بين الدول .

ولكن التوسع الحقيقى الذى كان يريده هتلر للدولة العالمية المنتظرة كان طريقه من الشرق نحو بولنده وأكرانيا ورومانيا وجنوبى روسيا والقوقاز حيث سهول القمح الممتدة الشاسعة وآبار زيت البترول ومناجم الفحم والحديد وحيث معظم السكان من الشعوب الصقلبية أو المغولية التى لا تطاول الجنس الألمانى مدنية ورقيا . وأخذ هتلر يقيم علاقاته مع شرق أوربا وجنوبها الشرقى على أساس بدائى من مقايضة الحاجات بين الفريقين ، حتى لاتقوى تلك الدول على تحويل نشاطها التجارى إلى دول أخرى غير ألمانيا ، وحتى تكون اقتصادياتها مرهونة بارادة ألمانيا . وكان هتلر يرمى بسياسته إلى فرض نفوذه الاقتصادى عليها أولاً توطئة لاخضاعها سياسيا تحت سيطرته متى حان الوقت المناسب . وشبيه بهذه السياسة ما اتبعه فى اقتصاديات ألمانيا الداخلية ؛ إذ ركز إنتاجها الزراعى والصناعى جميعاً فى شركات مركزية يشرف عليها الحزب النازى . وجعل يسعى جهده فى أن تنتج ألمانيا كل ما تحتاج إليه ، حتى منتجات المناطق الاستوائية أو المدارية قد وضعها فى بوتقة التجربة تحت مجهر العلماء المختصين يحاولون إنتاجها اصطناعيا ، فيسروا له الحصول على الزيت والمطاط وبعض المنسوجات . ولم يكن غرضه من ذلك إلا إعداد ألمانيا لمواجهة أخطار الحصر البحرى متى دنت ساعة العمل .

أما الأداة التى استند إليها هتلر فى بلوغ هذه الأهداف جميعاً فهى ، كما كانت دائما فى التاريخ البروسى الحديث ، هيئة أركان الحرب ، وقد جددها هتلر ، فأنشأ إلى جانب هذه الهيئة العريقة أدوات أخرى ابتدعتها العقلية النازية الشيطانية مثل الجستابو Gestapo أو البوليس السياسى السرى ومعسكرات السجون والاغتيالات السرية ، يضاف إليها قمع جميع الحريات الشخصية وربطها جميعاً بمشيئة « الفوهرر » أو الزعيم .

وكذلك أعد هتلر فى الخارج عدته للوقت المناسب ؛ فكان دعاته يعملون لانشاء الأحزاب فى البلاد المختلفة على النسق النازى ، ويهيئون داخل هذه الأحزاب الجماعات التى عرفت بالطوابير الخامسة والسياسيين الذين عرفوا بالكويزلنج Quisling أو وزراء الضرورة النازية . ولما كان هتلر وأعوانه يعلمون

أن الحرب فى النهاية هى الوسيلة الحتمية لبلوغ أهدافهم ، فانه ما برح منذ اضطلع برياسة الدولة يزدرى النظم الديمقراطية وميثاق عصبة الأمم ومبدأ التأمين الجمعى ضد الحرب ، حتى انتهى الأمر فى سنته الأولى بانسحاب ألمانيا من العصبة ، ثم أخذ يعمل بسرعة جنونية لزيادة التسليح ، فقرر التجنيد الاجبارى سنة ١٩٣٥ وفى العام التالى احتلت الجيوش الألمانية أرض الرين وأقامت عليها الحصون والقلاع مخالفة فى ذلك كله معاهدة فرساى ومعاهدة لوكارنو . وفى سنة ١٩٣٨ ضمت النمسا إلى ألمانيا ، واعتدت على تشيكوسلوفاكيا فضمت إقليم الألمان السوديت أولاً ثم ضمتها برمتها سنة ١٩٣٩ . وكانت تشيكوسلوفاكيا مرتبطة مع فرنسا بمعاهدة الاتفاق الصغير ، فلم تقو فرنسا ولا حليفتها إنجلترا على مساعدتها بل لقد نصحتاها بأن تقبل ما فرضه الطغيان النازى عليها وأن ترفض ما تطوعت روسيا بتقديمه إليها من المساعدة الحربية . وجاء رئيس وزراء انجلترا بنفسه طائراً إلى ألمانيا وبيده حمامة السلام ، واجتمع بعد ذلك مؤتمر الدول الأربع (انجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وإيطاليا) فى ميونيخ لاقرار طلبات هتلر وإغماد سيف الحرب فى جرابه بضعة أشهر . وقد ارتضى الحلفاء لأنفسهم ذلك الاذلال خوفاً من زحف قوات روسيا البلشفية غربا ، وانتظاراً للوقت الذى تصطدم فيه قوات هتلر بالجيش الأحمر فيتطاحن العدوان ويفنى بعضهما بعضاً ودعاة السلام فى الغرب يتفرجون عن كثب ويظنون أنهم بذلك يحسنون صنعا !

ولكن الدكتاتورين كليهما كانا من دهاقنة السياسة فى أوربا فلم ينخدعا بما أضمره لهما ساسة الغرب من مكايد وما نصبوه لهما من حبائل . فأما المرشال ستالين فصمم على الانتقام من دول الغرب التى أهملته فى اجتماع ميونيخ ولم تستمع إلى نصحه بشأن تشيكوسلوفاكيا ، وقرر فى دخيلة نفسه أن يدع تلك الدول تتلقى هى ضربات الحرب الأولى من ألمانيا حتى تتهيأ روسيا لمواجهة دورها بعد قليل أو كثير . وأما هتلر فانه قد عجم عود الحلفاء فى ميونيخ فلم يجد إلا قصبة مرضوضة ، فليس بهم قوة حتى على الوقوف إلى جانب حليفتهم فى ساعة شدتها ، فقرر أن يتخذ قراره التاريخى الخطير غير عابئ بحكومات الغرب المتخاذلة فى شخص تشمبرلن فى إنجلترا ودلادييه فى فرنسا .

وكانت أولى ضرباته أن اغتنم فرصة نفور ستالين من حكومات الغرب وسارع إلى الاتفاق معه على الحيدة المقبلة ، حتى لا تتعرض ألمانيا مرة ثانية

لخطر الحرب فى جبهتين متعارضتين : احداها شرقية ضد روسيا والأخرى غربية ضد الدول الغربية . وكان أشد ما أخذه هتلر على الامبراطور السابق أنه أوقع ألمانيا فى بدء الحرب العالمية الأولى بين نارين من جيوش الحلفاء ، وأنه أراد تحقيق الغرضين البعيدى المنال لألمانيا فى وقت واحد : التفوق الحربى فى أوربا ، والسيادة فى عرض البحار ؛ فخاب مسعى الامبراطور فى الغرضين جميعا . وعلى ذلك تم لهتلر أعظم انقلاب دبلوماسى شهدته أوربا فى تاريخها الحديث ، وهو عقد الاتفاق بين روسيا وألمانيا فى أغسطس سنة ١٩٣٩ ، وكانت سياسة المحور بين برلين وروما قد تأيدت بمعاهدة التحالف بين ألمانيا وايطاليا فى مايو سنة ١٩٣٩ فلم يتردد هتلر وأركان حربه فى إعطاء الاشارة برفع الستار عن مأساة أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ وقد حالفت آلهة الحرب قوات هتلر فى السنين الثلاث الأولى من الحرب ، فعقدت له ألوية النصر فى عدة مواقع حاسمة خاطفة تبوأت على أثرها ألمانيا مركز الزعامة والسيادة فى قارة أوربا فيما عدا السويد وتركيا وسويسرا وقد نضيف إليها تجاوزا ، أسبانيا والبرتغال . ومع ذلك فقد كان لألمانيا فى هذه الدول من النفوذ الأدبى والمادى ماجعلها أيضا تحت رحمتها . ولو أن هتلر ثابر على العمل ونفذ خطته الأولى فلم يعرض ألمانيا لخطر الحرب أمام أكثر من جهة واحدة ولم يحاول إصابة الهدفين الألمانيين معا لكان مصير ألمانيا شيئا آخر غير الانحلال الذى يتهددها اليوم . ولكن الطبيعة البشرية وما جبلت عليه نفس الانسان من الأثرة والطمع والغرور قد جعلت هتلر يزهى بانتصاراته الأولى ويسىء تقدير قوى أعدائه ، فانزلق وهو فى أوج مجده يعادى أمريكا ويعلن الحرب على روسيا قبل أن تنقلب عليه ، ويحاول فى الشمال أن يدق طريقه دقا ليعبر روسيا إلى أكرانيا فالقوقاز وبحر قزوين ، ويحمل فى الوقت نفسه قائده « رومل » فى الجنوب على طرق باب الاسكندرية إلى قناة السويس فبلاد الشرق الأوسط وخليج العجم حيث يلتقى بحلفائه اليابانيين وقد اكتسحوا جنوب آسيا إلى الهند فايران . هنالك أشفقت آلهة الحظ من فداحة مثل ذلك النصر الذى لم يتح من قبل للآلهة نفسها فضلا عن البشر ، فأشاحت بوجهها عن بطلها حينئذ ، وبدأ نجم هتلر فى الأفول ، فارتد الألمان عن ستالنجراد فى الشمال ، وتراجعوا أمام العلمين فى الجنوب ، وكان ذلك بداية النهاية .

محمد رفعت

تأمين على الحياة ...

قهوة صغيرة ، أو قل حانة حقيرة ، ينحشر فيها جمع من الصعاليك والفارغين ، يقضون فيها الوقت ، أو بتعبير أليق بهذا المقام : يقتلون الوقت بثرثراتهم الحادة العنيفة ، ومجادلاتهم التى يسودها العناد والمكابرة ، مفضيةً بهم إلى المهاترة والمشاجرة والعراك ، على حين يتجرعون نفايات الخمور . . .

من بين أوشاب هذه الحانة المدمنين شاب يدعى شافعى ، أو الأستاذ شافعى كما يصر هو نفسه على أن يدعو نفسه بهذا اللقب . . .

ولم لا يكون أستاذا ، وهو الذى لم يكد يخفق فى حياته الدراسية ، وتلفظه معاهد التعليم ، حتى انزجّ كاتبا أو شبه كاتب فى بعض دور المحامين ، فشهد المرافعات الخطيرة تتجاوب أصداؤها فى جنبات المحاكم . . . وسرت أمام عينيه أضاميم القضايا ، فعلقت بأنظاره أمهات الاصطلاحات القضائية ، وتناهت إلى سمعه أحاديث كتّاب المحاماة تتناول إجراءات المحاكم وما إليها من أساليب الحجز والإنذار والكيد للخصوم ؟

وهو على بذاذة هيئته يحاول أن يبدو أنيق المظهر . فرباط رقبته المهلهل الذى قرّحته الأدران يعقده عقدة ضخمة كأنها سلحفاة آخذة بتلابيبه ، وشعر رأسه العامر بالمقاذر يرجّله ويلطخه بالرخيص من الدهان ، وقد أطل من جيب سترته الأعلى قلم حبر ، أو بالأحرى أنقاض تاعسة من قلم ثمين لو أوتيت معجزة النطق لصاحت :

— ارحموا عزيز قوم ذلّ !

فان هذا القلم أقرب إلى الرمز منه إلى الواقع . . . ما أعياه عن أن يخط حرفا بله كلمة . . . ولم يكن الفتى ليريده على أن يجرى بشئ على القرطاس ، وإنما كان يتخذه شعاراً أو شارة تعلن أنه من حملة الأقلام !

كان الشاب يختلف إلى ذلك الخان دائبا لا يتخلف ، ويمضى فيه أطراف النهار وآناء من الليل لا يبرحه إلا خطفا . . . وكان صاحب الخان يلقاه بوجه جهم عبوس ، ونظرة نكراء يتوضح فيها الإزراء . . . أليس فى ذلك كله آية بينة على ما يتمتع به الشاب من ملحوظ المكانة فى دنيا التصعلك والفراغ ؟

وعلى الرغم من أن هؤلاء الرواد فى ذلك الخان قد ملتهم كراسيهم وضجرت بتشبثهم ، تراهم لا يشعرون بطائف من الملالة والضجر ؛ إذ كانوا يأنسون بهذا الصخب الذى لا يفتر وتلك المحاورات التى لا يخبو لها أوار ، ومتى كلّت حناجرهم أشرعوا أبصارهم إلى الطريق يجدون فيه مجالا للمتعة والسلوى ؛ فقد كان الخان قائما فى ملتقى شارعين من أكثر شوارع القاهرة ازدحاماً وحركة . . . المركبات على اختلاف أنواعها فى جيئة وذهوب ، والسابلة على تباين طبقاتهم وأزيائهم ؛ لا يفتر تتابُعهم من رجال ونساء . . .

فى أصيل يوم كان الأستاذ شافعى يتحدث إلى حشد من الرفاق ، وهم متطلعون يستمعون إليه دون أن يفقهوا له قولا ، وما جعلهم يصبرون على الاستماع إلا أن كلا منهم يريد أن يوهم غيره بأنه من أولئك النفر المسايرين للتطور الاجتماعى المشاركين فى جديد أنظمته وأوضاعه . . .

ومن حق الأستاذ شافعى أن نسجل له ما أوتى من بصر نفاذ مؤثر يقلبه فيمن حوله ، ولسان ذلق تترادف عليه الجمل طنانة رنانة ، والكلمات فخمة ضخمة ، يلقيها مصطنعاً لهجة المحامين ، متخذاً طرائقهم فى الاشارة والتلويح ، فتسمع منه أمثال قوله :

الجهل بالقانون لا يعفى من المسئولية !

المتهم برىء حتى تثبت إدانته ! . . .

أيأخذ العامل أجره بحسب إنتاجه ؟ أم بقدر حاجته ؟

وبينما كان الأستاذ شافعى متدفقاً فى حديثه ، والجمع حوله شاخص مشدوه ، إذا بضجة تتعالى فى ملتقى الشارعين ، فالتفت الأستاذ ناحية الضجيج ، فألفى الزحمة تتزايد ، والطريق تتعطل حركته ، وما هى إلا أن قفز من مقعده ، واقتحم الزحام ، وأرهف سمعه يتعرف الخطب ، فعلم أن صبى لبان كان يسرع بدراجته الخربة عليها قوارير اللبن يوزعها على طلابها فى البيوت ، وفى ملتقى الشارعين صدمت إحدى سيارات الأجرة مؤخرة الدراجة ، فألحقت بها نوعاً

من العطب ، وكسرت إحدى قوارير اللبن ، فوقف الصبىّ فى بلاهة يندب سوء حظه ، ويتحسر على ما أصابه ، ويكرر على مسامع المجتمعين حوله خوفه مما ينتظره من حساب وعقاب ، على حين كان السائق يتصايح متهما الصبىّ بجهله نظام المرور وحداثة عهده بسياقة الدراجات . . .

وظل الأستاذ شافعى يدافع الناس بمنكبيه حتى بلغ مكان الخصمين ، فجعل ينقل بصره بينهما فاحصا وهو يرقب مجرى الحوار . . . وأوشك الجمع أن ينحازوا إلى جانب السائق فيما أدلى به من حجة تنفى تبعته . وكيف لا يصدقون رجلا يتربع على مقعده العتيد فى سيارة ضخمة يصور موقفه تصوير خبرة وتدقيق ؟ وكيف لا يكذبون ذلك الصبى الغرير الفأفاء الذى لا يحسن إلا الشكوى والتحسر والانخذال ، معبرا بذلك الوجه الشائه الذى تتخالف أقسامه حتى لتنأى به عن طلعة الانسان ، وتجعله أدنى إلى مرتبة العجماوات ، فلا يثير بشكله وبحديثه إلا السخر والاستهزاء ؟

وما هى إلا أن تقدم الأستاذ شافعى يجابه السائق بقوله :

— يجب أن نحدد المسئولية تحديدا واضحا يا حضرة . . . أنت فى سيارة ، وهذا الصبى فى دراجة ، والفرق جلىّ بينهما من حيث القوة على الضبط والربط ، وإنه سابق لك وأنت من ورائه تراه ولا يراك . . .

ومسح الصبى اللبان لعابه المتسايل على زوايا فمه ، ودعك أنفه المنتفش ، وحملق فى ذلك الشاب مشدوه النظرات . . .

وصمت الجميع إنصاتا إلى ذلك المدافع المنطيق بصوته الجهير . . .

ودبت الحماسة بين جنبى الأستاذ شافعى ، فعلا بصدره ، وأصلح رباط رقبته المنتفخ ، ثم انتزع قلمه العتيد من جيب سترته الأعلى ، واندفع يشهره فى وجه السائق ، وهو يقول :

— القانون صريح فى تحديد المسئوليات . . . إن . . .

فقاطعه السائق متحديا يقول :

— لا تدخل فيما لا يعنيك يا أفندى !

وأحس الأستاذ شافعى أن السائق يتحفز لشر ، فخشى المغبة ، وألفى قدميه تتراجعان . . . ولكنه لمح شبح الشرطىّ يتخطر فى طريقه إلى الميدان ، فعاودته الحمية ، واستأنف قوله متصايحا منتفخ الأوداج :

— كيف لا يعنينى ؟ أتعرف من أنا ؟

فأجاب السائق ساخر اللهجة :

— لم أتشرف بعد يا جناب « الحكمدار » . . . !

فعقب عليه الأستاذ شافعى وقد ملك أعصابه ، قائلا فى تؤدة ، وهو يحكم مخارج الحروف :

— أنا السكرتير العام فى نقابة المحامين ، وعضو مجلس الادارة المنتدب ...

وتراءى شبح الشرطىّ وقد تصيدت أذنه بعض ما تفوه به الشاب الثائر ، فاستشعر له شيئا من التقدير ، ورآه يتجه إليه ، ويسترسل أمامه فى نبرات خطابية يشرح قصة اعتداء السيارة على الدراجة ، غاليا فى التفصيلات ، متحذلقا فى التعليل والتأويل ، واختتم خطبته بقوله :

— القانون صريح . . . من أضرّ بآخر لزمه التعويض !

وكان صبى اللبان قد انتبذ بدراجته مكاناً غير بعيد ، وعينه تنتهب الأستاذ شافعى ، وفمه ينفرج عن بسمة كريهة بلهاء !

واتخذ الشرطى سبيله إلى مكان الدراجة ، وقد اكتسى وجهه صبغة من التزمت والأنفة ، وراح يتفحص الدراجة كأنه خبير فنىّ يستشف بنظره حقائق ودقائق لا يعلمها إلا الأقلون . . .

وما إن أتم بحثه وفحصه حتى انطلق إلى مكان القارورة يقلب النظر فى كُسَارِهَا ، كأنه يستجلى غوامض مصرعها ، ثم داعب حطامها بحذائه الثقيل ، وما لبث أن ركله ركلةً ألقت به عند حافة الطوار مُجْهَزًا عليه !

ورجع إلى السائق يقول عابس القسمات :

— خير لك أن تؤدى للصبى تعويضا . . .

وسرعان ما سرت فى الجمع همهمة استحسان لهذا الرأى ، وانقلب الجمهور فى لحظة ظهيراً للصبى يأخذ السائق بأن يؤدى التعويض . . .

وألقى السائق نظرةً على الشرطى ، فلمح شاربه يهتز انفعالا واستنجازا ...

وألفى شراذم من غلمان الطريق قد تحلقت حوله وتألبت عليه ، وإذا الأستاذ شافعى يتصايح معدّدًا ما لحق الصبى من أضرار ، وما على السائق من تبعات . . . فلم يجد السائق مفيضا من الاحتكام إلى الشرطى فى تقدير التعويض ، راضيا بما يكون من حكمه فى هذا الصدد . . .

فأزاح الشرطى طربوشه إلى الوراء ، وفتل شاربه ، ثم نطق بقوله :

— أعطه عشرين قرشا . . . لقد أصاب الدراجة تلف شديد . . .

دفع السائق هذا المقدار صاغرا ، وتناول الصبى النقود فاغرا فاه من دهشة واغتباط ، وصاح الشرطى بالجمع أن تفرّقوا . . . وسرعان ما انقشع الزحام !

انطلق صبىّ اللبان يجرجر دراجته فى تسكّع ، وهو ينظر إلى يده مطبقة على النقود ، فلم يكن لديه موضع آمَنُ من هذه القبضة القوية . . . أيأتمن على النقود جيبه المتهتك فى ذلك الثوب البالى المهلهل الذى لا يؤمن على شئ ؟

سار وقتا لا يخطر بباله شئ ، ولا يفكر إلا فى مصرف هذا المبلغ الضخم . . . إنه أكبر مبلغ ملكه منذ عرف المال حتى هذه الساعة البيضاء !

وفيما هو على حاله ، يقدر ويدبّر ، أحس شخصا يتهادى على قرب منه ، وإذا هو الأستاذ شافعى ينظر إليه فى تلطف وهو يقول :

— ما رأيك ؟ أمسرور أنت ؟

فانبسطت أسارير الصبىّ ، وأطلق ضحكة شوهاء ، وقال :

— طال عمرك ، وبقى أولادك !

— يبدو لى أنك ولد رقيق الحال . . . ما اسمك ؟

— الفولى . . .

— ماذا تعمل ؟

— صبىّ لبان . . .

— عند من ؟

— عند المعلم فتح الله . . . ألا تعرفه ؟ الرجل ذو الشارب الغليظ ، والكرش العظيمة !

وانطلق يوالى ضحكاته ، فأسكته الأستاذ شافعى بإشارة منه ، وقال له فى جدّ :

— ماذا أنت صانع بالدراجة العاطبة ؟ وماذا أنت قائل للمعلم فى شأن قارورة اللبن المفقودة ؟

فنظر إليه الفولى ذاهلا يقول :

لم أفكر فى هذا قط !

— إنه سيطالبك بالعشرين قرشا ، لأنها تعويض عن قارورة اللبن وعطب الدراجة . . .

فبدا على وجه الصبىّ حيرة وتخوّف ، وجعل يردد وكفه تزداد انقباضاً على ما فيها :

— كيف يأخذ النقود منى ؟

— هى من حقه . . .

وحنا الفولى رأسه فى قنوط واغتمام ، وأخذ يردد :

— وماذا أصنع إذن ؟

— نبحث المسألة ، لعلنا نجد لك مخرجا معقولا ، أنت بائس محتاج ، وأنا مستعد أن أعينك على أمرك . . .

فقال الصبىّ وقد شرق بدمعه ونظر إلى الشاب نظرات توسل وركون :

— طال عمرك ، وبقى أولادك . . . أنا محتاج حقا . . . أنا يتيم ليس لى من أعوّل عليه . . . وأنا أعمل عند المعلم بالقوت الضرورى ، وياليته راض عنى ، فلشدّ ما يضربنى ويخزنى ويهددنى بالطرد . . .

واندفع يشكو ويتضرع ، راغباً فى طريقة يحتفظ فيها لنفسه بالنقود . . .

وراح الأستاذ شافعى يدور حول الدراجة متفحصاً إياها بعين الخبرة ، أو بالحرى يوهم الفولى أنه ذلك الفاحص الخبير . . . ثم همهم :

— ربما لاحظ المعلم عطب السيارة فسألك عنه ، وربما غاب عنه الأمر ، وبذلك تنجو من سؤاله وحسابه . . . أقوىّ النظر هو ؟

— عينه كعين الصقر . . .

— هنا نقطة ضعف فى المسألة . . . ولكن ثمة وسائل لإنقاذ الموقف !

— بربك ساعدنى . . .

وتشبث به الفولى ، فراح الأستاذ شافعى يعتصر جبهته برهة ، ثم واجه الصبى مباغتاً إياه بقوله :

— سألقنك بعض جمل قد تنفعك . . . قل إن ما حدث كان قضاء وقدرا ، ولا رادّ لقضاء الله . . . قل إنك سليم النية لم تضمر أىّ سوء . . . قل إن

السيارة حين اقتحمت الدراجة أقبلت أنت على الدراجة تحميها وتحمى ما عليها من قوارير ، حتى دمى جسمك ، وتمزق ثوبك . . .

ووقف الشاب يتوسم الصبى لحظات ، ثم قال :

— يجب أن يدمى جسمك ، وأن يتمزق ثوبك . . . !

— كيف ؟

— أعاجز أنت عن أن تخدش نفسك وتشق ثوبك وتتمرغ فى التراب ؟

— أليس من هذا بد ؟

— لابد من ذلك لابد . . . لا مخلص لك إلا بهذه الوسيلة . . . إن المعلم إذ يراك على هذا النحو يشفق عليك . . .

فابتسم الفولى ابتسامته العريضة ، وقال :

— أمرك !

وانتحى الأستاذ شافعى والفولى ناحية من الطريق مهملة ، وشرع الصبى يؤدى لنفسه مهمة الخدش والتمزيق والتمرغ وفق التعليمات المرسومة ، حتى بلغ من ذلك ما أراد . . .

فما إن رآه الأستاذ شافعى حتى ربَّت كتفه ، وقال :

— أحسنت !

ثم تابع قوله :

— لا تنس أن تتدانى إلى الحانوت ، متخاذل المشية ، ذليل القسمات ، تتلوى من الألم . . .

ثم استمر يشرح له الخطة ، ويلقنه الأجوبة ، ويزوده بالنصائح وبما يواجه به المفاجآت . . .

وبعد أن وعى الفولى ما سمع ، تهيأ للمضى فى الطريق ، فنظر إليه الأستاذ شافعى مليًّا ، ثم تصنَّع ابتسامة الفطنة ، وقال :

— أراهن على أنك تريد منى أن أرافقك فى مهمتك ، حتى أخلصك من سطوة معلمك !

فأجاب الفتى فى سذاجة :

— أبقاك الله ، وحفظ أولادك . . . إن هذا لجميل منك . . .

وهنا وقف الأستاذ شافعى وقفة حزم ، وقال :

— ولكن مسألتك أضاعت من وقتى ساعتين ، فماذا تبغى منى فوق هذا ؟ لدى قضية سهمة لا مخلص من إنجازها ، وجلسة فى النقابة علىّ أن أشهدها . . .
فأخذ الفولى يتضرع قائلا :
— إنى خائف من المعلم !
ولبث الأستاذ شافعى يمط شفتيه فى امتعاض ، مظهراً التردد والإحجام ، ثم بسط ساعده ، واستشار ساعة يده الخربة ، وداعب ذقنه لحظة ، وأخيراً قال :
— لا بأس ... دقائق أخرى من أجلك ... أنت ولد تستحق المساعدة ...
وابتهج الفولى بذلك الفوز ، فأقبل على يد الأستاذ شافعى يغمرها بقبلاته ...
وأخذا يتوجهان وجهة حانوت اللبان ، فقال الأستاذ شافعى :
— عليك أن تتقدمنى خطوات ، حتى لا يراك أحد معى فيرتاب فى الأمر . . . إنى مراقبك من بعيد . . . وسأتدخل فى الوقت المناسب !
وأخرج علبة لفائفه وفتحها ، ثم قذف بها فى عرض الشارع متسخطا يقول :
— ليس فيها لفائف !
فقال الفولى على الأثر :
أذهب لأشترى علبة ؟
— لا مانع . . .
وأخرج محفظته المنتفخة بالأوراق ، وألقى بصره عليها ، ثم زوى ما بين حاجبيه ، وقال :
— لا داعى للفائف الآن . . .
— ولم ؟
— ليس معى إلا ورق مالى كبير لا يصرف هنا . . .
قال ذلك وقد سلط عينه على كف الفتى يريد أن ينفذ ببصره إلى الريال المختنق فى قبضتها . . . فقال الفولى وقد أحس النقود تضطرب فى يده :
— ربما كان من المستطاع صرف ورقة من الورق الكبير ... ألا نجرب ؟
فقال الأستاذ شافعى محتدًّا :
— حسبى ما ضاع من وقتى . . . أتريد أن تفوتنى القضية وجلسة النقابة ؟
— لا أحب أن أراك متضايقاً كما أنت الآن . . .
فصاح به الأستاذ شافعى صيحة عنيفة :

— قلت لك إنى مرتبط بمواعيد . . .

فوقف الفولى منكمشا ، ثم أخذ يهرش رأسه ، وانسرح يفكر ، وهو يردد بصره بين قبضة يده يختزن فيها كنزه وبين الأستاذ شافعى يقف وقفته العصبية . . . وأخيراً لم يجد بدًّا من أن يقول :

— أذهب لشراء علبة وأدفع ثمنها مما عندى . . . وحين تصرف الورقة ترد إلىّ الثمن . . .

— ما هذا الكلام الفارغ يا ولد !

وتضرع إليه الفولى أن يقبل هذا الحل . . . وبعد تمنع ومناقشة قبل الأستاذ شافعى فمدّ يده وانتزع النقود من يد الصبى وهو يقول :

— أفضّل أن أشترى علبة اللفائف بنفسى . . . اسبقنى وأنا وراءك !

وسار الفولى يجرجر درّاجته المتداعية ، وقوارير اللبن يرتطم بعضها فى بعض ، وكأنها تتساءل عن مصيرها بعد أن تغير البرنامج المرسوم لها كل يوم . . . !

تبع الأستاذ شافعى خطوات الصبى ، وكان كلما قطع من الطريق مرحلة ازداد عنه تباعدا . . . وبين الفينة والفينة يلتفت إليه الفولى ليشعره بأنه أمامه يهديه السبيل . . . !

وازدحم السابلة أثناء السير ، فلاحت الفرصة للأستاذ شافعى كى ينجو بالغنيمة ، ولكن عين الفولى لم تنم عنه ، فأفسدت عليه تدبير الهرب ، وأحس كأنه محصور يخضع لرقابة ذلك الفج الغرير . . . !

على أنه اعتصم بالصبر ، وحث خطاه ، مزمعا فى دخيلة نفسه أن ينتهز أول فرصة للخلاص من تلك الرقابة البلهاء !

ولكنه ما عتم أن ألفى نفسه قبالة حانوت اللبان ، حيث تهيأ الفتى ليلج بابه متخاضع الهامة ذليل الخطا . . .

وكانت وجهة الحانوت بيضاء مغبرة قذرة ، وعلى عتبة الباب يتسايل الماء فيملأ البقعة بالأوحال . . . ومن خلال زجاج الوجهة يتراءى مصباح كهربى يتدلى فى نحو مبتذل ويتهافت شعاعه الواهن على تمثال رخيص شائه لحيوان أوضح ما فيه ضرع كبير ، لا تدرى أبقرة هو أم لبؤة أم هرة عجوز ! . . . وخلف هذا شبح كتلة بشرية ضخمة غير واضحة المعالم ، يتعالى

منها صوت متحشرج تشيع فيه رنة السخط ، ما أشبهه بخشخشةمذياع خَرِب !

لمح الأستاذ شافعى هذا المنظر ، وتناهى إليه ذلك الصوت ، فألفى نفسه قد انزوى فى ناحية يتطلع ويتسمع ، يدفعه الفضول إلى تعرف ما يكون . . . واستطاع أن يتابع فى صعوبة خلف زجاج الوجهة الكدر مشاهد الرواية بين بَطَلَيْها : المعلم والصبى !

الكتلة البشرية تتحلحل ، شبح الفولى عن كثب منها يتخاذل تخاذل الظل الناصل أمام الضوء الكاشف . الحشرجة تنقلب زمجرة حبيسة كزمجرة الاعصار حين يتهيأ للزفيف . الكتلة تنقضّ على الظل الناصل فاذا هو لا عين ولا أثر . الاعصار يعصف كأنه دوّامة موّاجة يضيع فيها صراخ الاستغاثة المضعضع . . .

وما هى إلا ان أنقذفتْ من الحانوت إلى الطريق تلك المزقة الآدمية التى تدعى الفولى ينبعث منها تأوه وانتحاب . . .

وسرعان ما تهافت حول الصبى الصريع نفر من الفضوليين ما كاد يتبينهم حتى انطلق يشكو لهم بأساءه وما حل به من ضرب وجيع بلا جريرة ولا ذنب . . .

وكان يتطلع يمنة ويسرة باحثا عن منقذه وأمين كنزه الثمين ، فلم يره على فرط التلفت والتصفح للناس . . .

وعمرت الحلقة بعابرى السبيل ، وأخذ الناس يتذمرون ويتبادلون شعور الاستياء من صاحب الحانوت ، بعد أن تجلى لهم ما بَرّح بالفتى من الآلام ، وما أصابه من جراح . . .

فى هذه اللحظة بزغ المنقذ ! . . . فاخترق الحلْقة ، وشرع يسائل ، وتطلّق وجه الفتى ، وتهادت الكتلة البشرية الضخمة بشاربها الغليظ ، وهى تصيح بالجمع أن يتبدد . فخطا الأستاذ شافعى خطوة إلى الأمام وقد علا بصدره ، وانبرى يسوّى رباط رقبته المنتفخ يستمد منه الحمية والتشجع ، وقال :

— هذا الولد مظلوم ، خليق بالرثاء !

فأرعد المعلم قائلا :

— إنه أخبث مخاتل خداع . . .

— وهذه الجراح ؟ وتلك الكدمات ؟

واقترب الأستاذ شافعى من الصبى يتحسس أوصاله ، وصاح ملتفتا إلى الجمع :

— يلوح لى أنه قد أصيب بكسر فى ترقوته !

فهمهم الجمع :

— ترقوته ؟

والتفت الأستاذ شافعى إلى الصبى يقول :

— قم يا ولد . . .

وما كاد الصبى ينهض حتى صاح الأستاذ شافعى :

— شَدَّ ما يتألم !

وفى هذه اللحظة سمع الصبىّ يجأر بالشكوى ويتوجع . . . وتابع الأستاذ شافعى قوله :

— إنه ليتعذر عليه أن يقيم صلبه . . . انظروا إليه يتهالك على الأرض مثخنا بجراحه !

وما أسرع أن ارتمى الفولى على الأرض ، فواصل الشابّ قوله :

— يالله ! المسكين يكاد يفقد وعيه . . .

وما إن أتم قولته ، حتى تمدد الصبى خامد الأنفاس . . .

وصاح الشاب يقول :

— هذا ما كنت أخشاه . . . حقا إن ترقوته قد كسرت ، وهذ أعراض انكسارها . . . يجب أن نستدعى سيارة الاسعاف وإلا . . . وإلا أفلتت فرصة العلاج !

طرقت هذه الكلمات سمع المعلم ، فبدا عليه التعجب والدهش ، ولكنه ظل رابط الجأش ، متملكا زمام نفسه ، وافتعل ضحكة شنعاء ، قائلا :

— ماذا تقول يا أفندى ؟ أية ترقوة ؟ وأىّ إسعاف ؟

ومد قدمه إلى الصبى يغمزه ويقول :

— قم ياولد . . .

ولكن الفولى كان حريصا على الاذعان لنصائح الشاب ، فلم يبد فى رقدته حراكا . . . وكان وهو ممدود على أديم الأرض تكسو وجهه الجراح ،

وتعلو ثيابه الأوحال ، حريا أن يستثير مشاعر العطف والاشفاق . . . فتعالت همهمة سخط وتغيظ بين جمهرة الناس ، فقال أحدهم يوجه كلامه إلى المعلم :

– أليس فى قلبك ذرة من رحمة ؟ إن الولد يجود بنفسه !

فصاح الأستاذ شافعى وقد انحنى على الصبى يتحسسه :

– الحالة خطرة . . . أخشى أن يكون قد أصيب بنزف باطنى . . . ألا أجد رحيما يسعفنا ببعض المنعشات ؟

فهرع جمع من الناس يحضرون الماء والخل . . . وأقبل الأستاذ شافعى على الصبى يدلكه وينشقه ، ثم تركه لبعض السابلة يتعهدونه ، وقصد إلى المعلم ، ووقف أمامه وجها لوجه ، وقد عقد حاجبيه ، وخطف قلمه العتيد المتداعى من جيب سترته الأعلى ، وجعل يلوح به قائلا :

– ألا تعلم أنك عرضت نفسك لمسئولية جنائية صريحة ؟

فغمغم المعلم وقد تغضن جبينه :

– مسئولية جنائية ؟

– حقا . . . إنها لمسئولية خطيرة ، تزُجّ بصاحبها فى محكمة الجنايات !

وهمّ المعلم أن يرفع الصوت مستنكرا ، فوجد الكلمات تختنق فى زوايا حلقه . وكان الأستاذ شافعى يرقبه بالنظر الثاقب ، فلمح شارب المعلم الضخم المتشامخ يتهدل ويتطامن . . .

فصاح على الأثر :

– لا أقل من سجن خمس سنين . . . أوَحسبت أنه لا حساب ولا عقاب ؟

وأخيرا استطاع المعلم أن يقول :

– وحضرتك من تكون ؟

– ألا تعرفنى ؟

– لم يسبق لى شرف التعرف . . .

– أنا السكرتير الخاص لنقابة الطب الشرعى ، وعضو اللجنة العليا للاسعاف ! . . .

فأجاب المعلم مختلج الأنفاس :

— وسعادتك . . . بماذا تأمر ؟

— لا شأن لى بالموضوع . . . لا مصلحة لى قط . . . علىّ أن أبلغ الأمر للسلطات المختصة . . . هذا كل مايجب أن أعمله ، أما الاجراءات القضائية فانها تأخذ مجراها . . .

فمد المعلم فتح الله يده إلى كتف الأستاذ شافعى ، وجعل يربتها فى ترفق ، ثم اجتذبه من الزحمة متلطفا وهو يقول :

— تعال معى إلى الحانوت نتحدث على مهل . . .

وسار به إلى الحانوت ، وواصل قوله :

— هذا الولد عندى كأحد أبنائى ، وقد ربيته ، وليس بعسير علىّ أن أعالجه ، وأن أنفق عليه حتى يذهب عنه ما به . . .

ودخل كلاهما الحانوت ، فعمد المعلم إلى الباب يغلقه ، وشوهد شبحاهما من خلال الوجهة الزجاجية ، وقد انتحيا ركنا قصيا ، وانبريا يتناقشان ويتحاوران . . . ثم شوهدت الكتلة البشرية تدس خفية فى يد الأستاذ شافعى شيئا لم يكد يلمسه حتى خفّت حدته فى المناقشة ، وانقطع عن اللجاج !

وخرجا من الحانوت يظللهما الصفاء . . .

وسمع الناس الأستاذ شافعى يخاطب المعلم بقوله :

— سأتولى الأمر بنفسى ، ولكن كن حكيما فى معاملة الغلام ، ولا تدع غضبك يسيطر عليك . . .

وأمر باحضار مركبة من مركبات الخيل ، فلما حضرت حمل إليها الفولى ، ووثب الأستاذ شافعى يتخذ مجلسه بجواره ، ومضت بهما المركبة بين أخلاط الزحام . . .

وما إن ابتعدت عن الحى حتى اعتدل الفولى فى جلسته ، وتطلع إلى وجه منقذه يبتسم ابتسامته البلهاء ، فزجره الأستاذ شافعى بنظرة حادة ، ثم استل من جيبه الريال العتيد ، ودفع به إلى الفولى ، قائلا له :

— خذ نقودك . . .

— واللفائف ؟

— لا حاجة لى بها الآن . . . حسبى ما أضعت من وقتى فى مشكلتك الأولى والأخرى . . .

ترادفت على يوم هذا الحادث شهور . . .

وظهر فى المنتديات وفى المجالس الكبيرة شابان تزينهما حلة إفرنجية ، أحدهما حديد البصر يعنى برباط رقبته ذى العقدة الضخمة ويصلحها بين حين وحين ، وتراه يتحسس تارة قلم الحبر الثمين ذا الغطاء المذهب ، وهو مطل من جيب سترته الأعلى . . . وبجوار هذا الشاب فتى يافع يلازمه ملازمة الظل ، لا ندرى أآدمى هو بحق أم هو من ذلك النوع البدائى المنقرض من سلالة الانسان ، ذلك الذى تخيله داروين حلقة الاتصال بين القرد والبشر . . . فهو على الرغم من جدّة حلته ، يبدو مختل الزى بلا هندام ، حركات شاذة فى النهوض والسير والتلفت ، وإشارات طائشة يبعثرها فى غرارة ، وابتسامة عريضة بلهاء تبتلع وجهه الشتيم !

ولشدّ ما يبادره رفيقه بالتعنيف ، إذ يقول له :

— قلت لك دع هذه الابتسامة ، لا تضحك على هذا النحو ، متى تتعلم !

فيتطلع إليه الفتى على حاله لا يكاد يشعر بما قيل له ، ويجيب ساذج اللهجة :

— وماذا تريد منى أن أفعل ؟

— أريد أن تكون كخلق الله !

— ألست من خلق الله ؟

— إنك لحيوان . . .

— طال عمرك ، وبقى أولادك !

وينفرج فمه أكثر من ذى قبل ، وتتوضح ضحكة كأنها تثاؤبة بشعة . . . فينظر إليه الشاب الأنيق نظر الاشمئزاز ، وتعتلج فى نفسه نزعة جامحة إلى صفعه ، ويلفى كفه تختلج ، ولكنه لا يلبث أن يرى نفسه قذف فى وجه الفتى ورقة مالية صغيرة ، وهو يصيح صيحة الامرة :

— حل موعد الطعام ، فاعزب عنى ، وأرحنى من طلعتك بعض الوقت . . .

فيتلقف الفتى ورقته مغتبط النفس ، ويقول :

— لا حرمنى الله فضلك وإحسانك . . .

— لا تتأخر . . . يجب أن ألقاك فى الموعد . . .

ثم يحسر كمه عن معصمه ، ويلقى بنظرة خاطفة على ساعته الذهبية الوهاجة ، ويواصل قوله :

— أمامك ساعة . . . ستون دقيقة فقط . . . أفاهم ، أنت ؟

— فاهم يا سعادة البك . . .

— إن وقتى محسوب علىّ . . . القضايا يأخذ بعضها برقاب بعض . . . فحذار أن تتخلف . . .

— كان الله فى العون !

— إن الله تعالى لم يشأ أن يعيننى بمعرفتى بك . . . لقد زادت متاعبى منذ سقطت علىّ . . . ولكن ماذا أنا صانع ؟ أألقى بك فى عرض الطريق ؟ لك رزق . . . إنما نطعمكم لوجه الله . . .

— عمر الله بيتك !

— اذهب لشأنك وتذكر موعد اللقاء . . .

ويخرج « شبه الآدمىّ » يقفز فى مرح ، تراوده شهوات الطعام وألوان المآكل . . .

منذ يوم الحادثين التاريخيين — حادث السيارة ، وحادث المعلم فتح الله — تاحت للأستاذ شافعى فرصة تتجلى فيها مواهبه على نحو جديد . . .

فكر فى شأن ذلك الصبى ، فرأى أنه إن اتخذه تلميذا يستخدمه فى مثل هذه الحالات أصاب منه رزقا حسنا . . .

وكان الأستاذ شافعى فطنا حصيفا لا يتهور ؛ فهو لا يتقدم خطوة إلا إذا مهد لقدمه موضعا ، فبدأ يصطنع الصبى على نحو يأمن معه الزلل والافتضاح ، واتخذ من حادثة المعلم فتح الله أساسا للعمل ، فسعى فى إلحاق الفولى بمحل آخر على نحو ما كان ، وأعاد تمثيل الرواية بعد أن أتقن تجربتها وأبدع فى إخراجها وزادها فصولا إلى فصول ؛ فقد كان الأستاذ شافعى مجدِّدًا حقا فى أساليبه ، لا يركن إلى طريقة واحدة فى الاعادة والتكرار . . . ولا يكاد ينفض يده من حادثة ، حتى يمضى بربيبه وصنيعته إلى صيد جديد .

صدقت الحكمة القائلة بأن الحظ إذا واتى إنساناً ألفه ، فلم يغدر به ؛ وإذا أخلف لم يكن له من عود ؛ فالأقدار التى أخذت بناصر الأستاذ شافعى ظلت تمنحه العطف والتأييد . . .

فقد وقعت يوما حادثة ما أجدرها أن تكون محور تحول فى خطة ذلك الشاب المغامر ، إذ أصيب الفولى فعلا بصدمة سيارة كادت تتركه فى ذمة المنون . . . فما أسرع أن رفع الأستاذ شافعى الأمر إلى القضاء ، فحكم له بتعويض أدته شركة التأمين التى كانت تضمن حوادث هذه السيارة . . . فقد ثبت أن الصدمة تركت ما يسميه الطب الشرعى : « عاهة مستديمة » . . . ولم تكن فى الواقع عاهة يأبه لأمثالها الفولى ونظراؤه من ذلك الضرب البشرى الذى هو عرضة للجد والاحتمال . . .

هنا انفتح لعين الأستاذ شافعى مجال تكمن فيه الذخائر والكنوز ، هذا المجال المبارك عنوانه :

« العاهة المستديمة » !

وعلى كرّ الأيام اتخذ الموضوع منحى عمليا لا يخلو من خطر ، إذ وجد الأستاذ شافعى نفسه أمام ميدان يتطلب الجهاد فى جدّ وإحكام ، ولم يكن هذا ليعييه . . .

وبذلك أصبح ذات يوم فألفى نفسه مُرَوِّضا حقا لهذا الحيوان شبه الآدمىّ . مروضا له على نهج مرسوم وخطة مقررة لغاية واضحة تمام الوضوح . . . !

وكان عليه أن يتذرع بالصبر والحلم ومكابدة المشاق ، يغدق الرحمة والحنان أحيانا حتى يبلغ الأمر مبلغ التدليل ، ويقسو تارة أشد القساوة حتى يسوم ربيبه سوء العذاب . . . فهو صيدلىّ يتخذ من الأدوية والسموم ما يلائم ملابسات الأحوال ، حتى يستطيع بذلك أن يحيل هذا الحيوان شخصية ماهرة تجيد اللعب فى مخاطر الحياة ، كما يجيد البهلول قفزاته العالية يتطوح بها يمنة ويسرة فى حلقات الملاعب . . .

لقد غدا الأستاذ شافعى فى حياته الجديدة مبتكراً مخترعاً ، يحتبس فى مكتبه ليرسم الخطط ويعد التجارب ، فاذا فرغ من رسمها وإعدادها عمد إلى صنيعته يلقنه الدرس ، ويريده على ضروب من التمرين ، ثم يجرجره معه كما يجرجر الصياد شبكته، ويرمى به فى معمعان الحياة وعباب الأحداث ، ثم يجذبه فاذا هو مملوء الوفاض بالمغانم والخيرات !

أما الفولى فكان يسلم قياده لأستاذه ، لا يعصيه ولا يخالفه فى أمر أو نهى . . . لقد وهب لأستاذه كامل ثقته ، فلم تكن المخاطر تهزّه أو تهوله ،

ما دام أستاذه هو الذى يدفعه إليها دفعا . . . لا مرية أن السلامة مكفولة مهما ينله من إصابات ، فما كان لأستاذه أن يريد به السوء !

وأخذ الأستاذ شافعى يتنقل فى البلاد مستصحبا صنيعته ، لا يستقر له قرار فى بلد واحد ، يرتاد المصايف والمشاتى ، حسبه أن يزج بصبيه فى المزالق والمآزق فلا تلبث المغانم أن تفئ إليه باردة طيبة لا تكلفه عنتا . . . فعاش عيش المترفين المنعمين ، يلقى من مائدته فتاتا لربيبه الصبى ، فيلتقطه مجبوراً نقر عيناه . . .

واتسعت مناطق عمل الشاب ، وازدادت المشروعات بين يديه ، فكان يؤثر منها أضخمها تبعة وأثقلها كلفة . . .

وسارت الأمور على هذا النحو ، وتكاثرت فى جسد الفولى ألوان « العاهات المستديمة » فأصبح كالثوب المرقع ، بقيت فيه المزق ، ولعب بأصله العفاء !

وأصبح للفولى اسم ذائع الصيت فى المشافى والمصحات ، يقضى فيها من أيام عمره أكثر مما يقضيه خارجها من أيام السلامة والعافية . . . وكان ذلك مما يغريه بالمخاطر ويشجعه على اقتحامها ؛ فان عيش المشافى والمصحات أهنأ وأمرأ ، وإن حياته فى تلك الدور لهى حياة رفاهية ومتاع ، إذ هو بين أيدى الممرضات يتعهدنه ويلاطفنه ويقدمن له أنظف الملبس وأطيب الطعام والشراب . . .

وتعاقبت الأيام والفولى مطمئن بحياته ، رافه البال ، يعيش فى قفص من عاهاته المستديمة كما تعيش القوقعة فى محبس من صدفتها ، أو السلحفاة فى حصن من درعها الصخرية . . .

ولكن الأستاذ شافعى لم يعد يشارك الصبى هذه الطمأنينة ؛ فقد سمع مرة من الجراح الذى تولى علاجه أن هذا الصبى لن يعيش طويلا إذا تعرض لصدمة أخرى . . . فوقع هذا النبأ على الأستاذ شافعى وقوع الصاعقة ، وفكر فى الأمر مليا ، واضطر أن يخفف من وطأة المغامرات التى يورط فيها ربيبه ، وأحاطه بموفور الرعاية . . .

وكان كلما خطر بباله أنه قد يفقد الفولى يوماً ، شعر بصرح آماله يتقوض ، وتأمل فى نفسه ، فلم يجد أنه قد ادخر مما كسب شيئاً لمثل هذا

اليوم ، اليوم العصيب المنتظر . . . فقد كانت المائدة الخضراء ، ومناضد الشراب ، ومجالس الغوانى ، تتناهب كسبه ، فلا تبقى ولا تذر . . .

هل من سبيل لانقاذه من تلك الكارثة التى توشك أن تحيق به فتسلمه إلى البوار ؟

كان مرة فى السينما ، فشاهد رواية إجرامية دارت أحداثها حول استغلال التأمين على الحياة ، فخلبه الموضوع ، وراقته الفكرة ، ومضى يسائل :

أما يجوز له أن يتخذ من موضوع التأمين سلما لانقاذ مستقبله ؟

لم لا ؟

وجلس إلى مكتبه ، وقد علت سحنته تلك المسحة الشريرة ، وأحس من قرارة نفسه باعثاً يحدوه على عمل فاصل وأمر محتوم . . . إنها الورقة الرابحة الكبرى ، أفلا يقامر بها ؟ إن حياته كلها كانت حتى اليوم ربحاً لا خسران معه ، فليجرب هذه المرة أيضاً مواتاة حظه ، وإنه لعلى يقين أنه لن يتنكر له . . .

عليه أن يضرب الضربة الحاسمة حتى تغنيه عن تلك المغامرات الصغيرة التافهة التى هى علالات عجاف !

فى هذه اللحظة طالعته صورة للفولى ملقاة على مكتبه ، وهو يبتسم ابتسامة تكشف عن قسماته الحيوانية ، كأنه يذكره بفضله عليه ، فتأمل الصورة حيناً بعين مغيظة ، وما عتم أن قذف بها بعيداً ، وراح يذرع الحجرة ذهاباً وجيئة . . .

الفولى . . . من هو ؟ بل ما هو ؟ . . . غر مأفون ، وسيموت يوماً ، ما من ذلك بد . فماذا إن تقدم به الأجل ؟ كثير غيره من كرام القوم وسراة الناس تجرى عليهم سنة الموت وهم فى ريّق العمر ، وفى الصبا النضر ، ومع ذلك تسير الدنيا ولا تفتأ تسير !

الفولى . . . إنه ميت لامحالة . . . ولكن المهم من أمره إذن أن يموت فى الوقت المناسب على الوجه المناسب ، فيضمن لموته قيمة لا تضيع ، وإنما تكون جزاء لولىّ نعمته الذى انتشله من الحضيض ، ورفعه فى مراتب الحياة درجات !

وانفرج الباب فى هذه اللحظة عن الفولى يخب فى حلته الجديدة غير

المهندمة وهو يحى الأستاذ شافعى بتلك الابتسامة المثيرة للأعصاب . . .

فتدانى منه الأستاذ شافعى وربت كتفه ، وهو يقول :

– سنخرج معاً . . . أستأهب أنت ؟

– أنا طوع أمرك . . . إلى أين ؟

– سنمضى إلى بعض زيارات . . . زيارات هينة . . .

ثم أخرج من جيبه علبة لفائف ، ورمى بها نحو الفولى فى ملاطفة ومعابثة ، فلقفها الصبى وهو يترنح من طرب . . .

مضيا . . . متجهين إلى إحدى شركات التأمين . . .

وانقضى أسبوعان والأستاذ شافعى يستصحب ربيبه متنقلا به بين شركات التأمين يعرضه عليها مستشيراً إياها فى التأمين على حياته . . .

وكان يساوم ويفاضل ، ويستخبر مختلف الجداول المزدحمة بالأرقام ، حتى استقر قراره بعد لأى على اختيار إحدى الشركات السخية فى شروطها ، وبدأت بعد ذلك إجراءات الفحص الطبى ، فطرح الفولى بين يدى الأطباء يقلبونه كما يقلبون البضاعة المزجاة ، متفحصين إياه فى عناية واهتمام وحذر ، واستعانوا فى فحصهم بتحليل الدم واتخاذ الصور لأوصال الجسم المختلقة ، والصبى فى أثناء ذلك لا يحاول أن يفكر فى اكتناه الغاية مما يرى وما يسمع ، حسبه أن يحس الغبطة والانشراح والاعتزاز بذلك الجمع المحتشد من حوله يشمله باهتمام ملحوظ . . .

وبعد محاولات ومداورات حررت وثيقة التأمين ، فدسها الأستاذ شافعى فى جيبه فى عناية واحتراس . . . وما إن ترك المكان حتى التفت إلى الفولى يقول وعيناه تلتمعان التماعة الفوز والمرح :

– أتعلم ماذا كان من أمرك الساعة ؟

– ماذا ؟

فوقف الأستاذ شافعى يتأمله بعينى النسر الشره ، ثم قال :

– إن حياتك التى لم تكن تساوى قشرة بصلة ياسيد فولى قد أصبحت منذ اللحظة تساوى آلافاً من الجنيهات !

فحملق الفولى مبتهجاً مهتاج الخاطر ، ينشق فمه عن ابتسامته الكريهة البلهاء ، وهمهم :

— كيف ؟ . . . كيف هذا ؟

— ذلك هو الواقع . . . لقد رفعتك من لا شئ إلى كل شئ . لقد جعلت لحياتك قيمة غالية . . . افهم أنك أصبحت الآن عظيما ، عظيما جدا أيها الحيوان ! . . .

فتضاحك الفولى مترنح الأعطاف ، وقال :

— طال عمرك ، وبقى أولادك . . .

هنا تبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ صلة الفولى بأستاذه الشافعى ، مرحلة يلعب فيها القدر لعبته الكبرى . . .

لقد أمّن الأستاذ شافعى على حياة الفولى بمبلغ ضخم ، وجعل نفسه وريثه الأوحد . . .

لقد توضحت المسألة . . .

إن الذى كان يخشى الأستاذ شافعى وقوعه قبل اليوم ، أصبح الساعة هو الذى يشتهيه ويتعجله ويرى فيه فردوس أحلامه . . .

عليه الآن أن يعمل بجد . . .

وسرعان ماشمر عن ساعد الاهتمام ، واستأنف مراجعته لمشروعاته ينمقها ويجيد إخراجها ويجملها بما يجعلها أحد وأمضى !

وتأهب الفولى لخوض المغامرات بعد فترة الراحة والاستجمام . . .

كانت الخطط السابقة تتسم بالحيطة والحذر ، ولكن الخطط الحاضرة يتجسم فيها التهور والتعرض للتهلكة . . .

وشرع الفولى يدرك ببصيرته الحيوانية ، ببصيرته التى تنيرها غرائز الحرص على البقاء ، أن ثمة عنصراً جديدا قد اندس فى مغامرات اليوم . . .

ولكن ما هو ؟

ذلك ما لم يستطع التفطن إليه والكشف عنه . . .

وأحس يوماً فى إحدى المغامرات يد الأستاذ شافعى تدفعه دفعاً تحت عجلات السيارة ، على حين أن الخطط فى سوالف المغامرات كانت تلزم الأستاذ شافعى أن يظل بعيداً عن الأنظار ، حتى تقع الواقعة . . .

وما هى إلا أن وجد الفولى نفسه فجأة يحجم ويتمنع ويتوق ، فكان الاخفاق نصيب المغامرات المدبرة . وتأصلت فى قلب الفولى مخاوف لم يكن

يدرك تمام الادراك مأتاها . . . فكان وهو على أهبة التقحم فى ميدان الخطر يشعر فى اللحظة الحاسمة بما يزين له التراجع والفرار ، فاذا هو قد جانب الميدان ، وأطلق ساقيه للريح . . . !

أثار هذا الاخفاق المتتابع غضب الأستاذ شافعى ، فكان يعنف ربيبه أقسى تعنيف ، ويحضه على الاقدام والتشجع ، ويسائله :

ماذا أصابه حتى فقد رباطة جأشه وخفة حركته ؟

فلا يجيب الفولى إلا بما ينطبع على وجهه من سهوم وحيرة وارتتاج . . .

وكثيرا ما هم الأستاذ شافعى أن ينحى على ربيبه بالضرب الموجع ، ولكنه كان يراجع نفسه ، ولا يلبث أن يقبل عليه يلاطفه ويتملقه ، ويلاينه بمعسول الأمانى . . . فكان الفولى يحدق فيه طويلا بعينيه الكابيتين الكئيبتين ، كأنه يريد أن يستكنه هذا الملق وما ينطوى عليه من سر . . .

وسرعان ما ينخرط فى بكاء وانتحاب ، وتستبد به الوحشة والانقباض ، كأنه تائه يضرب فى بيداء ماحلة تعوى فيها الرياح . . .

اختلت برامج الأستاذ شافعى كل اختلال ، وخلا إلى نفسه يسائل فى أمر هذا الصبى المعتوه ، وما عراه من تغير حال . . .

أى شئ أصاب الصبى حتى جعله يتخذ خطة أخرى فى مجابهة الصعاب وملاقاة المخاطر ؟

لقد كان من قبل مذعنا لارشاد أستاذه منجزا لخططه فى استسلام واطمئنان ، لا تقصير ولا عصيان . . .

فما خطبه اليوم يحجم ولا يبدو طيعا كما كان ؟

ماذا جرى ؟

هل أحس أن نية سيده قد تغيرت نحوه ، وأنه يأتمر به ليهلكه ؟

لا ريب فى أن الصبى هو هو ، فعقله هو عقله ، وفطنته هى فطنته ، ليس بقادر على أن يستشف مجهولا ولا أن يستبطن شيئاً مما غاب . . .

أثمة وسيلة أخرى إذن غير العقل والفطنة تكشف عن البصائر وتجلو السرائر وتتوضح بها النيات ؟

أفى مستطاع الغرائز غير مستعينة بالعقل والادراك أن تستشف من حقائق الحياة وغيوب التدابير ما قد تعيا به العقول والفطن ؟

كان الفولى مستسلماً مطمئنا ، يوم كانت نيات أستاذه الشافعى نحوه بيضاء لا تريد له هلاكا ، بل تبغى حمايته والاحتفاظ به . . . ولكن الصبى اليوم ينقلب إلى الضد ، فيتقيه ويحذره ويستريب به ، لا لسبب إلا أن الأستاذ شافعى فى سريرة نفسه التى لا يعلمها أحد قد فكر فى الخلاص من ربيبه . . .

أترى الفولى بواعيته الخفية قد أحس ذلك الانقلاب فيما يهدف إليه أستاذه من أغراض . . .

عالج الأستاذ شافعى ربيبه بمختلف الذرائع وأشتات المغريات ، وإذ يضيق بأمره ذرعا لا يجد بدا من أن يتقصده بالضرب المبرح والايذاء الأليم . . .

فكان الفولى يحتمل الأذى فى صبر وجلد ، لا يروعك منه إلا كشرة ضارية تعلو فمه كما تكشر الذئاب المتأهبة للانتهاش . . .

ولا يكاد الأستاذ شافعى يرى الفولى قد كشر عن أسنانه على هذه الصورة البشعة حتى يتقهقر عنه ، وقد أوجس خيفة منه !

وانتهى الأمر بأن أعلن الفولى جهرة إضرابه عن تنفيذ أى مشروع يراد عليه . فأسقط فى يد أستاذه الشافعى ، وذهبت محاولاته كلها أدراج الرياح ، وتلبَّس الفولى بعناد كما يعاند الحمار إذا حرن ، وتأبّى أن يتزحزح عن موقفه مهما يكن من أمر . . .

ونشبت بين الصبي ومروِّضه عداوة مضطرمة كان من العبث إخفاؤها . . . وكان الأستاذ شافعى يكاشف صبيه بالعداء فى ضجة وعنف . فأما الصبى فقد ظل منطويا على ضغنه الخبئ ، يجلس الساعات الطوال فى ركن من الحجرة وحيدا يحدق فى الفضاء أمامه بعين تائهة حيرى ، وقد يفيق بغتة من غشيته على أثر رجفة تنتظم أوصاله ، إذ يتراءى فى مخيلته الأستاذ شافعى وقد عاجله بضربة على أم رأسه تسقطه مضرجا بدمه . . .

وكم من مرة جمعت بينهما حجرة واحدة . . . الأستاذ شافعى جالس إلى مكتبه وهو عابس ينتفخ ، والصبى متجمع فى ركن قصِىّ يخالس أستاذه النظر ، فكلما تلاقت عيونهما ألفى الفولى نفسه يصرّ بأسنانه صريرا لا يخطئه السمع ، وقد انفرجت شفتاه ، وتحفز للذود عن نفسه وحياطتها من كل مكروه . . .

تواصلت الأيام ، والفولى غريق عناده وكآبته وصمته ، وبدأ الأستاذ شافعى يجد ريح الأزمة المقبلة ، فجن جنونه ، وأقبل على ذكائه يهزه ويعتصره ، ولكن عزّ المعين !

ومرة كان الغريمان على حالها فى حجرة المكتب ، وإذا الأستاذ شافعى ينهض واجف الأوصال من الغضب ، مكفهر الوجه من الغيظ ، وصاح بالفولى قائلا :

— تعال هنا ياولد . . .

فرماه الفولى بنظرة نكراء ، ولم يبد من حراك . . .

فردد الأستاذ شافعى صيحته :

— تعال هنا يا ولد . . . هل خرست ؟

فأشاح الفولى برأسه يأبى الاستجابة للأمر . فخطا إليه الأستاذ شافعى ، فما إن رآه الفولى مقبلا حتى نهض دفعة واحدة ، فزأر الأستاذ شافعى قائلا :

— لماذا لا تطيع أمرى ؟

فهمهم الفولى فى صوت محتدم كظيم ، وقد علت وجهه سحابة كدرة مفزعة :

— هكذا فعلت !

— وإنك لتتوقح فى القول ؟

— هكذا أنا . . . !

فنفرت أوداج الأستاذ شافعى ، وألقى يده تتعالى ، ثم تهبط بصفعة عاصفة ، فاهتز لها كيان الصبى ، ولكنه لم يزل عن موقفه ؛ وكل ما كان منه أن انقلبت عيناه بقعتى دم فائر . . . وهمهم وهو يصر بأسنانه صريراً يكاد يحطمها :

— لا تضرب !

فتحمس الأستاذ شافعى ، وصاح مجلجلا بصوته :

— أضربك وأضرب شياطين أبيك . . .

فتابع الصبى صرير أسنانه ، وجمجم :

— قلت لك لا تضرب . . .

— إنك خارج الآن معى . . .

— كلا . . .

— قلت لك إنك خارج . . .

— لن أخرج !

وارتفعت يد الأستاذ شافعى ، وما كادت تهبط بصفعتها حتى التقت بيد متحجرة جبارة تمسك بها فى قساوة وعنف . . .

وسرعان ما التحم الخصمان ، وكانت معركة حامية الوطيس ، معركة تجرى على الفطرة ، كل خصم يحرص على أن ينال من خصمه جهد ما يستطيع بكل ما أوتى من قوة وشراسة . . .

فكانت الضربات تتهاوى هنا وهنالك ، وكان الخمش والخدش يتناثران ذات اليمين وذات الشمال . . .

وإن أحدهما ليقبض على خصلة شعر خصمه ، فلا ينزع يده إلا وقد اجتثها من أصولها . . .

لقد توارت إنسانية الخصمين ، فلم يبق منهما إلا صورة الحيوانية الباغية الطاغية لا تعرف غير الضراوة والافتراس !

وجرت المعركة لا يسمع فيها إلا هرير الأنفاس ، والارتطام بالحوائط والأثاث ، ووقع اللكمات والضربات . . .

وتدانى الجسدان من الشّرفة ، وسرعان ما اشتبكا فى عراك على سورها ، ثم ألفيا نفسيهما بغتة يسقطان متخبطين فى الهواء . . .

ولم تكد صيحتهما تعلو حتى ذهب بها صوت سقطتهما العنيفة من حالق . . .

فارتمى الجسدان هامدين !

وتجمع حولها السابلة ، وبعد حين تهادى الشرطىّ ، والناس من حوله يصفون له ما وقع فى تضارب واختلاط . . .

فى هذه اللحظة الهوجاء وقعت عين الشرطىّ على شئ أبيض يطل من جيب الأستاذ شافعى ، وكأن هذا الشئ يحاول جهد الامكان أن يفسح له مثابة فى عالم النور ليعلن وجوده فى وضوح . . .

فاجتذبه الشرطى يتعرف ما هو ؟ فاذا هو غلاف كبير مكتوب فى جبينه بالخط العريض :

وثيقة التأمين على الحياة ! . . .

محمود تيمور

نشأة الزراعة وأثرها فى تاريخ الحضارة

طلب إلى أحد العلماء الذين توفروا على دراسة تاريخ الحضارة منذ نشأتها الأولى أن يكتب مؤلفا فى أهم المخترعات والمكتشفات التى كان لها أثر عميق بالغ فى مجرى الحياة والحضارة البشرية ، فبدأ مسودة كتابه – الذى أعرف أنه لم يخرج إلى النور ولم يطبع بعد – بأن سجل أن أهم المخترعات وأخطرها شأنا قد تم منذ بضعة آلاف من السنين على أقل تقدير . وأضاف أن ما نشاهده ونتمتع بنتائجه من الاختراعات الحديثة فى عهدنا الذى نعيش فيه لا يمكن أن تقاس فى خطرها إلى اكتشاف استخدام النار مثلا ، وقد اهتدى إليه الانسان منذ عهد طويل قد يبلغ عشرات قليلة من آلاف السنين ، ولولاه ما استطاع الانسان أن يسخر كثيراً من موارد الطبيعة والحياة ؛ كما لا يمكن أن تقاس إلى استئناس الحيوان أو استنبات النبات ، وقد اهتدى إليهما الانسان منذ سبعة آلاف من السنين أو تزيد ، ولولاها ما استطاع الانساس أن يسخر مملكة الحيوان والنبات . ثم إنها لا يمكن أن تقاس إلى اكتشاف استخدام المعادن كالنحاس والبرونز والحديد ، وقد اهتدى الانسان إليها جميعاً بين الألف الرابعة والألف الثانية قبل الميلاد ، ولولاهما ما سخر الانسان المعدن النافع فى صنع آلاته وأدواته . فاكتشاف عمل النار واستخدامها ، واستئناس الحيوان ، واستنبات النبات ، واستخدام المعدن النافع قد قلبت حياة الانسان وغيرت مجراها تغييراً يكاد يكون تاماً ؛ على حين أن كثيراً من اكتشافاتنا الحديثة كاستخدام البخار أو صنع الصلب بدلا من الحديد ، أو استخدام الألمنيوم أو الكشف عن الكهربا أو غير ذلك ، إنما هى كلها تكييف وتشكيل لبعض ما كان معروفاً ، أو إضافة إلى تراث عريق؛

أو هى بناء فوق أساس قديم ؛ بحيث إننا نستطيع أن نقول إنها لا تمثل « جديداً » بالمعنى الدقيق للكلمة (١).

والذى يعنينا فى هذا المثال إنما هو أن نعرض لاكتشاف واحد من تلك الاكتشافات القديمة ذات الأثر العميق البالغ فى حياة الانسان ، وهو اكتشاف الزراعة أو استنبات النبات . وسنحاول فى هذا المقال أن نستطلع أموراً شتيتة قد يفيد بيانها والجمع بينها فى إبراز قيمة هذا الكشف الخطير ، الذى يزيد من أهميته فى حياة الناس أن الانسان بطبيعته حيوان نباتى فى غذائه ؛ فهو بحكم تكوينه الفسيولوجى وتكوين أسنانه بصفة خاصة إنما خلق ليعيش على الحبوب والجذور والفاكهة وثمار الشجر . فليست أسنانه من النوع « الناهش » المدبب ، كما هى أسنان المفترس من الحيوان وليست هى من النوع « الماضغ » الأملس ، كما هى أسنان المجتر من الحيوان ، الذى يعيش على الحشائش ؛ وإنما هى أسنان وسط تصلح لأن تجرش الحب أكثر مما تصلح لأن تنهش اللحم النيئ أو تمضغ ألياف الحشائش الخضراء . ومهما قيل من أن الانسان قد انقلب بحكم عاداته المكتسبة إلى حيوان مفترس يقتات على لحوم غيره من الحيوان ، فقد بقى النبات بحبه وجذوره وثماره أساس الغذاء البشرى بصفة عامة . ولعل هذا أن يكون السر فى أن اكتشاف استنبات النبات بدلا من مجرد جمعه والتقاط حباته وثماره من الطبيعة يعتبر الاكتشاف الأول من حيث الأهمية فى حياة الانسان .

ولا يعرف على وجه الدقة متى ولا كيف بدأ الانسان يستنبت النبات . ولكن المعروف أنه قد درج فى أول الأمر على الجمع والالتقاط ؛ واكتفى بذلك ردحا طويلا جدا من الزمان ، ليس لنا أن نقدر طوله الآن ، ويكفينا منه أن نشير إلى أن حياة الانسان فى هذا الطور الطويل كانت حياة « هدّامة » ؛ فهو كان يعيش على حساب استغلال الطبيعة استغلالا سلبيا من جهة ، والاعتماد على ما تجود به دون محاولة الاكثار من ثمراتها أو استدرار خيراتها

---

(١) قد لاينطبق هذا على اكتشاف تحطيم الذرة واستخدام طاقتها . وليس ذلك لأن استخدام الطاقة أمر جديد فى حد ذاته ، ولكن لأن تحطيم الذرة سيفتح آفاقا جديدة أمام الانسان فى استخدام مقادير هائلة من قوى الطبيعة ، لا تكاد تشملها حدود .

من جهة أخرى . أما بعد أن اهتدى إلى الاستنبات فقد صار الانسان عوناً للطبيعة بعد أن كان حرباً عليها ؛ واختلفت حياة الانسان عن حياة الحيوان الذى يسعى فى الأرض ويأكل الثمرات . والمعروف — أو الذى تواضع عليه العلماء الآن — أن تحول الانسان هذا التحول الخطير إنما حدث فى أوائل العهد الذى يعرف باسم العهد الحجرى الحديث ، وكان ذلك فى أوقات مختلفة فى مختلف الأماكن ؛ فالتحول لم يحدث فى وقت واحد فى كل مكان . ومع ذلك فمن المرجح أن يكون ذلك قد حدث فى أواخر الألف السادسة قبل الميلاد ، بحسب ما تدل عليه القرائن الأثرية فى مصر وبلدان الشرق القريب . ثم انتشر فن الزراعة والاستنبات إلى بلدان أخرى فى حوض البحر المتوسط وفى أواسط آسيا وشرقها خلال القرون أو الآلاف اللاحقة . ومن الجائز أن يكون استنبات بعض النباتات كالأرز قد نشأ فى جنوب آسيا الشرقى مستقلا عن استنبات القمح والشعير فى الشرق القريب وعند مجمع آسيا الغربية بأفريقية الشرقية ، كما أن من المعروف أيضاً أن استنبات الذرة الغليظة قد بدأ مستقلا فى أمريكا الشمالية .

أما كيف بدأ الاستنبات فى حد ذاته ، وكيف اهتدى الانسان إليه فالآراء كثيرة متضاربة ، وهى أقرب إلى الفروض والنظريات منها إلى الوقائع المحققة . ومن الباحثين من يرى أن الانسان قد اهتدى إلى الزراعة أول الأمر بعد أن آمن بالبعث واليوم الآخر ، فقدم القرابين للموتى ، ودفن مع الأجساد فى المقابر كميات من الحبوب تسعف الميت يوم النشور بزاد يقيه الجوع ساعة يهب من رقاده الطويل ، فجاء ماء المطر وتسرب إلى المقابر فأنبت الحب ، وخرج النبات بين حفر المقابر ؛ فتعلم الانسان من ذلك كيف يكفر الحب فى الأرض ليخرج زرعاً جديداً يمده بمحصول مضاعف من الحبات والثمرات . ومن الباحثين من يرى فى هذه النظرية تفسيراً متكلفاً ؛ ويفضل عليها أن يفترض أن يكون الانسان قد جمع الحب فى موسم نضجه من حقول الطبيعة ، حيث تنمو النباتات بطبيعتها نمواً بريا أو وحشيا . حتى إذا ما جمع الحب كان أكثر مما يستطيع أن يقتات به فى وقت قصير ؛ فاحتفظ به فى كوخه حيث كانت الحبات معرضة لأن تتناثر حول الكوخ وعلى الأرض بين حين وحين ؛ حتى إذا ما ابتلت الأرض فى وقت مناسب للانبات خرج النبات

الأخضر من الحبات ، وشاهد الانسان نموه حتى أدرك أن النبت إنما يخرج من الحب ، ثم يستوى زرعاً طيباً تتوجه السنابل والحبات التى يضاعف الله بها الرزق للناس . وبذلك لم يكن عسيراً على الانسان أن يهتدى إلى أن يبذر الحب على الأرض أول الأمر ، ثم يكفره فى ثراها بعد ذلك ؛ فكانت نشأة الزراعة بمعناها المعروف .

وهناك فروض ونظريات أخرى يدور معظمها حول تعليل نشأة الزراعة ، ولكنها لا تعدو أن تكون مجرد آراء . وقد يكون أولى بنا ألا نفترض أن يكون فن الزراعة قد نشأ على أنه « اختراع » أو « اكتشاف » تم دفعة واحدة . فقد رأينا فى مقال سابق (١) أن من الجائز أن تكون زراعة المحاصيل الشتوية — لا سيما الشعير — قد نشأت فى بلد كمصر نشأة طبيعية تدريجية ؛ فالنيل يعلو ويغمر جوانبه فى أواخر الصيف وأوائل الخريف ؛ ثم ينحسر عنها فى وقت ملائم جداً لانبات الشعير والقمح وما إليهما من محاصيل الشتاء . ومن اليسير أن تذرو الرياح لدى انحسار الماء بعض البذور من حافة الوادى إلى تربته التى غزاها النيل بغرينـه ومائه وأعدها أطيب إعداد للانبات والانماء ، فيخرج النبت الجديد ويتغذى من ثرى الأرض الطيب حتى تقبل أمطار الشتاء فتغذيه حتى نهاية موسم الانبات والنمو وحلول فصل الحصاد فى أواخر الربيع . ولا يبعد أن تكون القبائل المنتشرة على حافة الوادى فى ذلك الوقت قد راقبت هذه الدورة الطبيعية عاماً بعد عام ، فاهتدت عن طريق المشاهدة إلى أن تقلد الطبيعة ، أو أن تكمل عملها وتحسنه على الأقل ؛ فكان الانسان فى أول الأمر يحرس حقول الشعير البرى مثلا بعد أن تنبت برية وحشية ، فيمنع عنها أذى الحيوان والطير ، حتى يتم الحصاد . ومن يدرى ! فقد تكون قد سرت على هذا النمو مرحلة من مراحل نشأة الزراعة بطريقة يتعاون فيها الانسان مع الطبيعة فيكمل عملها ويبنى عليه ، حتى تعلم الزراعة الصحيحة ، وغرس الحب وتولى استنباته ورعايته آخر الأمر ؛ وبذلك صار زارعا بالمعنى الكامل الصحيح .

وإذا نحن قبلنا هذا التصوير الأخير لنشأة الزراعة فى بلد كمصر ، فقد

---

(١) « الكاتب المصرى » عدد ٢٧ (ديسمبر ١٩٤٧) .

لا تبقى بنا حاجة إلى أن نتخيل ماحدث على نحو ما تصوره لنا النظريات السابقة . وقد يكون مقبولا أن نتصور أن تكون الزراعة قد نشأت فى مواطن معينة من العالم ، لأن البيئة الطبيعية كانت أكثر صلاحية فى تلك المواطن ، ومع ذلك فان من المهم لنا أن نفرق منذ الآن بين نوعين من الزراعة كان لكل منهما أثره الخاص فى حياة الانسان وتطور مدنيته وحضارته . فأما النوع الأول فهو فطرى بسيط لم يزد فيه الانسان على أن ينقر حفرة صغيرة فى الأرض بوساطة فأس حجرية أو عصا خاصة ، ثم يضع الحب ويكفره فى التراب ، فيأتى المطر ويسقيه حتى يتم نموه ويستوى على سوقه ، فيحصده الزارعون . ومثل هذا النوع من الزراعة لم يرتفع كثيراً بأهله ؛ فهو لم يعلم أصحابه التضامن والتعاون فى أداء مهنتهم ؛ وهو قد مكن لكل زارع أن يزرع بمفرده ولنفسه ، أو أن يكتفى فى حرفته بأن يستعين بأسرته الصغيرة دون حاجة إلى الارتباط بمجتمع كبير . وبذلك بقيت الجماعات التى اشتغلت بهذه الزراعة الفطرية مفككة ، لا يربط بين أفرادها تضامن أو تكافل اجتماعى أو إدارى ، من ذلك النوع الذى يميز الحياة المتحضرة ، والتى تتداخل فيها المصالح وتشترك الغايات وتتشابك الوسائل . فضلا عن أن هذا النوع الفطرى من الزراعة لا يحتم على صاحبه أن يرتبط ببقعة معينة من الأرض ، وإنما هو يحدوه إلى أن يفضل الانتقال فى كل عام أو عامين إلى بقعة جديدة لم ينهك خصبها الانماء . وبذلك لا يعتاد الزارع حياة الاستقرار التى هى ضرورية لنشأة الحياة الثابتة والمدنية المستقرة .

أما النوع الآخر من الزراعة فهو الذى يعرف بالزراعة الراقية ، حيث يعتمد الزارع على الأدوات والآلات كالمحراث وغيره ، مما يستلزم قيام حرف إضافية غير الزراعة ، أو أدوات الرى ووسائله التى تستلزم قيام فن الهندسة وشق الترع والقنوات بدلا من الاعتماد على المطر فى رى النبات . وهذا النوع الراقى من الزراعة يستلزم جهداً مضاعفاً من صاحبه ، ويستلزم أن تتعاون فنون وحرف مختلفة تتشعب معها الحياة فى المجتمع ويتنوع النشاط وتتكاثر المصالح ويصعب فيه على الزارع أن يعمل فى الحياة بمفرده أو أن يكتفى بالاستعانة بأفراد أسرته الصغيرة . بل إن هذا النوع الراقى من الزراعة هو دون الزراعة الفطرية أساس المدنية الزراعية بمعناها التاريخى المعروف . وهو الذى سمح

فى بلد كمصر أن تصبح الزراعة أساساً صالحاً لحياة مستقرة مثمرة ، هى التى قامت عليها تلك المدنية العريقة التى عاصرت التاريخ وارتفعت بالمجتمع المصرى درجات رفيعة من الحياة والمدنية والحضارة .

ومع ذلك فقد يكون من المفيد أن نخلص من هذه الدراسة العامة لنشأة الزراعة وألوانها المختلفة إلى تقصى بعض نتائجها الظاهرة فى حياة المجتمع البشرى وحضارته ؛ تلك النتائج التى لم تقتصر على مصر ومثيلاتها من البلدان ذات المدنية الزراعية المستقرة القديمة ، وإنما هى قد شملت أغلب الانسانية فى بقاع كثيرة من الأرض . ولعلنا أن نجد فى تعدادها وتحديد دلالات كل منها بعض ما ينفع فى الكشف عن قيمة « الزراعة » كقوم أساسى من مقومات الحياة الانسانية والحضارة البشرية بوجه عام .

وأول ما ترتب على الزراعة بصفة عامة أنها علمت الانسان أن يكون بنَّاء فى الطبيعة بعد أن كان هداماً فى عهد الجمع والالتقاط ، مثلها فى ذلك مثل استئناس الحيوان ورعيه ؛ فقد علما الانسان أن يعاون الطبيعة على أن تتوالد وتتكاثر بدلا من أن يقتنص حيوانها اقتناصاً كان لابد أن ينتهى إلى الفناء والانقراض . وقد ترتب على تحول الانسان نحو الحياة الانتاجية أن أصبح عوناً للطبيعة ، فضاعفت الطبيعة أجره ، وأخرج الله من كل حبة غرسها سنبلة أو سنابل ، فى كل سنبلة حبات كثيرة فيها من الرزق ما ييسر أسباب الحياة . وقد أدى ذلك إلى توافر الخيرات ، فتكاثر الناس وتضاعف السكان ، لا سيما فى الجهات التى تتيسر فيها الزراعة أو تجود . وكان هذا عاملا خطيراً فى عمران سطح الأرض ، وفى إمكان انتشار الانسان إلى جهات مختلفة ما كان له أن يعمرها لولا معرفته للزراعة والاستنبات . فاذا ما ذكرنا أن امتداد سلطان الانسان على وجه البسيطة ، بل إن قيام المدنية فى حد ذاته يستلزم توافر حد أدنى من السكان ، سهل علينا أن نتصور أنه لولا ظهور الزراعة ، وتوافر الأقوات والأرزاق نتيجة لذلك ، ما قامت لبنى الانسان دولة فى هذه الأرض التى تجود بالخير على العاملين .

ومع ذلك فلم يقتصر خير الزراعة على زيادة الرزق وتوافره ؛ وإنما هى كانت وسيلة « مضمونة » من وسائل العيش ، أو هى فى القليل كانت أكثر ضماناً من جمع الحبوب والتقاط الثمرات من النباتات والأشجار البرية والوحشية .

فالانسان فى عهود الجمع والالتقاط ، أو حتى فى عهد الصيد والقنص ، إنما كان يعيش من يوم ليوم ، أو من فترة قصيرة إلى فترة قصيرة على كل حال. فحياته كانت كلها خوف ، والجوع كان يتهدده ويتعقبه فى المكان والزمان . ولا بد لنا من أن نسلم بأن الخائف لايمكن أن تقوم على يديه مدنية ؛ وأن الذى يتهدده الجوع لا يمكن أن يكون له فكر مثمر أو روح مستقر . بل إن الحياة الفكرية ذاتها لا يمكن أن تنشأ أو تنمو إلا إذا توافرت للانسان الطمأنينة والأمان ، بل ذلك الشئ الذى نسميه « وقت الفراغ » . . . لا سيما هذا الأخير ، فهو الذى يتحرك فيه الفكر ويسبح فى آفاقه ، وهو الذى ينزع فيه الروح إلى مجال بعيد عن حياة الجسد ، بل هو الذى تعمل فيه العقول حرة طليقة من حاجات البطون . . . وتلك كلها مقومات أولية فى الحياة المتحضرة التى يجمع فيها الانسان إلى حياة المادة حياة الفكر والروح والعقل . ولعلنا أن نتبين ذلك واضحاً جليا حين نقارن بين حياة الزارعين القدماء وحضارتهم من جهة ، وحياة من سبقهم من جماعات الالتقاط والجمع والصيد من جهة أخرى .

وأثر آخر من آثار نشأة الزراعة ، لا سيما النوع الراقى منها ، أن الحياة المستقرة قد استلزمت قيام عدد آخر من الحرف والصناعات بل والعلوم المكملة للزراعة . من ذلك عمل الآلات الزراعية كالفأس والمحراث وآلات الحصد وغيرها ، أو أدوات الرى ، أو أوانى الفخار وغيرها حيث تحفظ حبوب المحصول من موسم لموسم ، أو غير ذلك من الصناعات الزراعية البسيطة التى استلزمها بالضرورة ظهور المحصول دفعة واحدة وفى موسم واحد ، وحاجة السكان إلى اختزانه والاحتفاظ به صالحاً للاستهلاك خلال بقية العام . وكل ذلك وغيره من نشأة علوم الرياضة الفلكية لحساب مواسم الزراعة والحصاد وعمل التقاويم الزراعية وتحديد الفصول قد أدى بالتدريج إلى ظهور فئات مختلفة من ذوى الحرف فى المجتمع ، وإلى زيادة ارتباط تلك الفئات بعضها ببعض ، واشتباك المصالح بين أصحاب الحرف والصناعات والعلوم والفنون من الزارعين وغيرهم. فضلا عن أن توافر المحاصيل والتوسع فى الزراعة قد انتهيا آخر الأمر إلى أن أصبح الزارع ينتج من المحاصيل ، أو من بعضها على الأقل ، أكثر مما يستطيع أن يستهلك . فنشأت فكرة التبادل ، وتداخلت الزراعة فى التجارة كما تداخلت

فى الصناعة من قبل . وذلك ولاشك أساس هام من الأسس التى قامت عليها الحياة والمدنية فى مختلف العصور .

ومع ازدياد التعقيد فى حياة الزارعين ومن خالطهم من ذوى الحرف الأخرى ازدادت الحاجة إلى النظام فى الحكم والادارة ، ونزع الزارعون أنفسهم ، وبحكم حياتهم المستقرة ، إلى الدعه والاستكانة ، وهما ضرورتان من ضرورات الحكم الثابت المستقر . فامتازت حياة الجماعات الزراعية القديمة — والحديثة إلى حدما — بألوان ثابتة ، أو قليلة التغير من الحكم والادارة ، استمر بعضها قائما على الزمن آلافا عدة من السنين ، نستطيع أن نلمح آثارا منها فى حياة القرية المصرية الحالية أو القرية الصينية على سبيل المثال . ولعل هذا أن يكون هو السر فى أن أقدم « الحكومات » انما هى تلك التى نشأت بين جماعات الزراع .

ولكن الاستقرار فى الأرض واستتباب الأمن والحكومة قد يسرا من جانبهما نشأة نظام الملكية ، وتملك الزارع لقطعة معينة من الأرض يحفظها له القانون ، ثم تمسك المجموعة الكبرى من الزارعين باقليم معين يحفظ عليهم تعاونهم الشامل وحكومتهم الموحدة الدائمة . وبذلك كله نشأت فكرة « الوطن » وكان الزارعون أكثر تعصبا لها واستمساكا بها من غيرهم من ذوى الحرف الأخرى ، بما فى ذلك الرعاة فى مراعيهم . فالراعى إذ يتمسك بمرعى إبله إنما يحتفظ فى الوقت ذاته بالقبيلة كوحدة للمجتمع . وإذا انتقلت القبيلة من جهة إلى أخرى أو هى هاجرت ، فانها تحتفظ بوحدتها ولا تأنف أن تستبدل بمرعاها مرعى آخر ؛ بل هى فى الحقيقة دائبة العمل ولو بطريقة غير محسوسة ، لأن تتوسع وتتنقل ؛ لأن القاعدة فى حياتها هى الحركة لا الثبات . أما الزارعون فان الوحدة « الاقليمية » عندهم تقابل الوحدة « القبلية » عند الرعاة ، والوطن الثابت عند الزارعين معقد الأمل . وكلما استمرت جهود جماعة من الزراع فى بقعة معينة من الأرض ازداد تعلقهم بها ، وتضاءلت رغبتهم فى النزوح عنها ؛ لا سيما إذا كانت الزراعة من النوع الراقى الذى يحتاج إلى الرى وشق الترع والقنوات وإقامة المشروعات والقرى الزراعية الثابتة . لذلك كله كانت فكرة الوطن والوطنية أقرب إلى حياة الزارعين منها إلى حياة غيرهم من الرعاة ، أو بالطبع من الصيادين أو الذين يحترفون الجمع

والالتقاط . فاذا نحن ذكرنا أن الحضارة الراسخة والمدنية المستقرة قد ارتبطتا منذ البداءة بفكرة الوطن والمكان الذى تتركز فيه الجهود ويثمر العمل الدائب ، حق لنا أن نشيد بفضل الزراعة فى نشأة المدنية والحضارة بوجه عام .

ولقد كانت أراضى الزراع فى كل عصر مطمعاً لغيرهم من العناصر المجاورة لا سيما الرعاة ؛ فكانت غزوات كثيرة متلاحقة يذكرها التاريخ فى الشرق الأدنى وشرق آسيا وغيرها من مواطن المدنية والاستقرار . وكان ذلك فى حد ذاته مبعثاً لألوان جديدة من احتكاك فئات البشر بعضهم ببعض ، ذلك الاحتكاك الذى لم يخل من أن تسيل فيه دماء ، أو أن يحل بسببه خراب ودمار ، ولكنه كان فى جملته خيراً للانسانية ؛ فقد انتهى فى أغلب الأحيان بأن استوعب الزراع غزاتهم من الرعاة ، وعلموهم كيف يكونون بناة جديدين لألوان جديدة من المدنية ، ما كان الرعاة ليحققوا شيئاً منها لو أنهم بقوا فى مراعيهم . فكأن الزراع وإن رغبوا عن الرحلة والانتقال ونشر مدنياتهم فى أقاصى الأرض ، فقد جادوا بها وعلموها غيرهم من الغزاة والرعاة جيلا بعد جيل .

ومع ذلك فان فضل الزراعة والزارعين على الانسانية أعمق من ذلك . فالمجتمع الزراعى كان أبرز مجتمع ظهر فيه نظام الأسرة كأساس لحياة الجماعة . وهو الأساس الذى مهما تشكلت ألوان المدنية والثقافة والحضارة العامة فانه لا يزال باقياً ، وسيبقى فى صورة من الصور مادام هناك إنسان يعمر الأرض . بل إن الزراعة كانت بحكم نشأتها أول حرفة تعاون فيها أفراد المجتمع تعاوناً صادقا شاملا فى عمل واحد . ففى حرفة الصيد مثلا كان العمل الحقيقى يتولاه الشبان والرجال الأقوياء القادرون على مطاردة الصيد ومغالبته ، أما النساء والشيوخ والأطفال فلا يعملون كثيراً ، ولا يعاونون بقدر ما يعالون . وفى حرفة الرعى كان الرجل يقوم بالعمل الأساسى المنتج دون المرأة . وفى حرفة الجمع والالتقاط كان النساء والأطفال يعملون أكثر مما يعمل الرجال . ولكن حرفة الزراعة فتحت باب العمل أمام الجميع لا سيما النساء ، وهن فريق غالب من بنى الانسان (!) ، بل هن فئة غالبة كانت معطلة النشاط — إلى حد بعيد أو قريب — فى حياة الصيادين بل فى حياة بعض الرعاة القدماء .

حتى إذا ما جاءت الزراعة فتحت آفاقا جديدة أمامهن ، إلى حد أن بعض الباحثين يرون أن المرأة هى التى اهتدت إلى اكتشاف الزراعة واستنبات النبات قبل الرجل ، وكانت هى العامل الأول فى الزراعة فى أطوارها القديمة ، كما بقيت عاملا هاما فى الزراعة حتى وقتنا هذا .

من هذه الخلاصة لما ترتب على نشأة الزراعة من آثار فى حياة البشر وحضارتهم ، نستطيع أن ندرك قيمة هذه الحرفة القديمة ، ونستطيع أن نقيس ما كان من فضل لتلك الجماعات العريقة التى اهتدت إلى استنبات النبات والزراعة واشتغلت بهما منذ أقدم العصور ؛ ومنها مصر وكثير من أمم الشرق القديم فى غرب آسيا وشرقها على السواء . . . تلك الجماعات التى سبقت إلى الانسانية بفضل كبير لا نزال نعيش فى أكنافه ونجنى ثماره وخيراته حتى الآن . . . ولعلنا أن نزيد هذا الفضل جلاء ووضوحاً إذ نتصور أن الانسانية الحديثة قد ارتدت عن معرفتها بالزراعة والاستنبات ؛ فساقها مثل هذا الارتداد إلى مجاهل الماضى السحيق ، وقطع على جماعاتها المتكاثرة سبيل الحياة ! ولئن كان ما سبقت به أممنا وجماعاتنا القديمة إلى الانسانية قد حدا بصاحبنا العالم الذي ورد ذكره فى صدر هذا المقال إلى أن يعترف بالفضل لذويه ، فيقول إن أخطر المكتشفات فى تاريخ البشر قد تم أمره — على أيدى أناس من الشرق — منذ بضعة آلاف من السنين على أقل تقدير . . . فما أحرى هذا الفضل ، إن نحن درسناه وكشفنا عن آثاره الظاهرة والخفية ، أن يكون مصدر اعتزاز وإيحاء لنا ، نحن أبناء أولئك الزارعين القدماء ، الذين فتح الله عن طريقهم باب الخير للانسانية ، وبارك فى أعمالهم ، فاتخذ من صورة جهادهم الطيب ومن ثمرة جهدهم المبارك فى الزراعة والاستنبات مثله الكريم حين تحدث عن أقرب الناس إليه ممن ينفقون أموالهم فى سبيله فقال: « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم . »

سليمان حزين

حُلمٌ بالسعادة

فؤادى ، فؤادى ! قد ذوى عُودىَ النَّضْرُ
حسبُكَ ، لا تفتنك بيضٌ ولا سُمْرُ

فؤادىَ لا تفتنك بيضاءُ بضّةٌ
طهورٌ كأفروديت أطلعها البحر

مزاجٌ من الجنسين غربٌ ومشرقٌ
تجمّع فيها منهما العقلُ والسحر

فؤادى لا تُسلس عنانك للهوى
وأمْسِكْ ، فقد أمسيتَ ، وانفرط العمر

فؤادىَ ، واذكر زوجةً لك فى الثرى
دعتك طَوال النزع ما غبّها الذكر

فؤادىَ ما قولى إذا ما لقيتُها
على العُدوة الأخرى وقد ضمّنا الحشر

أرى الدمع يغشى ناظرىّ فترعوى
فإن غاض نزّى من لواعجك الصدر (١)

---

(١) نزّى كنزى : وثب وغلا .

طمعتَ – فؤادى – أنْ تَبرمتُ بوَحشتى
وأغراكَ منى ذلك المدُّ والجزر
فجلّيتَ فى عينى فتاتَك جَلوةً
يخفّ لها حلمى وينخذل الصبر
وزيّنت لى فيها شمائلَ زوجتى
ليسكن تبكيتى وينفسح العذر
فؤادىَ لم يرحم هواك كهولتى
ولم يكترث للشيب حلَّ به الشَّعر
ولم يرعَ حقاً للوفاء نذرتَه
ولا حرمةً للحزن فاض به الشّعر
فأسْعَر فى عُودى المصوّح صبوةً
وعودُ الغَضَى إن جفّ ألعجه السَّعْر
أعالجها بالكبر طوراً وبالشجى
فلم يغننى شجوى ولم يغننىْ الكبر
وقد كاد هذا الأرمل التَّعْس مرغماً
يعاوده أنسُ الصبابة والبشر (١)
ويعمر بالزوج الأليفة بيتُه
ويَعْمُر بالطير المناغية الوكر
وبتُّ على النجوى ؛ وفى بعض ساعةٍ
تبدّلت الأحوال وانحسم الأمر

(١) التعس وصف بالمصدر .

فلا هى ترضانى ، ولا أنا مقبلٌ
عليها كعهدى ، دون أن يُعْلم السرّ
وظَنّىَ أنْ قد قام بينى وبينها
خيالكِ يا زوجى ، فكان لكِ النصر
فقَرّى ، سأبقى خالياً متوحّداً
بقبرٍ من الإيحاش ما ضمّك القبر

عبد الرحمن صدقى

العتابى

نحن اليوم تلقاء شاعر من أكبر شعراء القرن الثانى وأرفعهم مكانة وأظهرهم شخصية وأبلغهم أثراً فى الحياة الأدبية ، و إن كان يختلف فى كثير عن الجمهور الأعظم منهم . فهو شاعر عربى صميم ، من أسرة عربية عريقة فى تمثيل الخصائص العربية وفى قول الشعر معا . وقد نشأ وتربى وتكونت شاعريته واستقامت له طريقته فى قول الشعر وصلب عوده فيه فى بيئة عربية أدنى الى البداوة ، بعيداً عن تلك البيئات المعهودة فى البصرة والكوفة وبغداد . ثم هو كان مع هذه النشأة البدوية ، وهذا البعد عن تلك البيئات التى كانت تمد شعراء ذلك العصر بمقومات أدبهم ، وتدفع بهم قدما نحو التجديد فى شعرهم ، شاعرا أدنى الى التجديد منه الى التقليد ، وأقرب الى مسايرة روح العصر فى اصطناع أساليب التعبير الفنى والفعلى . فهو إمام من أئمة البديع ، بالمعنى الذى كان يطلق عليه فى القرن الثانى والثالث ، وأستاذ من أساتذة الفن الشعرى : ينسج الشعراء على منواله ، و يسلكون سبيله ، و يجدون فى طريقته وأسلوب صياغته ومذهبه فى التوفيق بين الديباجة العربية والنزعة التجديدية ما يفتنهم و يقف بهم عليه و يغريهم بتتبعه وتعرف منزعه . ثم هو بعد ذلك كله لم يكن يقف عند الشعر فى التعبير عن تلك النفس الفنية التى يحملها بين جنبيه ؛ فقد دفعت به روح العصر الى ما وراء تلك الحدود التى كان معاصروه من الشعراء ما يزالون محصورين فيها ، لا يكادون يتجاوزونها ، فجعل يصطنع النثر فى التعبير الفنى كما كان يصطنع الشعر ، وكان يصطنع النثر فى صورتيه ، فكان خطيباً مذكوراً فى الخطباء الظاهرين ، كما كان كاتبا تعتبر رسائله من النماذج البليغة الممتازة ، دقة فى المعنى واحتفاظا بالروح العربية وصفاتها المميزة للأسلوب العربى كما كان يتصور فى ذلك العصر . ثم كان مع هذا كله معدودا من أئمة النقد الفنى القائم على الذوق والدرس فى تلك الفترة ،

يلتمس العلماء رأيه بين ذلك الخليط من الآراء الصادرة من هنا وهنا ، ويقدرونه ويعرفون خطره ، ويستشهدون به فى موضع الاستشهاد

وإذن فقد كان العتابى مثالا رائعاً من هذه الشخصيات التى نبغت فى القرن الثانى ، واستطاعت أن تتمثل العوامل المختلفة التى تجمعت فى ذلك العصر ؛ إذ وجدت هذه العوامل فيهم القوى التى تستطيع أن تبرز بها وتظهر فيها ، حتى تنتهى إلى غايتها المقدورة فى تكوين العقل الاسلامى والحضارة العربية . وكان أحد أولئك الرواد الذين تمتاز بهم هذه المرحلة الانتقالية البعيدة الخطر فى تاريخنا الأدبى والعقلى جميعاً ، والذين اضطلعوا بشق السبل التى تهيئ لذلك التطور أن يحقق مظاهره المختلفة . ومع هذه المنزلة المتعددة النواحى لم يكد يظفر بشئ مما ينبغى لمثله من تجلية شخصيته وتبين أثره ، إلا هذه الأثارات القليلة الضئيلة المقتضبة ، تشير إليه ثم تقف ، وتنبه تنبيها خفيفاً عابراً إلى خطورة مكانه فى تاريخنا الأدبى ثم تمضى عنه ، حتى ذهب الرجل مغموراً أو كالمغمور ، لا يكاد أحد من رجال الأدب المعاصرين يعنى به أو يقف عنده ، بالرغم مما قدمنا .

وسنحاول فى هذا الفصل أن نقدم صورة لحياته ، قدر ما تأذن لنا مصادرنا القليلة المقتضبة ، وآثاره النزرة المشتتة المضطربة ، ثم قدر ما يحتمل مثل هذا الفصل .

والعتابى شاعر جزرى الأسرة والمولد والمربى ، ولد فى الجزيرة ونشأ بها واستكمل مقومات شخصيته فيها . والجزيرة إذا أطلقت فانما يعنى بها جزيرة أقور ، كما كان يسميها جغرافيو العرب المتقدمون ، أو ميزوبوتاميا كما كان يسميها الرومان ، ويعنون بها الجزء الأعلى من وادى دجلة والفرات ، بين العراق والشام وبلاد الروم وأرمينية وأذربيجان .

وليس بنا فى هذا الفصل أن نعرض لخصائصها الاقليمية وما يتبع ذلك من العوامل المختلفة التى كونت لها شخصيتها الخاصة بها ، وطبعتها بذلك الطابع الأصيل المسيطر عليها ، وما يصدر عنها من نزعات كان لها — ولا ريب — أثرها فى تكوين آثارها الفنية وتوجيهها ؛ فذلك — على ضرورته — مما لا يحتمله هذا الفصل ، إذ كان من أشد الدراسات تعقيداً وأكثرها تشعباً وأبعدها

غاية . ثم هو من أوثق الدراسات صلة بتاريخنا الأدبى ، وأجدرها أن يفرغ بعض الباحثين له ، ويقتسموا أطرافه ؛ إذ كانت هذه المنطقة من أقدم المناطق التى هاجر إليها العرب واتخذوها موطناً لهم ، فتأثروا بها وتأثرت بهم . فما لا يكاد يحتمل الريب أنه كان لهؤلاء العرب أثر غير قليل فى بعض وجوه حياتها السياسية والاجتماعية ، كما استطاعوا منذ ذلك العهد أن يكون لهم فيها أدبهم العربى الخالص يصور ألوان حياتهم وصنوف مشاعرهم وما كان يشجر بينهم ، ثم ما كان يثور بينهم وبين أصحاب السلطان من محادة ومخاصمة لا تلبث حتى تغمر الجو مظاهرها المادية والأدبية معاً ، على النحو الذى نستطيع أن نرى أطرافاً منه فيما بين أيدينا من بعض الشعر والخبر .

وإذا كان النشاط الأدبى مظهراً لا يكاد يتخلف من أقوى مظاهر الخصومات أو النشاط الحربى فى مثل تلك البيئات ، فاننا نستطيع أن نعرف إلى أى حد بلغ هذا النشاط فى الجزيرة إذا عرفنا مبلغ ما كانت تمتاز به من حياة العرب فيها بعد الاسلام من نشاط حربى لا يفتر ، وثورة على السلطان دائمة متصلة . ولعل ذلك انما كان استمراراً لما كان يمتاز به هذا الاقليم قبل الاسلام من هذه الناحية ، ثم لهذه الصفات العربية البدوية المتأبية على النظم والقيود . وقد عاش العرب فى الجزيرة محتفظين بالطابع البدوى لهم حريصين عليه ، بالرغم من مظاهر الحضارة العريقة فيها ، حتى أمكن أن يقال مثلا عن أعشى تغلب — كما يحكى صاحب الأغانى — أنه « كان من ساكنى الشام إذا حضر ، فاذا بدا نزل فى ديار قومه بالموصل » . وكأنما وجدت قبائل العرب فى ظروف الجزيرة قبل الاسلام ما يغذى فيهم نزعاتهم البدوية ، ويذكى فيهم الرغبة فى القتال ؛ إذ كان موقعها بين الامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومانية مما جعلها موضعاً للمنافسة بينهما ، وميداناً من أبرز ميادين النشاط العسكرى تظهر فيه الخصومة بينهما حادة دائبة عنيفة .

فكما كانت الجزيرة مركزاً من أهم مراكز النشاط الحربى قبل الاسلام فيما كان بين الفرس والروم ، كذلك كان لها هذا الطابع بعد الاسلام . ولعله لايغيب عنا أن سهول صفّين التى دارت الحرب فيها بين على ومعاوية إنما تقع على حاشيتها بينها وبين الشام ، وأنه قبل أن يلتقى الفريقان فى تلك المعركة بصفين كانت المعركة ناشبة بين أنصار علىّ وأنصار معاوية فى قلب

الجزيرة نفسها ، فى مرج سرينا بين الرقة وحران . كذلك كانت تعتبر من أنشط الميادين التى تجلت فيها الخصومة على أشدها وفى أعنف صورها بين القيسية واليمانية ، ثم بين المضرية والربعية ، فى أيام فتنة ابن الزبير . وما هذه المواقع التى تذكر بها وقائع الحرب بين الفريقين وتنسب إليها ، كماكسين والثرثار والحشاك والحضر والبليخ والسكير والكحيل والمبارك وقرقيسيا ، إلا أسماء أمكنة تقع فى شتى أنحاء الجزيرة حيث نشبت هذه المعارك التى كان لها مظهرها الأدبى فى شعر شعراء هذه الفترة من هؤلاء وهؤلاء ، كالأخطل والقطامى وعمرو بن الاهتم وعمير بن الحباب .

ويطول بنا القول لو أننا تتبعنا تاريخ هذا النشاط الحربى ومظاهره فى الجزيرة . ولكنا لا نملك إغفال الاشارة إلى مبلغ ما ساهمت به هذه المنطقة فى تلك الحروب والثورات التى جعل الخوارج يشنونها على الدولة ، فى عهد بنى أمية وعهد بنى العباس ، ونحن نعرف بعدُ مبلغ النشاط الأدبى الذى كانت تثيره هذه الحروب والثورات خاصة . وما هذه الثورات التى كان يقودها سعيد ابن بهدل والضحاك بن قيس وشيبان بن عبد العزيز اليشكرى والملبد بن حرملة والوليد بن طريف وخراشة الشيبانى إلا ثورات جزرية ، نشبت فى الجزيرة وقامت بأهلها . وقد ظلت متصلة لا تخمد واحدة حتى تشتعل أخرى ، ثم لا تلبث حتى يمتد أوارها إلى ما وراءها . ولا ريب أن لهذا دلالته القوية على ما قدمنا الاشارة إليه من احتفاظ العرب الذين استوطنوا الجزيرة بخصائصهم البدوية .

فى هذه البيئة البدوية ، ومن بين هؤلاء القوم ، خرج شاعرنا العتابى كلثوم بن عمرو ، من أسرة يتصل نسبها بعمرو بن كلثوم صاحب المعلقة المشهورة ، كما تتصل إقامتها فى الجزيرة إلى ما قبل ذلك العهد الذى كان يعيش فيه ذلك الشاعر الجاهلى الكبير .

ولم يصل إلينا شئ عن نشأة العتابى الأولى نستطيع أن نتمثله به ، فنعرف على أى شئ تفتحت مشاعره ، وبأى أنواع الثقافات أخذ نفسه أو أخذه ذووه أو وجهته الملابسات والظروف ؛ فذلك ما لا قبل لنا بمعرفته معرفة تبعث على الطمأنينة العلمية . لقد كان مولده ونشأته فى تلك المنطقة التى تشبه أن تكون

منعزلة ، والبعيدة عن مركز النشاط العلمى والأدبى ، مما أضاف عاملا جديداً من عوامل الغموض الذى يحيط بنشأة أمثاله . على أنه قد بقى لدينا خبر من أخبار حداثته لعلنا نستطيع أن نتشبث به ، ونرى فيه ما يدلنا على الاتجاه الغالب عليه فى بدايته الشعرية . فقد قالوا إنه جاء بشاراً وهو حدث بعد ، فأنشده أبياتاً له وقعت من بشار — فيما يقولون — موقع الاعجاب ، وهى قوله :

أتصرف عن أمامة أم تقيم   وعهدك بالصبا عهد قديم
أقول لمستطار القلب عفّى   على عزماته السير العزيم
أما يكفيك أن دموع عينى   شآبيب تفيض بها الهموم
أشيم فلا أرد الطرف إلا   على أرجائه ماء سجوم

فها هى ذى شاعرية مبتدئة تتلمس طريقها ، وتحاول أن تثبت قدمها فى ذلك المذهب الذى اتجهت إليه وأرادت أن تصطنعه ، وهو مذهب «البديع» الذى استطاع بشار بشخصيته القوية أن يلفت إليه الأنظار ويبهرها به ، ويجذب ناشئة الشعراء إليه ، من أمثال صاحبنا هذا كلثوم بن عمرو . ففى هذه الأبيات التى تبدو عليها أمارات الفجاجة الفنية نستطيع أن نلاحظ أثراً من آثار هذه الفتنة بذلك المذهب الجديد فى صناعة الشعر ، كما نستطيع أن نعرف فيها صورة من الاتجاه الشعرى عند العتابى أول عهده بالشعر ومعالجته ، فى مثل ذلك الجناس المقصود فى قوله : « . . . عفى   على عزماته السير العزيم » ، وفى مثل تلك الاستعارات المصنوعة صناعة ، وتلك الصور المجازية المتكلفة الذاهبة فى سبيل المبالغة ، كشآبيب الدموع التى تفيض بها الهموم ، أو الماء السجوم على أكناف الطرف المرتد .

فقد اختار العتابى إذن سبيل أصحاب البديع منذ حداثته ، مفتونا بها ، لا يعبأ أن يعنف بنفسه فى تكوين تلك الصور الشعرية ليتحقق بذلك على الوجه الذى استطاع أن يتصوره ، وهو بعد حدث لم ينضج ولم تكتمل له وسائله الفنية . وتبدو فى هذا الخبر الذى سقناه تلمذته لبشار ، وأنه كان يعتبره صاحب ذلك المذهب وممثله ، فلم يكد يعلم أن فى إمكانه لقاءه حتى يمضى إليه يعرض عليه شعره . وبشار يرى فى ذلك الشعر اتجاهه ومذهبه ، فهو يظهر رضاه عنه وثناءه عليه و إعجابه به .

أما كيف لقى العتابى بشارا ، وأين ، ومتى ، فهذا ما لا نجد النص عليه ولا الاشارة إليه فيما بين أيدينا .

ولكنا نعلم أن بشاراً رحل إلى الجزيرة ذات مرة ، قاصداً سليمان بن هشام ابن عبد الملك ، فدخل حران حيث الأمير ، وأقام بعض الوقت . وكان ذلك — ولا ريب — فى أواخر عهد الأمويين . فهل يمكن افتراض القول بأن العتابى لقى بشاراً فى هذه المناسبة : سمع بمقدمه ، وكان صيته قد سبقه ، وكان مذهبه فى الشعر موضع فتنة كما قلنا ، فمضى إليه يعرض شعره عليه ، وقد رآها فرصة نادرة أن يجلس إلى ذلك الأستاذ وينشده ويأخذ عنه ويسمع رأيه ويرضى غروره الصبيانى ؟ ذلك فرض قريب محتمل ليس ما يمنع منه .

ومهما يكن من أمر فقد كان العتابى أحد تلاميذ تلك المدرسة الجديدة التى استطاع بشار بقوته وما أتيح لشعره من أسباب الذيوع والقدرة على التغلغل فى الأوساط المختلفة ، أن يفرضها ويختط سبيلها ويأخذ ناشئة الشعراء بها .

فهذه واحدة لا بد لنا من تقريرها ونحن نحاول تبين هذه المرحلة من حياته .

وأخرى تعرض لنا ونحن فى ذلك الصدد : لقد نشأ العتابى فى تلك البيئة التى حاولنا تصويرها ، وهى بيئة بدوية طبعت على الثورة والتمرد ، وقد شهد ولا ريب كثيراً من مظاهر ذلك التمرد ، وتفززت منه عواطفه ، وتأثرت به مشاعره آثاراً مختلفة . بل لقد كان يشهد إلى جانب ذلك الذى يدور حوله كثيراً من الصور تتراءى فى نفسه وتثير مشاعره ، مما كانت أسرته ما تزال حريصة على تناقله والاعتزاز به عن جدها الأكبر ومبعث فخرها عمرو بن كلثوم . ولكن شيئاً من شعره لا يصور لنا شيئاً من هذه المظاهر ، ولا يعبر عن مثل هذه المشاعر ، بل إن شعره الذى بين أيدينا يمثل لنا الهدوء والأناة والدعة . ومرجع ذلك أن شيئاً من شعره فى تلك الفترة الأولى من حياته لم يصل إلينا ، بتأثير بعده فى هذه الفترة عن مركز النشاط العلمى والأدبى ، فلم يظفر من الرواية بما يسجله ويكفل له شيئاً من الذيوع ، وأن ما وصل إلينا من شعره هو شعر الشيخوخة أو الكهولة ، حين اعتدلت أسبابه ، واتأدت نفسه ، وغلبت طبيعته الوادعة . واذن فهناك حلقة مفقودة فى شعر العتابى تستلزمها حتما طبيعة الأشياء ، كما تقتضينا أن نذكرها ونجعلها فى بالنا حين

نذهب تتقصى العوامل التى أتيحت لشاعر كهذا الشاعر ، وحين نتلمس تصور حياته فى هذه الفترة الغامضة المبهمة منها .

وثالثة ينبغى ألا نغفلها : ما عسى أن يكون أثر هذه الثقافات المختلفة التى كانت تتمثل فى الرها وحران ونصيبين من مدن الجزيرة ؟ أحالت نشأته البدوية دون هذا التأثر بها ، أم أن شابًا طموحاً مثله ، متقد الذهن مشبوب العاطفة لا يمكن أن يظل بمعزل عن هذه البيئات ، وهو يعلم أن فيها غذاء لطموحه العقلى والأدبى ؟ لقد استطاعت هذه البيئات أن تبسط من قبل سلطانها شيئاً ما على هذه القبيلة التى ينتسب إليها العتابى ، والتى خرج منها شاعر كالأخطل وآخر كالقطامى ، فكان للمسيحية فيها مكان ملحوظ ومنزلة ظاهرة ، فهل يستقيم القول بأنه ظل فى معزل عنها ، بعيداً عن التأثر بها ؟

بل كيف تكونت ملكات هذا الرجل الفنية على ذلك النحو الذى جعل منه إماماً من أئمة المجددين فى العبارة الأدبية شعراً ونثراً ؟ وكيف استقامت له الروح العلمية التى أتاحت له منذ اتصل بالبيئات البغدادية ، وهو شيخ كبير علت سنه ، أن يغامر فى ألوان الحياة العلمية المتصلة بالنقد الأدبى ، إذا كان قد أمضى حياته الأولى فى تلك البيئة البدوية الساذجة بتقاليدها وروحها المحافظة دون أن يدع لتلك الثقافات العقلية سبيلها إليه ، توسع من آفاقه العقلية وتحرر مُثُله الفنية ؟ إن افتراض القول بأنه اتصل منذ عهد التكوين بتلك الثقافات ضرورة لا نكاد نجد عنها معدلا فى منطق البحث الأدبى ؛ وبذلك استطاع أن يكون له فى تاريخ الأدب ذلك الأثر الذى أجملنا القول فيه .

واذا صح لنا هذا الفرض عن العتابى الذى نشأ بعيداً عن البصرة و بغداد فجدير بذلك أن يحملنا على العدول عما ألفناه وجرينا عليه من حصر العوامل التجديدية فيهما ، ورد كل تطور أدبى إليهما . فانما ينبغى لتاريخ الأدب أن يمد النظر هنا وهنا ، ويتغلغل به فى تلك البيئات التى كانت بعيدة عن مركز الدولة ومستقر السلطان ، فصرف ذلك الأنظار عنها ، وتركها فى غمرة الاغفال والنسيان ، ثم اطرد الأمر على ذلك حتى أيامنا هذه ، لا نكاد نخرج عن هذه الدائرة ، أو نرى فى غيرها مجالا للنظر والبحث والتقصى .

لقد كانت الجزيرة مركزاً من مراكز الحياة الأدبية القوية النشيطة المتصلة منذ العصر الجاهلى ، كما كانت مركزاً من مراكز النشاط السياسى على

النحو الذى رأيناه . فأما فى أيام بنى أمية فقد سجل لها شعراؤها مكانا ممتازا ؛ إذ كانت صلتهم بالدولة فى دمشق صلة يقدرها السلطان ويحرص عليها ويغالى بها ، ونحن نعرف بعد المنزلة التى كان يتمتع بها الأخطل فى البلاط الأموى . فاذا كانت أيام بنى العباس نقد تغيرت الأمور وتبدلت الأوضاع ، فحدثت الجفوة بينها وبين الدولة ، حتى أصبحت فيما يشبه العزلة من هذه الناحية ، ومضت الحياة الأدبية فيها محدودة بحدودها ، حتى ما تكاد أصداؤها تعدوها ، ولا تكاد بغداد تشعر بها ، ولا نكاد نرى شاعراً جزريا يقصد قصدها أو يتصل بالسلطان فيها ، إلا ما كان من مثل ربيعة الرقى . وهو لم يقصد إليها ، وانما استقدمه المهدى استجابة لرغبة جواريه ، كما يقولون . وكان ربيعة هذا – فيما يقول أبو الفرج – « من المكثرين المجيدين ، وانما أخمل ذكره وأسقطه عن طبقته بعده عن العراق وتركه خدمة الخلفاء » . وهكذا كان – فيما يبدو – شأن الحياة الأدبية عامة فى الجزيرة : أخملها وغض من شأنها « البعد عن العراق وترك خدمة الخلفاء » .

وهكذا كان أيضاً الشأن فى هذه الفترة الأولى من حياة شاعرنا العتابى ونشاطه الأدبى فيها ؛ فقد مضى – بالنسبة للرواة ودارسى الأدب – مغموراً ، يغشاه الابهام المطلق ، وتحتوشه الظلمات ، فما يبدو منه إلا تلك الومضة الخاطفة التى تشير إلى صلته ببشار ومحاولته اصطناع مذهبه فى صناعة الشعر . ثم تظل هذه الظلمات تحيط به ، وتضرب من دونه نطاقاً غفلا ، حتى عهد الرشيد ، حين يتجه هذا الخليفة بعنايته إلى هذه المنطقة ، ويتخذ من الرقة داراً له ، يكثر من النزول فيها والالمام بها ، وحينئذ تنجاب هذه الظلمات بعض الشىء عن العتابى ، فنراه ماثلا أمامنا ، متصلا برجال الدولة ، وبالبيئات البغدادية المختلفة .

كان بدء ذلك فى أثناء ولاية عبد الملك بن صالح العباسى على الجزيرة ، وفى أعقاب فتنة من هذه الفتن التى كانت ما تلبث حتى تشتعل هنالك ، إما ثورة على الدولة القائمة تصدر عن نزعات دينية أو جنسية ، وإما ثورة داخلية بين هذه القبيلة وتلك استجابة لروح العصبية القبلية . وقد أخذت الدولة فى قمع هذه الثورة التى كان قوامها رجال ربيعة ، قبيلة العتابى وعشيرته ، فنكلت

بها وجردت السيف فيها وأنهكتها عقوبة واستقصاء فيها . والعتابى الشيخ يحس الوجيعة لما يشهد من مصارع قومه ، فلا يجد إلا أن يتقدم إلى الأمير بقصيدة يعتذر فيها لهم ، ويستوهبه العفو عنهم ، وهى قصيدة ما تزال قطع منها بين أيدينا تصور العاطفة المتزنة ، كما تصور صناعة العتابى الشعرية فى هذه المرحلة من حياته ، من الديباجة المصقولة والسرد المحكم والصور الفنية المجودة . وقد بلغ العتابى بهذه القصيدة الغاية التى كان يرجوها ، فلم يلبث الأمير أن أمر قائده أبا عصمة أن يكف سيفه .

« فلما قدم الأمير الرافقة أنشده عبد الملك القصيدة ، فقال : لمن هذه ؟ فقال : لرجل من بنى عتاب يقال له : كلثوم بن عمرو . فقال : وما يمنعه أن يكون ببابنا ؟ فأمر باشخاصه من رأس عين . فوافى الرشيد ، وعليه قميص غليظ وفروة وخف ، وعلى كتفيه ملحفة جافية ، بغير سراو يل » كما يقول أبو الفرج فى سياق الكلام عن هذه القصيدة .

وهكذا خرج العتابى من بيئته ، فلم يكد يتصل بالسلطان حتى أخذ سبيله إلى بغداد ، فترك البادية إلى الحاضرة ، وترك حياة القبيلة إلى ذلك المجتمع الزخار بأنواع الناس وأصناف اللباس ، كما يقال . فماذا كان من شأنه فى هذه البيئة الجديدة ؟ لم يكن العتابى رجلا بدويا خالص البداوة من جميع جوانبه وانما كان مزاجاً من هذه وتلك : كان بدويا فى مظهره وأسلوب حياته وبساطة مشاعره ، ثم كان بعد ذلك يمثل الرجل الحضرى المترف بعقله وأسلوب تفكيره ومنهجه فى الصناعة الفنية ؛ و بذلك استطاع أن يتصل بالبيئات الرفيعة المختلفة فى بغداد ، لا باعتباره شاعراً بارز الشخصية من شعراء الطبقة الأولى فحسب ، وهو الاعتبار الذى وصل بينه و بين السلطان ، بل باعتباره — إلى جانب ذلك — عالماً من علماء الشعر وأصحاب الرأى فيه ، وباعتباره كاتباً جيد الكتابة استطاع أن يبهر الناس بأسلوبه فيها ، وباعتباره خطيباً يعرف كيف يدير القول ويصيب المفصل ويفتن الألباب ويبلغ غاية الاقناع بقوة بيانه وجودة عبارته ووضوح حجته . فقد اجتمع له إذن من وسائل التبريز فى تلك البيئات ما لم يجتمع لسواه ، ونزل من أصحابها منزلة كبيرة ، حتى لقد كان يحيى بن خالد البرمكى يقول لولده : « إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو فضلا عن رسائله وشعره . . . فلن تروا أبداً مثله » . وهكذا لم يكد العتابى يتصل

بغداد حتى هيأت له مواهبه أن يحتل فى المجتمع البغدادى المثقف هذه المنزلة الرفيعة ، وأن يتبوأ فى أندية بغداد الأدبية التى كانت تتمثل فى بيوت السراة وأصحاب السلطان ذلك المكان الظاهر . وقد أحاطه البرامكة برعايتهم وأولوه حمايتهم ، وأشعروه روح الطمأنينة فى ذلك المجتمع الجديد .

ومن ذلك يبدو أن العتابى أصاب فى هذه البيئة الجديدة نجاحاً جديداً لعله فوق ما كان يقدر . ولكن هذا النجاح إنما أصابه العتابى الشاعر الكاتب العالم الخطيب ، فأما العتابى الرجل ، الذى كانت الروح البدوية فى أعماقه ، مسيطرة عليه وموجهة مشاعره ، فكان شيئاً مختلفاً ؛ فما أصابه ذلك نجاحاً وظهوراً أصابه هذا إخفاقاً وتخلفاً . ذلك أن الحياة الاجتماعية فى بغداد كانت معقدة أشد التعقيد ، محكومة بطائفة من الاعتبارات أدنى إلى السخف ، وكانت صلات الناس بعضهم ببعض لا تقوم على المودة الخالصة والمعانى النفسية قدر ما تقوم على التملق والمخادعة والمصانعة والتماس المنفعة العاجلة . وكانت أسباب الرجل فى هذه الحياة مشتقة من طبيعة هذه الحياة القائمة على التكلف والتصنع ، لا من صفاته النفسية أو مواهبه العقلية أو الفنية حين يكون المجال الذى يقوم فيه ويؤدى عمله مجالا فنيا أو عقليا . فأنّى لهذه المشاعر البسيطة والخلائق الصريحة المستقيمة أن تعرف سبيلها فى تلك المسالك الملتوية ؟ ولو أن العتابى جاء بغداد قبل أن يشيخ ويصلب عوده على الوضع الذى نشأته عليه البادية فلعله كان يملك لنفسه شيئاً من الملاءمة بينها وبين تلك البيئة الاجتماعية المعقدة ، ولكن ذلك شئ لا يمكن استرجاعه . فلابد إذن مما صارت أموره إليه .

وهكذا كان صاحبنا يحس أنه يحيا فى بغداد حياة مقسمة ، فهو ناجح مخفق ، وهو متقدم متخلف ، وهو موضع التقدير وموضع الغبن والتأخير . ولعل هذه المفارقات كانت من أول ما جعل يؤزّه ويملأ حياته عناءً وجهداً ، وقد جعلته يقارن بينه وبين غيره فيرى الدنيا مقبلة على هذا وذاك مدبرة عنه دون أن يكون لهذا الاقبال والادبار — فيما يحسب — سبب يرجع إلى طبيعة الأشياء .

قالوا إنه مر بأبى نواس ذات مرة ، وقد اجتمع إليه طائفة من الناس ، وهو ينشدهم قصيدته فى مدح الخصيب بن عبد الحميد :

ذكر الكرخ نازح الأوطان فبكى صبوة ولات أوان

فلما رآه أبو نواس قام إليه وسأله الجلوس ، فأبى وقال : أين أنا منك وأنت القائل ، وقد أنصفك الزمان :

قد علقنا من الخصيب حبالاً أمنتنا طوارق الحدثان

وأنا القائل وقد جار علىّ وأساء إلىّ :

لفظتنى البلاد وانطوت الأكفاء دونى وملنى جيرانى
والتقت حلقة علىّ من الدهر فما جت بكلكل وجران
نازعتنى أحداثها نهمة النفس وهدّت خطوبها أركانى
خاشع للخطوب مفترق القلب كئيب لنائبات الزمان

لقد أبعلته المفارقة وملأت جوانب صدره ضيقاً وبرماً حين نظر إلى أبى نواس فرأى البون الواسع بينه وبينه ، ثم رآه مقبلا عليه متحفيا به ، فكأنما رأى شيئاً منكرا لا تسيغه مشاعره البسيطة الساذجة .

ولم يكن نظر العتابى إلى من حوله ممن أقبلت الدنيا عليهم ، ثم مقارنة حاله بحالهم ، عن حقد منه أو ضغينة يضطغنها عليهم ، فلم يكن بالرجل شئ من هذا . فانما يحقد الرجل الصغير عند نفسه ، يستشعر الضعة فى أعماقه ، فأما العتابى فكان معتزا بنفسه ، مقدراً لكرامته مكبراً لها ، يراها أول ما ينبغى للرجل أن يحرص عليه ويغالى به . ومن ذلك هذه القطعة المأثورة عنه وقد جعلها كالوصية لأصحاب الحاجات : « إن طلبت حاجة إلى ذى سلطان فأجمل فى الطلب اليه ، وإياك والالحاح عليه . فان إلحاحك يكلم عرضك ، ويريق ماء وجهك ، فلا تأخذ منه عوضاً لما يأخذ منك . ولعل الالحاح يجمع عليك إخلاق الوجه وحرمان النجاح . فانه ربما مل المطلوب إليه حتى يستخف بالطالب » . وليس هذا كلام رجل يجد الحقد سبيلا إلى نفسه ؛ فالحرص على ماء الوجه وكرامة النفس لا يتفق مع الصغار الذى هو قرين الحقد وباعثه .

لقد نشأ العتابى فى تلك البادية التى رأينا مبلغ إبائها واعتزازها وما تفيضه على أبنائها من مغالاة بالكرامة وتقدير للشخصية واعتداد بالذات ، وفى أسرة ما تزال تتمجد بذلك التاريخ الذى كتبه لها عمرو بن كلثوم ، تتوارثه

وتتدارسه وتغذى به فى بنيها ذلك الشعور بالكرامة والاعتدادبالنفس والاكبار للذات . وقد بقى فى هذه البيئة حتى أسن واكتهل ، حفيظاً على تقاليدها ، حريصاً على مظاهرها ، يكره أشد الكره أن يغفلها أو يتبدل بها ، كما تدلنا على ذلك أخباره دلالة صريحة . وقد مضى إلى بغداد بهذه الطبيعة وفى تلك السن العالية ؛ فكانت هذه المفارقات الصارخة التى رأيناها ، والتى عبر عنها بهذه العبارة الهادئة ، حين سأله أحد أصحابه ذات مرة : « ما بالك لا تقصد السلطان كما يفعل فلان وفلان ؟ » فقال : «لأنى أراه يعطى واحداً لغير حسنة ولا يد ، ويقتل الآخر لغير سيئة ولا ذنب » . وقد جعلت هذه المفارقات تؤله ، ولكنها لم تستطع أن تجعله يصوغ نفسه على غرار ما يتطلب ذلك المجتمع .

وإذا كنا نسمعه مرة يقول :

أُسجد لقرد السوء فى زمانه
وإن تلقاك بخنزوانه
لا سيما مادام فى سلطانه

فانما تلك فى حقيقة الأمر سخرية مرة بالسلطان ، وتهزؤ بذلك النظام الاجتماعى الذى يلبس الأشياء غير لبوسها ، ويضعها فى غير مواضعها .

وهكذا كانت حياة العتابى فى بغداد حياة مقسمة ، وهكذا كانت مشاعره فيها : إحساساً بالألم والوجيعة ، كما نرى فى تلك الأبيات التى أنشدها أبا نواس ، ثم سخرية من تلك الأوضاع المنكرة التى ألفها الناس واستكانوا لها فلم يعودوا يرون فيها شيئاً من النكر الذى عبر عنه فى تلك القطعة الصغيرة الساخرة ، حين قدم إلينا صورة القرد وقد انتفخ سَحْره وشمخ بأنفه واصطنع التيه والجبرية ، والناس أمامه قد خروا سجوداً له . . . ثم إحساساً باليأس وارتياحاً إليه على النحو الذى نراه فى قوله :

ألا قد نكس الدهـ ـر فأضحى حلوه مرا
وقد جربت من فيه فلم أحمدهم طرا
فألزم نفسك اليأ س من الناس تعش حرا

ولكن الأمر لم يقف عند ذلك الحد ، ولم يستطع العتابى بالرغم من سوقه

أن يعتصم من سوءات ذلك المجتمع وشروره . فهذه الصلة الضئيلة التى اتصلها بالسلطان لم تلبث أن أثارت حوله الضغائن ، ونصبت له الدسائس . فمرة هو متهم بأنه أقحم اسم الخليفة فى بعض ما كان يمازح به إخوانه ويعبث به وإياهم ، وهو مأخوذ مرة أخرى بأنه كان « يقول بالاعتزال — كما يحكى ذلك الجهشيارى — فاتصل ذلك بالرشيد ، وكثر عليه فى أمره فأمر به بأمر عظيم » . ولا ندرى كنه ذلك « الأمر العظيم » الذى جعله الرشيد عقوبة له ، ولكنه قد حمله على كل حال على أن يهرب إلى اليمن ، ثم ظل مقيما بها حتى استنقذه يحيى بن خالد البرمكى مما كان يساوره من المخاوف فيها ، فما زال بالرشيد حتى استصدر له العفو عنه .

ولعل هذه المكرمة كانت من أكبر ما وثق بالبرامكة أسبابه ، ولو أن النكبة لم تلبث أن وقعت بهم ، فبكاهم ، ثم لم ير بعد ذلك ما يمكن أن يغريه بالبقاء فى بغداد ، فولاها ظهره ، وانطلق عائداً إلى الجزيرة . وقد جعلت مشاهد بغداد تتردد فى خياله ، وجعل يستعرض حياته فيها ، فيرى أنه لم يفد شيئاً منها ، وأنه راجع إلى سوطنه أخيراً كما تركه فقيراً صفر اليد مما كان يؤمله ويمنى النفس به من المال الذى كان يريد أن يبنى به ما هدم الاقتار من مأثرته ومن خطر أسرته . ولكنه ما يلبث أن يتعزى عما فاته من ذلك بمصرع البرامكة وقد بلغوا ما بلغوا ، فيمضى وهو يردد هذه الأبيات :

تلوم على ترك الغنى باهلية	طوى الدهر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن فى الكسى	مقلدة أعناقها بالقلائد
أسرّك أنى نلت ما نال جعفر	من العيش أو ما نال يحيى بن خالد
وأن أمير المؤمنين أغصّنى	مغصّهما بالمرهفات البوارد
ذرينى تجئنى ميتتى مطمئنة	ولم أتجشم هول تلك الموارد
فان رفيعات الأمور مشوبة	بمستودعات فى بطون الأساود

لم يكن هذا آخر عهد العتابى ببغداد ، فما تكاد تنتهى فتنة الأمين والمأمون وتستقر الأمور فيها ، ويرجع المأمون إليها ، ويفد الناس عليه من هنا وهنا ، حتى نرى العتابى ببابه ونشهده وقد تشبث بيحيى بن أكثم القاضى ، يريد

أن يذكره لديه ويستأذن له عليه ، وابن أكثم يذكر له أنه ليس حاجبًا . ولكن العتابى ما يزال به يلاحيه ، حتى ما نلبث أن نراه فى مجلس الخليفة ، وفى المجلس إسحاق بن ابرهيم الموصلى . وقد أحسن المأمون لقاءه وأكرم وفادته . ثم نراه بعد ذلك وقد انصرف مع الموصلى إلى منزله نازلا عليه .

وهنالك فى دار الموصلى جعل له مجلساً يختلف إليه أهل الأدب والمتأدبون ، يسمعون منه ويكتبون عنه ويذاكرونه فى مسائل مختلفة من مسائل الأدب والشعر . ولعل هذه المجالس والأمالى التى كانت تلقى فيها هى الأصل فى هذه الكتب التى يذكرها له ياقوت ، وهى : كتاب المنطق ، وكتاب الآداب ، وكتاب فنون الحكم ، وكتاب الخيل ، وكتاب الألفاظ ، وكتاب الأجواد ، ثم كتاب آخر لم يذكره ياقوت وإنما نجد الاشارة إليه فى الفصل الذى عقده صاحب الأغانى للكلام عن ابن سريج ، وقد أورد فيه قطعة منسوبة له فى صفة المصيب المحسن من المغنين ، وقدمها بأنه نقلها عن كتاب العتابى . وإذا كان أبو الفرج لم يسمّ هذا الكتاب فلعلنا بهذه القطعة التى نقلها عنه نملك القول بأن موضوعه كان الغناء وصفات المغنين ، ولعله كان مجموعة روايات فى هذا الموضوع أتيح له أن يسمعها فى خلال إقامته الأولى ببغداد ، حتى إذا كانت إقامته فى دار إسحاق بن ابرهيم الموصلى — وهو من نعرف فى الغناء — وجد فى ذلك ما حفزه إلى وضع هذا الكتاب وإملائه .

وكانت دار إسحاق بن ابرهيم الموصلى تعد من أكبر الأندية الأدبية فى بغداد ، وأكثرها تمثيلا لوجوه المتع الفنية والعقلية ؛ إذ كان الرجل من أكثر أهل عصره تحصيلا لثقافات العصر وتحققاً بها وتذوقاً لها : كان عالماً شاعراً أديباً ، وكان يعد رأس المغنين وإمامهم ومعلمهم ، وكان إلى جانب ذلك رجلا سريا بكل معانى السراوة فى المال والخلق ، نبيلا رحب الجانب أريحى النفس مهذب الطبع ، فكان أهل ناديه يجدون عنده حاجات نفوسهم ومطالب عقولهم ولذاذات أذواقهم . فلا جرم أحس العتابى عنده كثيراً من الروح كما أتيح له أن يعقد صلته عنده بكثير من سراة البغداديين فى هذه الفترة كأحمد بن هشام وأخيه على بن هشام وعبد الله بن طاهر .

ولكن العتابى لا يلبث — وقد تقدمت به السن — أن يحس الحنين الشديد إلى سوطنه ، فيعود إلى الجزيرة يقضى فيها أيامه الأخيرة . وكان

ذلك — فيما نقدر — فى عهد ولاية عبد الله بن طاهر عليها ، فيما بين سنتى ٢٠٦ و ٢١١ . وكان عبد الله هذا يأخذ بتقاليد السراة فى عصره ، فيصطنع ألوان الترف العقلى والفنى والمادى . وكذلك وجد العتابى فى كنفه وحياطته وسماحة نفسه وحسن تقديره ما كفل له حياة راضية ، وجعله يستشعر الطمأنينة فى هذه السن العالية .

ولسنا نعرف متى قضى العتابى نحبه ، ولكنا نعلم أنه كان لا يزال ممتعاً بالحياة فى سنة ٢١١ ، وهى السنة التى وجه فيها عبد الله بن طاهر إلى مصر . فقد حكى صديقه محمد بن النضر أنه مر به ، وهو فى طريقه إلى عبد الله بن طاهر حين كان يريد مصر ، فجلس إليه وجعل يجاذبه أخبار الحياة الأدبية فى العراق و بغداد . ولكنا لا نعلم عنه شيئاً بعد ذلك ، وأكبر الظن أنه لم يعش بعد ذلك طويلا .

طه الحاجرى

تقدير الجمال

أسئلة تخطر على البال ، وليس من اليسير الجواب عنها ، مع أنها تدور فى أذهاننا كلما شاهدنا الأشياء الجميلة والآثار الفنية البديعة . ماذا نعنى بالجمال ؟ وهل يوجد ميزان أو موازين نرجع إليها فى تقدير الأشياء الجميلة ؟ وما الدور الذى يلعبه العقل أو الذوق فى تقدير الجمال ؟ وهل الجمال تعبير عن مكنونات النفوس ، أو صفة من صفات الأذهان والعقول ، أو أثر من آثار الخلق والابداع ؟

ولندع هذه الأسئلة التى تضرب فى الفلسفة إلى الصميم ، لنقف موقفا بسيطا يقفه كل إنسان عند ما يعجب بقصيدة من الشعر ، أو يطرب لنغمة موسيقية ، أو يتذوق أثراً من هذه الآثار الفنية فى الرسم والتصوير والنحت وما إلى ذلك . إنه يقول هذا جميل ، فما هو سر الجمال ، وما موضع الاعجاب ؟

إن قلت الجمال لذة الحواس كالبصر والسمع ، فليس الأمر كذلك ؛ لأن الجمال متعة تضاف إلى الحواس ، لا لذة تستمد منها . فانتَ تجد لذة فى تناول الطعام ، ومتعة فى النظر إلى المائدة الجميلة وقد نضدت بالزهور . والفرق بين هذا وذاك هو الفرق بين الحيوانية والانسانية . وفى ذلك يقول أبو نصر الفارابى فى الفصوص : « العمل الحيوانى جذب النافع ويقتضيه الشهوة ، ودفع الضار ويستدعيه الخوف ويتولاه الغضب . والعمل الانسانى اختيار الجميل . »

ولقد ذهب المحدثون من الفلاسفة ابتداء من كنت وهيجل إلى لالو وكروتشى وجيو مذاهب شتى فى تفسير الجمال ، وتعليل الاعجاب به ، وبسط الموازين لتقديره ، غير أن ديلاكروا لا يرضى عن أى مذهب من هذه المذاهب ، ويعد كل واحد منها ناقصا من وجه ، صحيحا من وجه آخر .

ثم يختم كلامه بأن الفن ليس « إحساساً ، أو صورة ، أو ائتلافا فى الأرواح ، أو حقيقة ، أو البصر بالمُثُل ، ولكنه كل ذلك ، حيث كان فيضا لقوة مبدعة مؤلفة » .

ويبدو أن مذهب أفلاطون قد أُهمل فى زوايا النسيان ، أو أدرج فى ذيل المذاهب ، مع أنه الفيلسوف على التحقيق ، وعنه أخذت الفلسفة الألمانية المثالية ، والعلم الحديث يأخذ بتفسيره الرياضى للكون ، بعد أن ظلت الحضارة الانسانية ترسف فى أغلال مادة أرسطو وصورته حول عشرين قرنا من الزمان فلم تتقدم .

ولعلنا إذا رجعنا إلى مذهب أفلاطون فى الجمال ، ثم أضفنا إليه شيئا من التعديل ، أن نكون أدنى إلى التفسير الصحيح .

يصف أفلاطون فى محاورة المأدبة رحلة النفس الانسانية فى طلب الجمال . وهنا نجد الالـٰهة ديوتيما تدل سقراط على السبل التى ينبغى على الذين ينشدون معرفة « مثال الجمال » اتباعها . فالسبيل الأول أن يقدر المرء جمال شئ واحد جميل ، ثم يتدرج إلى مرحلة ثانية يقدر فيها جمال عدة أشياء ويلحظ ما بينها من مشاركة . والمرحلة الثالثة تقدير الجمال المعنوى ، الذى يخلو من علائق المادة ، كالجمال فى الأنظمة والنواميس .

وهذا كله لا يكفى فى بلوغ المثال ، أو على حد تعبير أفلاطون فى « البصر بالمثال » إذ لا بد من دراسة عميقة لفرع من فروع المعرفة اليقينية ، هى الرياضة بأقسامها : الحساب والهندسة والفلك . ولن يبلغ الفنان المثال بالذات إلا إذا امتلك ناصية العلم الرياضى . ومن المأثور عن أفلاطون أنه كتب على باب مدرسته « من لم يكن مهندساً فلا يدخل علينا » . ويرى الفارابى فى كتاب تحصيل السعادة ، أن أول أجناس الموجودات التى ينظر فيها الانسان علم الحساب والهندسة وما يلحق الأعداد والأعظام والأشكال من « خاصة التقدير ، وجودة الترتيب ، وإتقان التأليف ، وحسن النظام » .

كيف ينتقل الانسان من مشاهدة الأشياء الجميلة ، ودراسة الحساب والهندسة إلى البصر بالمثال ؟ هنا نجد أفلاطون يلبس مسوح المتصوفة

فيحدثنا بأن اشتغال النفس بالدرس والطلب يؤدى إلى مكافأتها باشراق نور المثال كما يندلع اللهب من النار . فالتحصيل شرط ، والبصر بالمثال إلهام .

وإذا رجعنا إلى نظريات المحدثين من علماء النفس وما حققوه فى كلامهم عن الابداع فى الفنون وجدنا بينهم وبين مذهب أفلاطون شبها كبيراً . وجملة ما يذكرونه أن الأثر الفنى ، إبداعاً كان أو تقديراً ، تجسيدا أو تفكيراً ، يمر فى أربع مراحل : الاعداد والحضانة ، والاشراق ، والتنفيذ أو التحقيق . والاعداد يشبه مرحلة الدرس والتحصيل عند أفلاطون . ويعزو علماء النفس إلى فترة الحضانة أهمية خاصة ؛ إذ أن الفكرة تنحدر من الشعور إلى اللاشعور ، وتظل كامنة ، ولكن العقل يصرفها ويقلبها دون وعى من صاحبها . ولهذا كانت أعظم أعمال العباقرة ما جاءت بعد فترة من الكسل ، أو الراحة بعد الكد والتعب . ثم تبرز الفكرة الجديدة ، أو صورة العمل الفنى ، أو هذا المثال الذى يحكى عنه أفلاطون ، وكأنه — كما يقول الفريد دى موسيه — « مجهول يهمس فى آذاننا » . وهكذا يحصل إلهام الفنان ، ووحى الشاعر ، واختراع العالم .

ويشبهون هذا الالهام أو الوحى بطفرة ينتقل فيها العقل بعد الاعداد والدرس الى الكشف ، وهى طفرة تستند إلى العلم السابق ، ولكنه لا يقتضيها بالضرورة . ولهذا يلجأ العلماء إلى التحقيق حتى يتثبتوا من هذا الكشف .

والخلاصة عند أفلاطون أن الجمال ، ابتكاراً كان أو تقديرا ، فهو نوع من الكشف عن مثال الجمال ، نصل إليه بالمعرفة ، ونهتدى إليه بطول الخبرة والممارسة . وبعد فان تقدير الجمال لا يرجع إلى الذوق والوجدان ، بل إلى « المعرفة » . فالجمال على ذلك موضوعى لا شخصى .

أى إن الميزان فى تقدير الأشياء الجميلة ميزان خارجى مستمد من طبيعة الأشياء نفسها ، فلا يقوم على هوى الشخص أو مزاجه .

فاذا كنتَ تريد أن تحكم بين أبى تمام والبحترى ، أو بين شوقى وحافظ ، أيهما أعلى شعراً وأصدق فنا ، فلا بد أن تكون على علم وثيق بالشعر وموازينه ، ثم لا يكفى أن تحفظ علم العروض ، بل ينبغى أن تمارس النظم حتى يصير

الشعر عندك ملكة أو عادة ، وعندئذ فقط تهتدى إلى « مثال الجمال » فى الشعر ، حتى إذا نظرت فى قصائد الشعراء ، ووجدت أنها تطابق هذا المثال الموجود فى ذهنك ، كانت جميلة ، وإذا وجدتها تبعد عن هذا المثال كانت قبيحة .

وفحوى هذا المذهب أنك لا تصلح حكما بين الشعراء إلا إذا كنت شاعراً، ولا ناقداً لصورة زيتية إلا إذا كنتَ رساماً ، ولا بصيراً بالألحان إلا إذا كنت موسيقيا . ولهذا السبب يختصم الناس إلى النقاد والفنانين والخبراء . ومع ذلك فقلما تجد اتفاقاً بين النقاد على جمال شئ يحكمون فيه . لا لأن المثال يعوزهم ، بل لأنهم قد يرجعون إلى الذوق والعاطفة.

أما الجانب الآخر فى مذاهب الجمال ، فهو الذى يعتمد فى التقدير على الشخص . وعلى رأس المتطرفين فى المذهب الشخصى تولستوى ، وله كتاب مشهور عنوانه « ما هو الفن ؟ » انتهى فيه إلى أن قيمة الأثر الفنى ، شعراً كان أو تصويراً أو لحنا أو تمثالا ، إنما يعتمد اعتماداً تاماً على تأثيره فى أشخاص الناظرين إليه . الفن فى رأى تولستوى هو نقل الانفعالات والعواطف . فالقصاص الذى يروى قصة ، والموسيقى الذى يؤلف لحنا ، والرسام الذى يخرج صورة ، إنما يرمون جميعا إلى تسجيل انفعالاتهم التى أحسوا بها ، ونقلها عن طريق هذه الآثار الفنية إلى الناس ؛ وهذا هو الفن : تأثر ، ثم تعبير ، ثم تأثير . وميزة الفنان أنه أقدر من غيره على التعبير . سئل أحدهم لماذا كان المتنبى أعظم الشعراء ؟ فأجاب : « لأنه يحكى عن خواطر الناس . »

وينبغى أن يرمى الأثر الفنى إلى الجمال فقط ، فاذا جمع بين الجمال واللذة لم يكن فنا ساميا . فاذا أخذنا بمذهب تولستوى وأردنا أن ننصب الميزان للحكم على لحن أو قصيدة أو صورة ، فعلينا أن نعرضها على الناس ، ثم نعد كم شخصاً أعجبوا ، واهتزوا ، وتأثروا . ذلك لأن الجمال ليس موضوعيا أومستمدا من طبيعة الآثار الفنية ، بل الجمال صفة للتأثير الحادث فى نفوس الذين يشاهدون الآثار الفنية . فالجمال تجربة شخصية ، ووظيفة الفنان أن يبرز الاحساس بالجمال فى أعين الناظرين .

وهذه مثالية حادة تشبه ما يقوله أنصارها من أن الحرارة ليست صفة فى النار ، بل هى التأثير الحادث من النار فى الحواس .

ولعمرى إن هذا المذهب يجعل من الفن شيوعية ، ويرد أحكام الجمال إلى العامة والجمهور ، فينزل بقدره ، ويهبط بمستواه ، ثم يرد التقدير إلى الكم والعدد ، لا إلى الكيف والقيم .

والمذاهب الشخصية هى التى تسود حضارة اليوم . ففى الفلسفة تجد الوجودية ، وفى الأخلاق النفعية ، وفى الفن الاحساس الشخصى . وقد عدل بعضهم عن هذه الذاتية الصارخة ، وجمع بين وجدان المشاهد وموضوع الأثر الفنى . ويقولون فى ذلك إن ما نسميه الجمال هو راحة الانفعال . فنحن عند ما نحكم على شئ بأنه جميل ، إنما نعنى أن بعض النوازع النفسية قد برزت عند مشاهدة هذا الشىء إلى حالة من التوازن أو الانسجام الوجدانى . فاذا حدث هذا الانسجام ارتاحت النفس ، وسلّمت بوجود الجمال فيما تشاهده . وحاصل هذا المذهب أنك تخلع نفسك وإحساسك على العالم الخارجى .

ويقوم هذا المذهب فى الواقع على أساس من علم النفس . فالانسان مركب من دوافع بعضها فطرى وبعضها مكتسب . وهذه الدوافع تكون عادة متنافرة وفى صراع دائم ، ومن الخير تنظيمها وتأليفها ، بحيث يتسنى لكل دافع نفسانى أن ينطلق فى حرية بدون أن يتنازع مع غيره من الدوافع . فاذا حدث التنظيم التام للدوافع أحسسنا بالجمال فى الأشياء .

على أن المذاهب الشخصية لا تستطيع أن تثبت طويلا أمام النقد . ففى الأشياء عناصر موضوعية لا غنى عنها ، ولا يمكن إغفالها بحال من الأحوال .

هل تستطيع أن تقرض شعراً غير موزون ؟ إن البيت المكسور ليفسد القصيدة ، واللحن يسئ إلى الكاتب ، والجهل بتشريح الجسم يجعل المثّال عاجزاً .

ويبدو أن الذين يأخذون بالمذاهب الشخصية يخلطون فى تقدير الجمال بين الوجود والمعرفة . إنهم ينكرون وجود الشئ الجميل وتأثيره فى النفس ، ولا يعترفون إلا بانفعالاتهم وعواطفهم ، وتوافق هذه الانفعالات وانسجامها . فان قالوا : نحن لا ننكر وجود الأشياء الجميلة ، قلنا إذن لها فى ذاتها خصائص

تجعلها جميلة . والخلاف بيننا و بينهم فى « معرفة » هذه الخصائص . فالخروج على قواعد الموسيقى يجعل اللحن متنافراً تمجه الاسماع .

الجمال إذن تناسب وتوافق فى الأشياء ذاتها . ونحن لانحس الجمال إلا عند ما ندرك هذا التناسب ، ونميزه ، ويكون حاضراً فى الذهن كالمقياس أو الميزان . وهذا هو المذهب الذى أوثره .

فى كل شئ جميل مادة وصورة كما يذهب أرسطو . مادة الشعر المعانى والألفاظ ، وصورته الأوزان . ومادة التصوير الألوان ، وصورته التأليف فى انسجام . ومادة الموسيقى الأصوات والأنغام ، وصورتها الزمان . هذا الجانب الصورى لا غنى عن معرفته والخضوع له ، وهو الذى نسميه مثال أفلاطون . فالترتيب ، والتتابع ، والانتظام ، وحسن التأليف ، وضبط الايقاع ، ولطف التداخل بين الأجزاء ، ووحدة الشئ فى وضوح وانسجام ، هذا كله مصدر الجمال .

والمرجع فيما ذكرنا إلى الاحساس بالزمن وإدراك قيمته . ولا يعنينا أن ندخل فى قضية الزمان أنفسانى هو أم طبيعى ، وإنما الذى يعنينا أن نقرره هو أن إدراك الزمن المنقسم ، والايقاع المنتظم ،والتوقيت المؤتلف ، هو السر فى الجمال . فى حفيف أوراق الشجر اهتزازات لا تختلط فى تنافر ، بل تتناسب فى انسجام . فأنت تجد الجمال فى أمواج البحر التى تغمر الشاطىء ثم ترتد عنه ، ثم تعود إليه ، وهكذا . وتجد الجمال فى مشية المرأة لأنها تخطر وكأنها ترقص . والرقص مشية تجرى مع الزمن المنتظم .

وكلما أردنا أن نعبر عن إعجابنا بشئ جميل قلنا : لقد جعلنا نهتز طرباً ، أو نرقص طرباً .

فلاعجب إذن أن يكون مرجع تقدير الجمال إلى الاحساس بالزمان ، وإدراك ما ينطوى عليه من تناسب وانسجام .

فاذا سلمت معى بهذه المقدمات ، كان من العسير بعد ذلك أن تؤمن مع الفلاسفة القائلين بأن « الفن حرية » ؛ إذ كيف يصح أن تجرى الفنون الجميلة طبقاً لأوضاع ونظم ، أكثر الناس التزاماً لها هم الفنانون أنفسهم حين

يبدعون الأشياء الجميلة ، أو النقاد الذين يحكمون على هذه الآثار ، ثم يقال بعد ذلك إن الفن حرية ؟ إن كنتَ تقصد أنها حرية كحرية العصفور السجين فى القفص يتنقل فيه من جانب إلى آخر ، فلك أن تسمى هذه الحركة حرّية .

ولك أن تقول إن من يسعى إلى إدراك الجمال ، إنما يسير حرًّا حتى يعثر على هذا النظام البديع ، فيدركه ، سواء أكان من إبداع الطبيعة أم من خلق الانسان ، ثم يجد لذته فى الاستمتاع بهذا النظام وما فيه من جمال .

وهنا نجد الفلاسفة يقولون إن عين الجمال أصدق نافذة نطل منها على سر الكون ومكنونات الطبيعة . ومن أقوال هيجل : « إن آثار الفنون ليست مظاهر بسيطة ، وإنها لتنطوى على الحقيقة أكثر مما تنطوى عليه مظاهر الموجودات فى هذا الكون . ذلك أن العقل يجد مشقة فى النفاذ إلى باطن الطبيعة ولا يشق عليه النفاذ إلى صميم آثار الفنون . »

والسر فى ذلك أن صاحب الذوق الجميل يبصر صور الأشياء ، وعلاقتها بعضها ببعض ، ويميز حقيقتها الباطنة ، ثم يعريها عن علائق المادة التى تشوبها ، ويعبر بعد ذلك عن هذه الصورة المجردة التى أبصرها فى الأشياء الطبيعية والمجتمع الانسانى : فى تمثال ، أو صورة زيتية ، أو قصيدة من الشعر ، أو قصة أدبية .

ومن هنا صح لنا أن نقول إن الفنون الجميلة نوافذ نطل منها على الحقيقة .

أحمد فؤاد الأهوانى

شهريات

شهرية العلم

التقويم المصرى وعلم الفلك فى مصر القديمة

نشأة التقويم

إن التقويم الذى وضعه المصريون منذ العصور الأولى للتاريخ ، والذى لا يزال سائدا إلى اليوم يعتمد على عنصرين طبيعيين وهما : صفاء جو البلاد واعتدال مناخها ، ثم انتظام فيضان النيل . فصفاء جو مصر ونقاء سمائها اللذان يميزانها من كثير من البلاد الأخرى قد أتاح للمصريين القدماء أن يدرسوا قوانين الآلة الفلكية السماوية وأن يستنبطوا مما وصلوا إليه من نتائج القواعد الأساسية التى يقوم عليها ترتيب أزمنة التقويم وحسابها .

أما النيل فقد أتاح انتظام فيضانه واعتدال مياهه للمصريين أن يلاحظوا بدقة التطورات المختلفة التى تمر بها مياه النهر وأن ينظموا حياتهم الخاصة طبقا لهذه التطورات ، وأن يجعلوها أساساً لكل حساب زمنى فى مصر .

فقد أدرك المصريون أن فى الزمن ثلاث حقبات : الأولى هى الحقبة التى تزيد فيها مياه النيل وترتفع شيئا فشيئا فتكتسح فى ارتفاعها الأراضى الصالحة للزراعة وتغمرها حاملة إليها الحياة والخصب . والثانية هى الحقبة التى تنخفض فيها المياه شيئا فشيئا كحالها فى الارتفاع وفى مدة مثل مدة الفيضان لاتزيد عليها ولاتنقص . أما الثالثة فهى الحقبة المتمة للدورة النيلية وفيها تجف الأراضى فتسمح للفلاح أن يجمع الحبوب والثمرات التى ما يفتأ النيل يمد الأرض بالخصب لانتاجها . والنقوش الهيروغليفية والرسوم الموجودة فى المعابد المختلفة تدل على هذا التطور الثلاثى ، وتعطينا وصفا مختصرا لهذه الفصول الثلاثة . وإذ كان نظام النيل مرتبطا ارتباطا تاما بتقلبات كرتنا الأرضية وبالظواهر الجوية والمائية التى هى نتيجة هذه التقلبات ، فان دورة وحدة الزمن الكبرى التى اتخذها المصريون هى نفس دورة تقلب كوكبنا . والفصول الثلاثة السالفة الذكر هى حقيقة عدتها ٣٦٥ يوماً .

تقسيم الزمن على أساس الأهلة

لما تحقق المصريون أن الشمس روح الزراعة والنيل حياتها،جعلوا اليوم — الليل والنهار — وحيدة للمقياس الزمنى ، ومن الدورة القمرية شهرا عدة أيامه ٢٩ أو ٣٠ ثم قسموا الشهر إلى أربع وحدات متساوية هى الأسبوع . وجعلوا السنة

الزراعية اثنى عشر شهرا قمريا . وكان لذلك الحساب القمرى أثره فى الحفلات الدينية إذ أصبحت تقام للقمر ، كما كان له أثر فى الاسم الذى أطلق على الشهر فى اللغة القبطية وهو ABOT (وينطق بالحروف اللاتينية Abot) أى القمر . وقد رمز له فى الكتابة الهيروغليفية بقرص القمر مع نجمة مصحوبة بيد .

تعديل السنة القمرية وجعلها سنة شمسية

ولكن سرعان ما اضطر المصريون إلى اختيار السنة الشمسية . وذلك حين وجدوا أنه من الصعب وضع سنة قمرية ثابتة توافق ما للسنة الزراعية من ثبات ، وهو ارتباطها بالنيل ونظام فيضانه ، ومن ثمة كانت السنة الزراعية مرتبطة بالشمس ارتباطا وثيقا. وقد قضوا وقتا طويلا يحاولون فيه أن يحددوا مدة السنة الشمسية ، ولم يصلوا إلى هذا التحديد إلا تدريجيا وبفضل بحوث نسبت إلى الاله المصرى توت الذى لاحظ أن التقسيم إلى أسبوع يعوزه بعض الدقة ، وأن الأثنى عشر شهرا هلالية ، وإن تكن لا بد أن تشمل فيضانا فانها تنقص أحد عشر يوما . فلم يسعه إلا البحث عن ضابط ثابت يجعل توقيتاتهم الزراعية لا تختلف من سنة إلى أخرى . وقد رأى أن أحد نجوم الشعرى اليمانية وأسطعها ، وقد أطلق عليه اسم البراق ، هو من الكواكب الثابتة يظهر مع الشمس عند شروقها وغروبها فى ابتداء زمن فيضان النيل . فلم ير بدا من جعل ذلك الزمن بدء السنة المصرية الشمسية . وجعل لكل شهر من شهور السنة الأولى الشمسية الاثنى عشر ثلاثين يوما ، وأضاف إليها خمسة أيام تكميلية لتتم عدة السنة خمسة وستين وثلاثمائة يوم ، وهى العدة التى لاحظها فى دورة السنة الشمسية ، وأطلق على هذه الاضافة اسم أيام النسئ . وكذلك تحدد مبدأ السنة الشمسية الأولى باليوم الأول للفيضان ، والذى يظهر فيه النجم البراق عند خط عرض 30° — الذى يقطع الوجه البحرى .

وقد حفظ المصريون للاله توت هذه اليد التى أسداها إليهم فأطلقوا اسمه على الشهر الأول من السنة، كما أنهم دعوا النجم البراق نجم الالهة ايزيس .

وأصبحت السنة الشمسية بعد ذلك مقسمة إلى ثلاثة فصول : أولها الفصل الزراعى ويشمل شهور توت وبابة وهاتور وكيهك ؛ وثانيها فصل الحصاد ويتألف من طوبة وأمشير و برمهات و برمودة ؛ وثالثها فصل الفيضان ويتكون من بشنس وبؤنه وأبيب ومسرى وأيام النسئ . ولذلك سميت هذه السنة السنة الزراعية ، واعتمد عليها الفلاح فى زراعة أرضه وتحرير عقود إيجاراته .

تعديل السنة الشمسية

كانت السنة الشمسية المكونة من خمسة وستين وثلاثمائة يوم لا تمثل السنة الشمسية الفلكية تمام التمثيل . فبعد أربع سنوات من وضعها أشرق البراق أو نجم ايزيس متأخرا يوما واحدا ، ومنذ هذا الوقت استمر يتأخر يوما كل أربع سنوات .

وهذا التأخير وإن لم يكن ذا شأن فى حياة الفرد أو فى حياة المجتمع فانه انتهى مع تطاول الزمن إلى وجود تعارض بين فصول التقويم وفصول الزمن ، وأصبح التقسيم إلى فصول وشهور تقسيما لا قاعدة له .
ولكن تأخير نجم ايزيس عن ميعاد ظهوره أثناء الخمسة والستين وثلاثمائة اليوم التى هى عدة السنة أخذ يقل وأخذ ميعاد ظهور النجم يقترب من الميعاد الأصلى وفى نهاية ١٤٦١ سنة ظهر النجم فى ميعاده الأصلى الذى كان يوافق بدء السنة الشمسية . وقد لوحظ أن كل ١٤٦١ سنة عدد أيامها ٣٦٥ يوما تعادل ١٤٦٠ سنة ايزيسية عدد أيامها ٣٦٥ وربع يوم . وعلى ذلك صوب المصريون سنتهم الشمسية وجعلوها سنة ايزيسية ، وأضافوا مجموع الأرباع اليومية فى آخر السنة الرابعة بحيث صارت أيام النسىء ستة أيام كل أربع سنوات وأطلق عليها اسم السنة الكبيس وهى المألوفة فى مصر إلى يومنا هذا .

ويلاحظ فى الآثار المصرية أنه فى عهد الأسرة الرابعة التى استوت على عرش مصر منذ نحو ٢٤٨٠ سنة ق.م. كانت السنة الايزيسية قائمة . ونرى فى المقابر وفى القرابين التى تقدم للالهة عيدا مزدوجا لرأس السنة : عيد رأس السنة غير المحددة وعيد رأس السنة الايزيسية .

وتذكر النصوص الموجودة فى الأهرام هذه السنة الأخيرة . ونستنتج من ذلك أن وضع السنة الايزيسية يرجع إلى ما بعد أيام العصر الذهبى للامبراطورية القديمة .

حدد مبدأ السنة الفلكية الصحيحة وهى المعروفة بالسنة الايزيسية فى إحدى السنين التى اتفق أول يوم منها مع اليوم الأول من السنة غير المحددة ، وهذا المبدأ يوافق اليوم الأول من دورة فيضان النيل أى يوم ١٩ يوليه من السنة اليوليانية أو ١٥ يونية من الغريغورية . وحدث هذا التوافق على مر الزمن فى السنوات ١٤٠/١ إلى ١٤٣/٤ ، و ١٣٢١/ صفر إلى ١٣١٨/٧ ، و ٢٧٨١/ صفر إلى ٢٧٧٨/٧ ، و ٤٢٤١/ صفر إلى ٤٢٣٨/٧ ق . م . وعلى مقتضى هذه المصادر التى سبق ذكرها يكون أول افتتاح للسنة الايزيسية أو الفلكية المصححة قد حدث فى مصر سنة ٤٢٤١ ق . م .
ومع ذلك لم تكن السنة الايزيسية سنة التقويم الشعبى كما لم تكن متبعة ولا مذكورة إلا عند الكهنة والعلماء .

ورغم كل المحاولات التى بذلها أمراء مصر ومجهودات بطليموس الثالث افيرجيت وأغسطس قيصر لم يقبل شعب مصر السنة التى تشمل ٣٦٥ يوما وربع يوم إلا فى عصر المسيحية ؛ إذ تمسك شعبها لذلك الحين بالسنة التى عدتها ثلاثمائة وخمسة وستون يوما فقط . وقد صدر قانون فى المملكة ، كما قال بعض المؤلفين ، يحدد عدد أيام السنة . وقد جرت العادة على أن يتعهد الأمراء للملك فى يوم تتويجه باحترام هذا القانون لأن النظام الاقتصادى فى جميع المملكة كان معلقا به .

ونلاحظ أن المصريين قد بذلوا أعنف الجهد ليحتفظوا بمقياس هذه الدورة وأخذوا يدونون بدقة متصلة مدى هذا المقياس ليصوبوا كل نقص يتضح وجوده فى علومهم الفلكية . ومع ذلك فليس ثمة شاهد على وجود علم فلكى بالمعنى الصحيح عند قدماء المصريين . ففى عصر الامبراطورية الجديدة نجد بعض النقوش المتعلقة بالكرة الفلكية وخاصة التى توجد على ناووس ستى الأول ، ورمسيس الرابع والسابع ، وفى معبد رمسيس الثانى . ولكن هذه النقوش أوحتها الأساطير لا علم الفلك .

ويلاحظ وجود نقوش مماثلة فى مقدم هيكل إدفو الذى بنى فى عهد لاحق لهذا العصر وكذا فى معابد فيلة وأمبوس وأرمنت ودندرة . أما ما يثبت ، بصفة قاطعة على مايظهر ، أنه موضوع لدراسة الجهاز الفلكى فهى المناظر الفلكية التى نقشت فى مقابر طيبة لرمسيس السادس ورمسيس التاسع فى أبواب الملوك وفى جدول القرابين التى يجب أن تقدم بين ٢٦ بشنس و ١٩ طوبه وهما موجودان على جدران معبد رمسيس الثانى فى جزيرة الفنتين ، وفى تقاويم إدفو وإسنا ودندرة ، وفى بردية Sallier IV و Ebers والبردية المحفوظة فى ليدن Leyde . ومع ذلك لا يمكن القطع بأن علم الفلك لم يكن موجودا فى مصر ، ولا بأن هناك شاهدا إيجابيا على أننا أمام نتائج لدراسات أو أبحاث جرت على أساس قوانين أو قواعد .

ولم يلاحظ وجود علم فلكى صحيح فى مصر إلا فى عهد البطالسة لأن واضع « المجسط » *L'almagèste* أهمل ذكر من تقدمه من المصريين ولم يذكر إلا البابليين والاغريق فى المصادر التى استعان بها . على أنه لايسعنا إذا تصفحنا تاريخ التقويم فى وادى النيل لنقف على الدورات التى وضعها أهل هذه البلاد على مر الزمن من دورة قمرية إلى دورة شمسية ناقصة (٣٦٥ يوماً) ودورة ١٢٠ سنة و ٣٠ سنة ودورة إبيس ودورة العنقاء (فنيكس) والدورة الايزيسية (الدورة السوتياقية) — لا يسعنا إذا تصفحنا كل هذا أن نتجاهل وجود علم الفلك فى مصر . ومن العسير أيضا أن يفسر كيف يصبح شعب كان يجهل علم الفلك ، إماماً فى هذا العلم والمرشد الأوحد لأولئك الذين حكموا العالم بقوتهم وثقافتهم . إن روما نفسها لم تستحى من أن ترسل إلى مصر من ينقل علوم المصريين . لقد نقل يوليوس قيصر عن مصر إصلاح التقويم الذى يحمل اسمه . وكان الفلكى سوسيجين الذى كلفه يوليوس أن يقوم بهذا العمل من أهالى مدينة الاسكندرية . وقد استمد إصلاح التقويم من الحسابات التى قام بها الرياضى اودوكس الذى تحقق منذ الجيل الرابع قبل الميلاد أن عدد أيام السنة تزيد عن ٣٦٥ يوم . وليست لدينا معلومات عن تاريخ الدراسات الفلكية فى هذا العهد . ومع ذلك يمكننا أن نؤكد أن هذه الدراسات التى كان يحتفظ بها كهنة ممفيس لم تضع بانهيار الامبراطورية ؛ فقد تلقاها علماء الاسكندرية وحافظوا عليها . وقد كان لدراسات بطليموس من علماء الاسكندرية فى القرن الثانى للميلاد شأن كبير بحيث إن العلوم الفلكية كانت تستند إليها حتى القرن السادس عشر .

كامل صالح نخلة

شهرية السياسة الدولية

ثلاثة أحداث شغلت مضمار السياسة الدولية خلال الشهر المنقضى : إخفاق مؤتمر وزراء خارجيات الدول الأربع العظمى ، والسعى الحثيث فى تحقيق اتحاد صقالبة الجنوب ، وتطورات القضية الفلسطينية بعد ، إذ أصدرت فيها الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة توصيتها بالتقسيم .

مؤتمر وزراء الخارجية

أما مؤتمر وزراء الخارجية فقد انعقد فى لندن ، واكتنف انعقاده جو مكهرب . كان جدول أعماله شاملا معاهدة الصلح مع النمسا ومعاهدة الصلح مع ألمانيا وما إليهما من تحديد للتخوم وتقرير لنظام الادارة والاستثمار الاقتصادى فى المناطق الألمانية الموحدة أو الموزعة ، المراد إضافتها إلى كيان دولة معينة أو المرغوب فى فرض رقابة دولية عليها . وكان المعروف أن الاتحاد السوفييتى يريد أن يقدم مناقشة معاهدة الصلح الألمانية على مناقشة معاهدة الصلح النمسوية ، وكان المعروف أنه يريد أن يستمع لرأى الألمان فى مشروع معاهدة الصلح معهم قبل أن تعرض على المؤتمر العام حيث يوقع عليها قبل اتخاذ اجراءات ابرامها . لكن الحوادث لم تشأ أن تمهل مؤتمر وزراء الخارجية حتى يجتمع فيجابه فى اجتماعه كل تلك الصعوبات ؛ إذ ألقى القائد الروسى المشرف على المنطقة السوفيتية بالأراضى الألمانية بارحة الانعقاد خطابا دعا فيه إلى ضرورة التعجيل بتأليف حكومة ألمانية مركزية ، وإذ اتهم الرفيق مولوتوف وزير الخارجية السوفيتية الانجليز والاميريكيين بالتواطؤ على إقامة حكومة فى غرب ألمانيامنفصلة عن شرقها . ومن شأن هذا الاتهام الثانى أن يثير ثائرة الشعب الألمانى على الدولتين الانجلوسكسونيتين ، وهو شعب يود أن يظل محتفظا بوحدته وباندماج عناصره فى كتلة واحدة . ومن شأن ذلك التعجيل إلقاء الرعب فى القلوب الفرنسية التى لا ترى خلاص فرنسا إلا فى تمزيق الوحدة الألمانية أو فى تعيين حدودها الغربية على الأقل تحديدا يضم بلاد السار إلى الأراضى الفرنسية ضما ، ويخضع منطقة الرور لنظام دولى يكون لفرنسا فيه مركز ممتاز .

وقد شاء وزير الخارجية الأميريكية ألا يعرض للموقف الروسى برد ، وراح يستمسك بالنظر المباشر إلى المسائل المدرجة فى جدول أعمال المؤتمر . وراح المؤتمر يعرض لاجراءات معاهدة الصلح مع ألمانيا على ضوء ما كان مقررا بشأنها فى اجتماع المؤتمر السابق انعقاده بمدينة موسكو فى شهر ابريل الماضى . ولم يكن الاتفاق قد تم على كثير من تلك الاجراءات ، ولاح فى الأفق أن الاتفاق عليها لا يزال عسيرا ، فأجل المؤتمر نظرها إلى موعد آخر .

وبدأ بمعالجة موضوع الدول التى تدعى

إلى حضور مؤتمر الصلح لتوقيع المعاهدة ، فرضيت روسيا بضم باكستان إلى هذه الدول ووافقت على تأجيل النظر فى دعوة ألبانيا ، وهى الدعوة التى تعارضها الدولتان الانجلوسكسونيتان .

وحسب القوم أن الصفاء قد أخذ يلوح فى الجو ، فتدخل وزير الخارجية البريتانية مقترحا حلا وسطا للوصول إلى تفاهم بين روسيا والولايات المتحدة على مسألة مساهمة ممثلين لألمانيا فى وضع شروط معاهدة الصلح معها ، فعرض أن تكون « لممثلى الحكومة الألمانية التى ستقبل معاهدة الصلح فرصة إبداء وجهات نظرهم فى مؤتمر الصلح » . لكن اقتراحه لم يفز برضا الجانبين المتنازعين ، فعاد إلى الجو ما كان مخيما عليه من قلق . وتفاقم هذا القلق إذ هدد وزير الخارجية الفرنسية بوقف المباحثات المتصلة باقامة حكومة مركزية فى ألمانيا إلى أن تتم تسوية مشكلة السار ، وإذ أدلى الجنرال ديجول بتصريح هدد فيه بمعارضة الخطة التى قد يلجأ أليها وزير الخارجية إذا هو رضى بتأليف الوحدة الألمانية التى يعتبرها أعظم خطر على فرنسا .

وتداعت الأحداث بعد ذلك ، فقد طالبت روسيا بنصيبها من التعويضات الألمانية متناسبا مع ما نزل بها من جراء الاعتداء الألمانى من خراب ودمار ، وإذ عارضت فى ضم السار إلى فرنسا إلا إذا وافق المؤتمر على التخوم الواقعية بين ألمانيا وبولونيا ، وإذ رفضت توحيد المناطق الألمانية إلا بعد أن يقرر نظام الادارة والاقتصاد فيها عن طريق حكومة ألمانية مركزية .

وكان من شأن ذلك كله أن أعلن وزير الخارجية الأميريكية استحالة العمل فى هذا الجو ، وأن طالب بتأجيل المؤتمر ، فتقرر رفض دورته الحالية وأعلن فى العالم نبأ إخفاقه .

والمعقول أن الدول الغربيات الثلاث الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا سيعقد وزراء خارجياتها مؤتمرا ثلاثيا يتفاهمون خلاله على تنظيم العلاقات بين ثلاثتهن والدولة الألمانية مع فتح الباب أمام روسيا حين ترى محل التفاهم واياهن على ضم المنطقة الألمانية الخاضعة لاحتلالها إلى مناطق ألمانيا الأخرى .

وأغلب الظن — إذا ذهب وزراء خارجية الدول الثلاث هذا المذهب — أن الخط الفاصل بين المنطقة السوفيتية والمناطق الانجليزية والاميريكية والفرنسية سينقلب خطا فاصلا بين كتلة البلاد الغربية وكتلة البلاد الشرقية ، تستقل كل منهما بكيانها الاقتصادى ، ولا تتصل بالأخرى إلا فى حالات الضرورات القصوى .

وقد يعمل أنصار « الخلافات الدولية » لاستغلال الحال الجديدة حين تتبلور ، لكن يصعب عليهم أن يصلوا باستغلالهم إلى حد الدفع بالعالم إلى حرب عالمية ثالثة .

صقالبة الجنوب

وبينما كانت تكتنف تلك الصعوبات مؤتمر وزراء الخارجية بلندن ، كان المارشال تيتو يزور العاصمة البلغارية ويزور العاصمة المجرية ويزور العاصمة الرومانية ويوقع مواثيق التعاون بين يوغسلافيا وبلغاريا والمجر ورومانيا وألبانيا ، وهى وإن لم تخرج نصوصها عن كونها نصوص مواثيق التعاون العسكرى والسياسى والاقتصادى والثقافى

التى كثرت فى هذه الأيام ، يدعو قيامها فى هذه الظروف التى تنتاب العلاقات الدولية العالمية إلى الاهتمام الكبير خلال العالم كله . فقد أذيع عن الآستانة أن تلك المواثيق إنما تنطوى على فكرة إقامة حلف صقلبى من تلك الدول الأربع ومن مقدونيا اليونانية أيضا يدخل فى نطاق النفوذ السوفيتى إن لم ينته أمره بالالتحاق بالاتحاد السوفيتى كله ، وهو مايدعم الكتلة الشرقية فى أوربا أكبر الدعم وما يقلق بال الكتلة الغربية فى أوربا وأمريكا أعظم الاقلاق .

وقد خطب فى ذلك المارشال تيتو عند عودته إلى بلغراد من زيارته لصوفيا فقال فيها : « لم تعد البلقان مخزنا للبارود بعد الآن . فقد عقدت الشعوب السلافية عزمها على أن تحيا فى ظل الصداقة والوحدة . » وخطب الرفيق ديمتروف رئيس الوزارة البلغارية من ناحيته فنوه بأن المعاهدة الجديدة منطوية على مقاومة « كل من يحاول العدوان على حرية الشعبين واستقلالهما . » وأضاف قوله : « إن القنبلة الذرية التى طالما اتخذتها أميركا الاستعمارية وسيلة لاثارة الفزع والاضطراب فى النفوس لم تعد ترهب الآن سوى ضعاف الأعصاب ، فضلا عن أن إنتاجها لم يعد بعد الآن وقفا على تلك الدول الاستعمارية .

ولهذا الزج بالولايات المتحدة خلال تحدثه عن المعاهدة والميثاق مغزاه .

قضية فلسطين

أصدرت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة توصيتها بتقسيم فلسطين إلى دولتين يهودية وعربية رغم تحذير مندوبى الدول العربية لديها بسوء مغبة قرار التقسيم . فهبت الجماعات فى هذه الدول تعلن الاحتجاج وتطالب حكوماتها بالتدخل وتعرض استعدادها للبذل بالأموال والأرواح فى سبيل الاحتفاظ بعروبة فلسطين ووحدتها .

وكانت جامعة الدول العربية قد أدرجت مشكلة فلسطين فى جدول أعمالها منذ سنتين أو أكثر من سنتين ، وكانت قد أصدرت فيها قرارات خلال اجتماعات مجلسها ولجانها ببلودان وصوفر والقاهرة ، لكنها كانت قد أحاطت تلك القرارات بالكتمان .

فلما جاء قرار التقسيم بادرت جامعة الدول العربية إلى عقد مجلس رؤساء حكوماتها كى يعرض للوضع الجديد على ضوء هذا القرار من ناحية ، وما بدا من رغبات الناس والجماعات فى بلادها من ناحية أخرى . فصدر عنه بعد اجتماعه أسبوعين كاملين بيان تناول فى إيجاز تطورات المشكلة الفلسطينية منذ « تلاقت أغراض الاستعمار وأطماع الصهيونية على إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين إلى أن تنكرت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة لذات المبادئ التى تضمنها ميثاقها » أى منذ صدر وعد بلفور فى اليوم الثانى من شهر نوفمبر لسنة ١٩١٧ إلى أن صدرت التوصية بالتقسيم فى اليوم الثانى والعشرين من شهر نوفمبر لسنة ١٩٤٧ ؛ كما سجل البيان أن « رؤساء الحكومات العربية وممثليها قد قرروا فى اجتماعهم بالقاهرة أن التقسيم باطل من أساسه ، وقرروا كذلك ، عملا بارادة شعوبهم ، أن يتخذوا من التدابير الحاسمة ما هو كفيل بعون الله باحباط مشروع التقسيم الظالم ونصرة حق العرب ومجابهة كل احتمال من الاحتمالات » .

وقد كان لهذا البيان صداه عند العرب وعند غير العرب . أما عرب فلسطين فالوا إلى اعتباره فاترا إذ لم يتضمن ذكراً صريحا لأنواع المعونة التى ينتظرونها من الحكومات العربية ، وإن كانوا قد وطنوا أنفسهم على ألا يعتمدوا فى جهادهم إلا عليها، فأعدوا عدتهم على اعتبار أنهم وحدهم فى الميدان ، فان جاءتهم من إخوانهم فى سائر البلاد العربية معونة فأهلا بها ومرحبا ، وإن لم تجئهم فهم فى طريقهم ماضون وبالنصر مؤمنون .

لكن أصحاب البيان يهدئون من روع عرب فلسطين ؛ إذ يؤكدون أن السكوت عن التصريح بالخطط التنفيذية التى وضعت لمجابهة الاحتمالات راجع إلى ما تقضى به الحكمة إذ يترتب على كشفها ما يترتب من أضرار مؤكدة .

أما دوائر لندن الرسمية فقد كان أثر البيان فيها أن « بدت عليها مظاهر الأسف لانتقاد العرب الموقف الذى وقفته بريتانيا من تقسيم فلسطين » . وأكثر ما يثير أسف هذه الدوائر «أن يكون مكان بريتانيا من احتجاج العرب بعد الولايات المتحدة وقبل السوفيت» أى إنها لا تؤاخذ العرب على مبدأ الاحتجاج فى ذاته بل على نظام الترتيب والتعقيب فيه ليس غير ، وكانت تود لو خصوا بغضبهم الولايات المتحدة أول الأمر وثنوا بعدها بالاتحاد السوفيتى ، ثم استبقوا غضبهم على بريتانيا بعد ذلك عند حد المرتبة الثالثة . . .

وأما الاتحاد السوفيتى — وهو الذى قصد أول ما قصد بتأييده قرار تقسيم فلسطين إلى إجلاء بريتانيا عن هذه المنطقة من الشرق الأوسط — فقد صرح مندوبه لدى الأمم المتحدة بضرورة المضى فى سبيل تحقيق التقسيم على الرغم مما يقع من اضطرابات كان منتظراً وقوعها بطبيعة الحال .

وأما الولايات المتحدة التى اشتهر أمر تدخلها عند التصويت على التقسيم فيلوح أن قد هالها ما بدا فى البلاد العربية من تذمر وما قد ينال هذا التذمر المصالح الأمريكية الناشئة فى هذه البلاد من مساس، فراحت تقترح فى مجلس الأمن تأجيل النظر فى قرار الجمعية العامة، وراحت تتلمس حلولا أخرى غير الحل الذى لمست الآن أنه يشرك معها الاتحاد السوفيتى فى فلسطين .

محمود عزمى

شهرية الفلسفة

CHRONIQUES PHILOSOPHIQUES

DIDIER ANZIEU

المؤتمرات والمحاضرات *

كلية جان وال الفلسفية Le Collège philosophique de Jean Wahl

إن انحطاط التعليم الفلسفى فى الجامعة الفرنسية ، وانتشار الثقافة الفلسفية فى غير الأوساط الجامعية ، هما العاملان اللذان يفسران ما صادفته كلية جان وال الفلسفية من نجاح بلغ حد الدهشة فى النصف الأول من سنة ١٩٤٧ . وكان الاقبال عظيما على المحاضرات التى كانت تلقى واحدة منها كل ليلة . وكان الجمهور مزاجا من الأدباء والصحفيين ورجال المسرح ، إلى جانب الأساتذة والطلاب . وكان الجميع يسعون للاستماع إلى بعض أساطين العلم أمثال لويس دى بروى العالم الطبيعى والدكتور لاكان ، وإلى بعض المشتغلين بالنقد الفنى والأدبى ، وإلى فريق من القصصيين والشعراء ، وإلى بعض فلاسفة سويسرا وهولندا وبلجيكا ، وإلى كل ذلك النفر من المفكرين الفرنسيين الذين يتميزون برأى مبتكر شخصى أمثال : يانكيليفتش ونظريته فى البشر ، ورولان كايوا فى التاريخ ، وليفيناس فى الزمان ، وكوارى فى اللاهوت ، وجرفتش فى علم الاجتماع وباشلار فى التخيل ، وبردياف فى الدين والشيوعية الخ . أما جامعة السوربون القديمة فهى دائما مقيمة على دراسة المؤلفين المدرسيين الغلاة على ما فى هذه الدراسة ملل . وهى دائما آخذة بطرق التعليم غير الشخصى على ما فى هذه الطرق من عقم . لذلك لانراها تشترك فى ذلك الحشد اللامع من المحاضرين إلا بنصيب ضئيل . وعند ما تصبح الجامعة منظمة مغلقة منفصلة عن العالم الراهن ، نرى الفلسفة وهى المنظمة التى لاتغلق أبدا تذيع وتثمر فى مكان آخر.

والأستاذ جان وال الذى اضطرته الحرب إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة ، هو الفيلسوف الوجودى الوحيد الذى يتمتع بكرسى فى كلية الآداب بباريس ، وقد قدم كليته الفلسفية بهذه العبارات : « إن أوربا والغرب كله والعالم بأسره ، بعد تلك الفترة المروعة يبحثون بين عدة أشياء أخرى عن مدى ما بلغ إليه الفكر وما وصلت إليه الفلسفة . ولم يسبق أن اتجهت الأنظار إلى باريس كما تتجه إليها اليوم . فلابد أن

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

تكون باريس جديرة بما يرجى وينتظر منها. وعند عودتي من أمريكا خطر لى أن أنشئ فى باريس مركزاً قوميا ودوليا للفلسفة الحية حيث تمثل الاتجاهات المتنوعة، من فلسفة مدرسية وفلسفة برجسونية، وماركسية، وفلسفة الوجود، وفلسفة ويتهد، وتمثل فيه أيضاً، إذا أمكن إن لم يكن حالا ففيما بعد، الوضعية المنطقية وعلم النفس الشكلى والتحليل النفسانى . . . والواقع أن هناك قلقاً فلسفيا، لم تكن الحرب مصدره، بل كان موجوداً من قبل، إلا أنه أحس بنفسه بوضوح أقوى ... وسواء أتحققنا من ذلك أم لم نتحقق، فنحن نجتاز ثورة فكرية بلغت أشدها . . . ومن واجب الفيلسوف اليوم، وقد لمس هذه الثورة، أن يتعرف إلى ما هو أبدى فى الفلسفة . . . فكلية، وحشد مواهب متنوعة، وجوقة ذات أصوات عدة، يتولد من نغماتها المتفرقة الملموسة، توافق يصعب لمسه. تلك هى هذه «الجامعة» إذا نمت واتسعت كما نشاء لها النمو والاتساع.

ولابد أن نقول إن التوافق لم يوجد بعد، ولم نحس بأية وحدة، والعقل البشرى فى حاجة إلى نظام ونقط ثابتة، والمحاضرات كانت تتوالى دون أن يكون بينها رابط. حتى إن المستمعين المواظبين كل المواظبة بدءوا يتفرقون بعد أن هبطت حماستهم، وانقطع عن الحضور غير واحد منهم وقد أحسوا بحاجتهم إلى أن يخلوا إلى أنفسهم ويخلدوا إلى التأمل. وقد سافر الأستاذ وال فى الاجازة السنوية الكبرى إلى أمريكا اعتقاداً منه أن القوم هناك يحسنون فهمه. فلم تفتح الكلية أبوابها فى أكتوبر، وهكذا لم يتحقق النظام الفلسفى الذى كان عصرنا يترقبه.

وقد حاضر بين من حاضر فى ذلك الحشد رجال ثلاثة خليقون بالذكر، هم: ريمون آرون، وفردينان الكيى، وموريس مرلو بونتى.

وكان الأستاذ آرون عند ما ألقى محاضرته ما زال يعمل بعد فى جريدة «كومبا» محرراً للمقالات الافتتاحية. وكانت محاضرته تدور حول استحالة الاتفاق بين الوجودية والماركسية. فهو يرى أنه لا يوجد بالفعل أية نقطة اتصال بين رأى فى الوجود هو رأى شخصى بحت و بين مذهب فى العمل هو مذهب جمعى مشترك. وقد تستطيع الثورة أن توجد حلا للمشاكل الاجتماعية، ولكنها عاجزة عن حل مشكلة نفسية كامنة فيما وراء العقل. إن الثورة نقيض كل قلق شخصى ولو كان غير دينى. وإن الوجودية تأبى أن تسلك سبيل التقدم الاجتماعى إلا إذا كان ذلك من أجل الحرية الفردية وبوساطتها. وهى لا تعير الآلة قدراً بل تقيم وزناً للقلق ولاختيار نوع الحياة والموت. ويضيف الأستاذ آرون إلى ذلك الاعتبار الأول اعتبارا آخر، وهو أن الحوار الدائر بين الوجوديين والماركسيين، مع تنافيه التام، لا يتجاوز ميدان الميتافيزيقا إطلاقا، غير متعلق بالناحية العملية الراهنة للحياة السياسية. فبدلا من مناقشة الأسباب التى تدعو إلى تغيير النظام الاقتصادى فى المجتمع يحسن بنا أن ندرس خير الوسائل التى تحدث بها تغييرات مجدية فعالة، وأن نعيد النظر مثلا فيما أصدرنا من حكم على الرأسمالية.

أما فردينان ألكيى فهو من زعماء حركة السيريالزم، وقد أضحى مدرساً للحكمة وفيلسوفاً له نظرياته فيها، وقد أوضح فى محاضرته أن نمو حركتى الوجودية والسيريالزم دليل على ما فى عصرنا من متناقضات. كانت الفلسفة المدرسية تنظر

إلى الانسان نظرتها إلى عالمين : عالم الجسد والميول ، وعالم النفس أو الروح أو العقل ، وكانت تغض الطرف عن الأول لتستقر فى العالم الآخر ، مخولة له السلطة على كل شئ . وهى لذلك كانت ترسم طريقاً بسيطا ومستقيما يسهل إدراكه ؛ ولم تكن تواجه من المصاعب إلا المصاعب العملية ، وذلك عند ما يأبى الجسد أن يخضع بتلك السهولة التى أرادتها له الروح . أما الفلسفة الحديثة أى فلسفة بريتون (السيريالزم) أو فلسفة سارتر (الوجودية) ، فهى تريد ألا تترك شيئا يفقد من الانسان بأجمعه . فاللاشعور والتخيل والميول والغرائز ترفع كلها إلى مرتبة الفلسفة . إن الوجودية والسيريالزم مذهبان إنسانيان أى من المذاهب التى لاتعتبر غير الانسان موجودا وهو شئ واحد لا يتبدل . ولكن الانسان لا يستطيع أن يحقق كل الممكنات الكامنة فيه . ويرجع ما صادفته الفلسفتان من إخفاق إلى عجز كلتيهما عن حماية كيان الانسان الحسى فى جملته . فالأمر يكاد ينتهى بهما دائما إلى التساؤل عما يختاران بين الثورة والحب . فالحياة الخاصة والحياة العامة قد أصبحتا نزعتين متخاصمتين .

وقد حاول الأستاذ مرلو بونتى بالفعل أن يجد حلا لهذا التباين فى العالم الحديث الذى يرى الأستاذ ألكيى أنه تباين مصطنع . وقد ألقى عدة محاضرات عن الحرية ، أعلن فيها عن حدث فلسفى هام ، قال إن وجودية سارتر لم تكن إلا وجودية سلبية ، وسوف تصبح إيجابية مع الأستاذ مرلو بونتى أى مع سارتر مقبل ، سارتر من طراز آخر . إن وجوه التناقض بين الحياة الخاصة والحياة الجماعية ، هى نتيجة الجمع بين وجهتى نظر مختلفتين فى الانسان ، الأولى هى الشعور بالذات والثانية هى الشعور بالغير ، أى بين وجهة النظر الداخلية ووجهة النظر الخارجية . فاذا عارضنا بين هاتين الوجهتين كما هى الحال بين الوجود والعدم ، أصبحت العلاقات بين البشر قائمة على أساس من القتال وعدم الاكتراث ، وأضحى الحب فى المرء هو الرغبة المستبدة الملحة فى أن يحبه الغير ، واعتبر الفرد شيئاً بين الأشياء . أما إذا ذهبنا مع الأستاذ مرلو بونتى إلى إيجاد الانسجام بين هاتين الوجهتين بحيث تكمل إحداهما الأخرى ، وذلك بأن يكون بين الخارج والداخل اتصال بفضل مايحدث فى الداخل من نشاط — إذا سعينا إلى ذلك ، كان للحرية معنى وكان لها حياة ، وأصبح الحب هو التعاقد المتبادل بين إرادتين على إرادة المشروعات نفسها ، فيصبح المجتمع وقتئذ إرادة مشتركة ، فيريد كل فرد حرية الغير ، ويصبح المجتمع نداء وحوارا ، ومشروعا بشريا . يسمى الأستاذ مرلو بونتى هذه الظاهرة ظاهرة «اتحاد الذاتية» intersubjectivité أى إن الانسان لا وجود له وحده ، وأن الغير هو جزء من الحيز الذى يكون ذاتيا . أليس مصدر الأخطاء البشرية كلهاهو انطواء الانسان على نفسه ؟

ما هو علم السينما Filmologie

عقد أول مؤتمر دولى للفيلمولوجى فى باريس من ١٥ حتى ١٩ سبتمبر سنة ١٩٤٧ وعرف علماء النفس وعلماء الجمال فى العالم كله بعلم جديد هو علم . السينما وقد نظمت

هذا المؤتمر الجمعية الناشئة باسم « الجمعية الفرنسية للبحث السينمائى » . وقد سبق هذا المؤتمر صدور « المجلة الدولية لعلم السينما » وانتهى المؤتمر بأن قرر إنشاء مكتب دولى يكون مقره المؤقت باريس ، ويرأسه ثلاثة علماء هم مسيو جونست من سويسرا ومسيو ميشوت فان ديربيك من بلجيكاومسيو والون من فرنسا . وهكذا تغدو السينما موضوع بحث تكتب فيه الرسائل ويحصل فيه على شهادات وتمنح عنه مكافآت مالية ، وسوف تنشأ كراسى فى علم السينما فى الكليات . وقد بدأ من الآن بعض الطلاب والمدرسين بحوثهم . لم هذا الاهتمام المفاجئ بالسينما ؟ ذلك لأن هذا الفن الشعبى ذا الأثر الفعلى يرشدنا عن الانسان .

كان المؤتمر منقسما إلى خمس شعب . أما الشعبة الأولى وهى شعبة البحوث التجريبية فقد واجهت مسائل ثلاث : ما هى النتائج الفيزيولوجية والسيكولوجية لرؤية حركات تتم غالباً على عمق فوق شاشة ثابتة ؟

هل فى رؤية الصور الشريطية وحدات من الزمن والقياس كوحدات الايقاع والوزن ، والتتابع والتوقيت ، خاصة بالسينما وقد تتغير بتغير السن والثقافة والحضارة ؟ هل شروط العرض السينمائى وبالأخص ظلمة القاعة ، توجد فى الجمهور استعدادات وميولا غير التى توجدها المناظر الأخرى ؛ أما الشعبة الثانية وهى شعبة تطور الناحية التجريبية فى السينما فقد درست تاريخ المخترعات السينمائية وتاريخ وسائلها الفنية : الفيلم الصامت والناطق والملون ، والحيل السينمائية الخ ، فى حين أن الشعبة الثالثة توفرت على مشاكل تتعلق بالفلسفة العامة وبعلمى الجمال والاجتماع : ما هو التكوين الخاص بالصورة الشريطية والعالم الشريطى ؟ ما هى ضروب الجمال فى الشريط ؟ السينما كأثر من آثار الحضارة ؛ وظيفتها الاجتماعية ، أثر المجموع فيها . أما الشعبة الرابعة وهى شعبة الدراسات المقارنة فقد أنشأت قواعد صرف ونحو ومفردات خاصة باللغة السينمائية ودرست الفصاحة والسرد القصصى ، والمنظر التمثيلى فى السينما ، كما درست علم الصور المنقوشة فى السينما ، والأسطورة السينمائية . والشعبة الأخيرة وهى الخاصة بالبحوث التنظيمية توفرت على دراسة تأثير السينما فى كشف أسباب المرض وعلاجه ، ودراسة أثر السينما التربوى ، كما وضعت خطة لتنظيم الصناعة السينمائية .

أين وحدة علم السينما فى كل ذلك ؟ نجدها فى كتاب المسيو جيلبير كوهين سيا وهو الذى أنشأ ذلك العلم وابتكر له أسمه . والكتاب لم يظهر إلا الجزء الأول منه وعنوانه : « رسالة فى مبادئ فلسفة سينمائية » . ومسيو كوهين سيا من الذين اشتغلوا بالسينما وهو فى الوقت نفسه فيلسوف ، وهو يثير المسألة العامة وهى : هل الانسان اليوم يختلف عنه قبل عصر السينما ؟ إن هذا الفن السابع ينتج الجمال بطريقة آلية خاصة به ، وهو بانتشاره انتشارا يكاد يكون عالميا ، يوحد بين مختلف الجماهير . فغاية علم السينما المزدوجة هى أن يدرس تلك الطريقة الآلية وهذه الوحدة ، أى أن يقدم بوساطة مذهب إنسانى جديد هدفا جديدا ووسائل تحقيق ذلك الهدف.

وأول مبدأ فى الفيلمولوجية أو علم السينما هو التمييز بين الظاهرة الفيلمية أو الشريطية ، والظاهرة السينمائية أو الحركية . فالظاهرة الأولى تهدف إلى « التعبير عن الحياة ، حياة العالم أو حياة العقل والتخيل ، أو حياة الكائنات

والأشياء ، بوساطة صور مجموعة حسب نظام معين (صور منظورة : طبيعية أو اصطلاحية وسمعية : صوتية أو ناطقة) » فاذا أخذنا بوجهة النظر تلك تكون السينما هى « نوع الصور ومضمونها ووسائلها » ، وتكون دراستها فنية وجمالية . ومن ناحية أخرى « يكون من خصائص الظاهرة السينمائية أن تنشر فى الجماعات البشرية شيئا من الوثائق والاحساسات والأفكار والعواطف وهى مواد تقدمها لنا الحياة ويشكلها الفيلم حسب طريقته » ومن هنا تكون السينما ظاهرة عالمية تابعة لعلم الاجتماع .
والمبدأ الثانى فى علم السينما أنه يتخذ صورة موضوعه أى إنه بحث جمعى . « يجب أن نعتبر اليوم أن رجلا واحدا لا يستطيع أن يقوم بمفرده بدراسة السينما دراسة عميقة لا لأن المسائل التى تثيرها متنوعة كل التنوع ، وأنها تتطلب فى غالب الأحيان تخصصا كليا ، وأنها بالحرى ذات أهمية واحدة فحسب ، بل لأن العمل فيها يستغرق وقتا طويلا إلى درجة أنه حتى قبل إنجازه ، قد يعاد مرة ثانية بحكم الوسائل الفنية التى تتطور تطورا متصلا عجيبا . . . ويبدو جليا أن كل مشروع منظم يظل خاضعا لتحقيق أولى عميق شاق ، كما يبدو جليا أنه لابد من اجتياز هذه الفترة من الفوضى الظاهرة والخصوبة الواقعة حيث تدرس كل فكرة وتمحص على حدة . » ومثل ذلك التحقيق هو الذى شرع فيه المؤتمر الدولى الأول للفيلمولوجيا .

إنشاء اتحاد دولى للعلاج النفسانى

وقبل عقد المؤتمر السابق بعام عقد مؤتمر آخر كانت له هذه الرسالة نفسها وهى العالمية . ذلك هو مؤتمر علم النفس العملى الذى عقد فى مدينة زوريخ من السادس حتى العاشر من شهر سبتمبر من عام ١٩٤٦ . وكانت النتيجة الملموسة هى الموافقة بالاجماع على إنشاء اتحاد دولى للعلاج النفسانى . ويتضمن هذا النظام الأخير استعمال الاختبارات ووصف نواحى الشخصية ، والتوجيه المهنى وأحلام اليقظة الموجهة ، كما تتضمن تحليل اللاشعور . وانتشارها لا يعدو السنوات الأولى من عصرنا . وقد أصبحت ممارسة هذا النظام فى حاجة اليوم إلى أن يعترف بها رسميا ، وأن ترسم لها مقاييس دقيقة أكيدة . كان الأمر يقتضى ألا يجعل العلاج النفسانى فرعا ضيقا من فروع التخصص الطبى ، وأن يقصى فى الوقت نفسه عن مزاولة المهنة غير الاخصائيين والمشعوذون والفاسدون من المجتمع . وقد قرر المؤتمر أن يقبل فى اتحاده الأطباء الحاصلين على مؤهلات فى العلاج النفسانى ، وأن يقبل أيضا بنسبة العشر أشخاصا ذوى ثقافة سيكلوجية فقط . وهكذا أصبح الفلاسفة والأطباء يلتقون فى ميدان واحد من غير أن يضحى أحدهم بما تخصص فيه من علم . وتستطيع الآن كل دولة أن تجعل من المهنة مهنة شرعية وأن تعلمها فى معاهد عالية ، وأن تعبئ نفرا من أبنائها تخصصوا فى العلاج النفسانى . وتستطيع كل مدرسة أن تحصل قريبا على مستشار لها فى علم النفس التربوى ؛ وكل مصنع على إخصائى فى سيكلوجية العمل .
إن هذا التوحيد البديع لم يتجاوز الميدان الادارى . وكان الأستاذ يونج السويسرى

الألمانى يود أن يقيم الوحدة فى المذهب . فاقترح لذلك اعتناق أربع عشرة وجهة نظر مشتركة بين مختلف المدارس المهتمة بالعلاج النفسانى ، وبالأخص مدرسة فرويد ومدرسته هو نفسه . وتلك هى وجهات النظر الأربع عشرة التى نشرتها أعظم الصحف السيكلوجية فى العالم كله .

١ — الوسائل الطبية Intervention médicale

إن العلاج النفسانى يسير بأسلوب طبى على اعتبار أنه من الطرق الطبية . وهو يهدف أول ما يهدف إلى تشخيص المرض . وفى سبيل ذلك يحاول أن يحمل المريض على استرجاع ذكرياته . ومن سرد المريض للأحداث الماضية المتعلقة بمنشأ انحرافاته النفسية ، وكذلك من خلال أعراض المرض ، يحاول العلاج النفسى أن يقرر طبيعة نوع المرض النفسى .

٢ — المنهج التكوينى Psychogénèse

إذا تقرر نوع المرض النفسى ، وضح للمعالج أن هناك أمراضا ليست ناتجة عن إصابات جسمانية ، ولا يمكن تفسيرها إلا فى دائرة الاختلالات النفسية .

٣ — التشخيص Diagnostic

لذلك لا يتجه اهتمام المعالج النفسانى بوساطة التشخيص إلى السبب العضوى فى المرض بل إلى التكوين النفسى للشخصية المعتلة من غير إخلال بالعوامل الأخرى .

٤ — الاستكشاف Exploration

يعبر الاستكشاف أهمية لمختلف وسائل التعبير عند الانسان : الكلام ، والأفكار الطارئة ، والخواطر ، والحلم ، وتباشير الأعراض ، وحالة الشخص العامة الخ ...

٥ — منشأ المرض Etiologie

أثنـــاء الاستكشاف العميق ، يتضح للمعالج أن منشأ المرض يرجع إلى عوامل دفينة فى الأركان المجهولة من الشخصية ، وأنه يتجاوز حدود العقل .

٦ — اللاشعور L'inconscient

المركبة الغامضة فى الشخصية تدعى اللاشعور .

٧ — العودة إلى الشعــور والتحليل Prise de conscience et analyse .

ان مهمة العــلاج النفسانى أن يجلو الروابط اللاشعورية التى ساعدت على نشأة المرض والتى يمكنها الآن أن تنميه . ووسائله الآن هى التحليل والتفسير لمختلف أنواع التعبير .

٨ — التثبت Fixation

إن استكشاف الأعمـاق يؤدى بين ما يؤدى إليه إلى تثبت النضوج النفسى عند مراحل معينة ، وعند مواقف أو عند أشخاص فى سن الطفولة ، وهو ذو أهمية حيوية .

٩ — معنى التثبت Signification de la fixation

تبدو مظاهر التثبت من ناحية كأنها الأسباب الفاعلة للحالات المرضية اللاحقة ، ومن ناحية أخرى كأنها الأسباب الغائية ، وذلك بما تثير من أعمال معينة تحكم مصير حياة الفرد وسلوكه التالى . ومن ضمن الأسباب المادية نذكر الغرائز ونموها ، كما

أن الرموز تعتبر من الأسباب التشكيلية . وقد يكون للتثبت فى أول الأمر فعل مرضى ، أو قد يحرك ويثار من جديد بقوة يبدو معها أنه سبب فعال من غير أن يكون فى الواقع سببا فعالا .

١٠ — العلاقة بين الطبيب والمريض .

إن طريقة العلاج النفسانى تقوم على أساس العلاقات التى تربط الطبيب بالمريض . إن المواجهات الشخصية التى تؤدى إليها تعتبر أساساً للتكيف مع المجتمع وللمواجهات التى يتطلبها هذا التكيف .

١١ — نقل Transfert

إن العلاقات القائمة بين الطبيب والمريض قد تتخذ أثناء العلاج الشكل الخاص للنقل الذى يكون إسقاطاً من محتويات اللاشعور .

١٢ — التخفيف التحليلى La réduction analytique

إن تخفيف النقل يكشف عن نيات النقل البعيدة فى تاريخ المريض وفى تثبتاته أثناء الطفولة ، وبفضل هذا التخفيف والحذف تدخل تلك النيات فى منطقة اللاشعور .

١٣ — التوسع التأليفى Le dévelop- pement synthétique

الطريقة التأليفية التى يعمل بها تحاول أن تدخل فى اللاشعور معنى المحتويات المسقطة فى النقل بفضل طريقة التضخيم والايضاح والتوسيع .

١٤ — العلاج Thérapie

يختلف منهج العلاج باختلاف حاجات الحالة العلمية الراهنة . ولا بد من اعتبار ما يأتى :

(١) النصائح العملية ، والوسائل الايحائية وأخيراً مجرد الاعتراف .

(٢) تأثير عامل أو أكثر من العوامل الجرجية (العضوية) .

(٣) فى حالات أخرى يلزم استعمال التخفيف والحذف فى بعض مواقف الابتداء عند الطفولة .

(٤) فى حالات أخرى لا بد من تحليل النقل وسلوك المريض العام وموقفه . فى الفقرتين الثالثة والرابعة لا غنى عن تحليل الاحلام .

(٥) إذا لم يظهرأى تحسن جوهرى بالرغم من تحسن التكيف والتوافق ، فمعنى ذلك أنه يتحتم تجهيز محتويات النقل تجهيزاً تأليفيا élaboration synthétique . كذلك فى بعض الحالات قد تكون الطريقة التأليفية من أول وهلة ممكنة ومجدية .

والجدال االذى احتدم بعد ذلك بين الدكتور ريس من لندن والاستاذ يونج ، أظهر مقدار الهوة التى تفصل بين النزعة التجريبية empirisme الانجلوسكسونية ، والنزعة التعيينية الألمانية dogmatisme فالأولى تهتم بالنتيجة وتترك لكل طبيب نفسانى طريقته الشخصية . أما الثانية فهى تناهض الفردية وتتشبث بالعلم الصحيح وتحاول أن تمجد القوة . الدكتور ريس رجل واقعى لايهتم كثيراً بالنظريات . فقد نظم أثناء الحرب العيادات النفسانية فى الجيش البريطانى ، مرسلا الجنود إلى الميدان أو إلى الخلف حسب الطباع الدفينة عندكل منهم . وقد قوى بذلك الروح المعنوية وحسن الانتاج . أما يونج فهو بالعكس مرتاح فى مكتبه منفرد بمريضه . إنه رجل

المشاكل الداخلية والعلاقات الشخصية والصداقة .

وقد أدلى الدكتور لا فورج ممثل فرنسا بمبدأين وسطين وهما (١) أن التسامح أمر ضرورى للعلاج النفسانى الذى يجب بطبيعته أن يقضى على اليقينية والتشيعية، فهما من الأمراض الجمعيه التى تصحب عصور الانتقال . (٢) وأن العلاج النفسانى فى تقدم عظيم ؛ وهو باعتباره علم الحركة (الديناميكا) بالنسبة للفرد ، ليس فى الامكان التعبير عنه بعبارات الاستقرار (الاستاتيكا) كما لا يمكنه أن يثبت عند حد بصورة دائمة .

وآخر الأمر قبلت النقط الأربع عشرة كمبادئ بعد أن احتفظ كل واحد من أعضاء المؤتمر لنفسه « بحق التعبير عنها بالصيغة التى يراها أكثر ملاءمة لحاجاته الخاصة » .

أندريه مالرو فيلسوف الجولية غير الرسمى

فى نوفمبر من سنة ١٩٤٦ وهو الشهر الذى عقدت فيها الهيئة الثقافية للأمم المتحدة جلساتها ، ألقى المسيو مالرو محاضرة كانت أول محاضرة له منذ الحرب . وكان موضوع محاضرته الثقافة ، وقد جمع فيها أهم موضوعات قصته الأخيرة « الصراع مع الملك» *La lutte avec l'ange* التى ما زال الجزء الأكبر من الجمهور يجهلها لقلة الأعداد التى أصدرتها لها الطبعة السويسرية .

إن المبدأ الأساسى الذى يأخذ به المسيو مالرو هو أن الانسان يعرف بذاته لا بعمله ، ويذهب به ذلك إلى إنشاء فلسفة للاشعور . إن قصص مالرو تتتبع مراحل حياته : الثورة الصينية فى سنة ١٩٢٧ ، والثورة الألمانية فى ١٩٣٣ ، والثورة الأسبانية فى ١٩٣٦ وأخيرا تنظيم المقاومة فى فرنسا أثناء الاحتلال . وقد قاتل مسيو مالرو فى كل من تلك الحركات إلى جانب الشيوعيين . ولكنه لم يكن معهم كما ظن بعضهم . لذلك كان انضمامه إلى الجنرال ديجول بصفته أمين سره مفاجأة للجميع ، حتى إنه يتولى يوما وزارة الاستعلامات ، وصادف نجاحا لا يستهان به فى الانتخابات الفرنسية الأخيرة .

إن فلسفة أندريه مالرو تساعد على إيضاح معنى الجولية . وأول فكرة عزيزة على مالرو هى فكرة الحضارة . فهو يرى أن المؤرخ مهما بحث فى أبعد عصور التاريخ ، وأقدمها ، لا يجد إلا جماعات لا أفراداً منعزلة . والتاريخ البشرى هو تاريخ الحضارات . فالحضارة هى أسلوب من أساليب الحياة ، قد يعبر عنه بمنشآت فنية وآثار كما قد يعبر عنه بنظام سياسى . وهى تولد وتموت . هناك إذن حضارات زائلة (ميتة) كحضارات الشرق التى قضى عليها الاسراف فى تأمل الطبيعة وانعدام الشخصية ، وقد تسلمها من الشرق ثوار الغرب . والجولية على هذا الاعتبار أبعد من أن تكون حزبا محافظا ، بل هى حركة من تلك الحركات التى تنشئ « الامبراطوريات العظمى » . إنها حزب الامبراطورية الفرنسية ؛ إن بها ما يشبه تقديس الملاحم التاريخية وتقديس الرجل العظيم وتقديس الازدهار الفنى .

والفكرة الثانية هى فكرة الحضارة الأوربية . إذا كانت الحضارة نظاما مكونا من قيم مبتكرة ، فالغرب قد شهد مولد حضارتين : الحضارة الأمريكية والحضارة الروسية ، كما شهد زوال حضارة ثالثة هى الحضارة الأوربية . فالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وهما فى أشد تقدمهما الاقتصادى ، انتزعا من أوربا إيمانها العقلى البحت فى رقى مستمر للعلم ورقى مقابل له من الضمير . غير أن أوربا لم تستنفد كل قوتها فى خلق القيم ، وسينتج عن الانتعاش الراهن حضارة جديدة . إن ذلك الايمان بالعقل ليس هو خير ما فى التراث الأوربى ، إن خير ما فيه هو الانشاء المتصل لقيم عليا . إن الصفة الأوربية الحقة هى الارادة فى الشعور والارادة فى الاستكشاف ، وتفضيل الناحية السيكلوجية على المنطق ، وتغلب الثورة على كل أسلوب من أساليب الحياة يأتى من الخارج .

لاشك فى أن تلك القيم تعنى نقطة ابتداء ، ولاتستطيع أن تتكهن بما ستكون عليه نقطة الوصول للحضارة التى ترسم خططها . إن علة عظمة أوربا بل مأساتها نفسها ، هى أنها تقبل ما هو مجهول ، وتنصب نفسها لحماية الانسان . من هنا كانت الجولية مرتبطة بفكرة الكتلة الغربية ، وهى القوة الثالثة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة . وهى على نقيض الماركسية ذات صبغة صوفية وليست نظرية اقتصادية . إنها تدين برأى هيجل .

وآخر فكرة هامة لمالرو هى فكرة الانسان . إن هناك شرطا أوليا لا بد منه للرد على هذا السؤال : ما هو الانسان ؟ إن كلا من علم الأمم والتحليل النفسانى والأدب والتصوير ، يسائل ذلك السؤال . لقد مات الانسان القديم . ولا بد من ترك الثقافة التقليدية ، وإعداد بناء هذا الأوربى الحديث الذى يعتبر آخر تحول ظهر فى البقاء الانسانى . ليس الانسان الجديد ملكا أو قديسا وإنما هو بطل . إنه يصارع العالم الخارجى الذى يريد أن يجعله أشد إنسانية ، وذلك بفضل الانتاج الفنى أكثر منه بفضل الأداة الصناعية . وهو يصارع أحيانا «الملك» الذى يسر إليه أنه خالد لن يموت ويشير عليه أن يتكئ على هذه الفكرة .

تعد الماركسية البشر السعادة . ولكن هل يريد البشر السعادة ؟ أما الجولية فهى تعرض عليهم العظمة ، إنها نوع من الجمال وليست نوعا من الأخلاق . إنها تعتبر ناحية العظمة خير ما فى كل فرد منا ، وهى تحاول أن تستثير خير ما فى الانسان . ومن هنا يدرك معنى عبارة الجنرال ديجول : « تمهيد الطريق من أعلى » خلق الانسان إذن ليلزم نفسه ويلزم الآخرين بأن يقيموا دائما فى « طريق الذرا » .

خاتمة

هل الحضارة الصناعية هى الحضارة الحقة أم لا ؟ هل التاريخ متروك أمره للمصادفات ؟ وهل هو خاضع لقوانين الاقتصاد السياسى ؟ وهل كان إنسان الأمس يختلف كل الاختلاف عنا ؟ ماذا سيكون إنسان الغد ؟ ذلك هو السؤال الذى يسأله فى كل أنحاء أوربا أعضاء المؤتمرات والمحاضرون . وربما اتجهت الردود المختلفة

التى أجاب بها على السؤال نفسه الأب تيلار دى شاردان ومرلو بونتى وكوهين سيا ومالرو وكامو وعلماء التحليل النفسانى ، اتجاها واحدا حيث تلتقى . وربما كان ذلك إيذانا بمولد إنسانية جديدة . إن فرنسا على جهلها التام بالحضارات الأجنبية مازالت تعتقد أنها مركز تلك الانسانية .

دمديه أنزيو

نقلها عن الفرنسية إلياس نعمان حكيم

شهرية السينما

الأزمة الراهنة فى السينما الأمريكية

إن صناعة الأفلام فى أمريكا تمر الآن فى أزمة شديدة . نلحظ هذه الأزمة فى جميع الأفلام التى تعرض علينا فى هذه الأيام : فهى واضحة فى القصص التى تخرج فى ستوديوهات هوليوود ، وفى أساليب الاخراج ، وفى التصوير حينا ، وفى التمثيل أحيانا . وهذا لا يعنى أن فى هوليوود ركودا عاما أو إهمالا سائدا فى الانتاج . فهناك محاولات يبذلها أفراد للتجديد والابتكار ، نذكر منهم اثنين شهدنا ما وصلوا إليه من نتائج ، وهما أورسون ويلز الذى تكلمت عنه فى المقال السابق ، وروبرت مونتجومرى الذى ابتدع نوعا جديدا من الأفلام حيث تلعب آلة التصوير الدور الرئيسى فى القصة ، أو بمعنى آخر حيث لا تسجل إلا ما يراه الفتى الأول الذى يقص علينا قصته . وقد شهدنا هذه الطريقة الطريفة فى إخراج فيلم « السيدة فى البحيرة » *Lady in the Lake* . أما المخرجون الآخرون فمنهم من يتبع منهجا بعينه لا يحاول أن يغير منه شيئا ، ومنهم من لايجد سبيله إلى الابتكار فيحاول أن يحاكى من يراهم أقدر منه على الابتكار . وقد تحدثت فى العدد السابق عن طريقة عرض الحوادث بالتقهقر التى ابتدعها أورسون ولز وتناولها بعده المخرجون فى هوليوود وأسرفوا فى استعمالها دون مسوغ حتى فقدت طراقتها . لقد شهدت مايزيد على أربعة أفلام فى أسبوع واحد عرضت حوادثها على هذا النمط ، وهى « لن يصدقونى » و « انهيار » و « قضية أسرة ما كومبر » و « هيومورسك » فجميع هذه الأفلام تبدأ من نهايتها لا لشئ إلا للمحاكاة التى لا مسوغ لها . ففى الفيلم الأول « لن يصدقونى » يبدأ الشريط فى المحكمة حيث يقص المتهم قصته ، والثانى يبدأ فى مستشفى حيث نرى سيدة قد اختفى وجهها تحت الأربطة البيضاء وهى تعانى آلاما مبرحة من حروقها . ثم يستعرض لنا الشريط قصة هذه المرأة حتى وقوع الحادث . أما الثالث وهو « قضية أسرة ما كومبر » فنرى فى أوله وصول جثة ما كومبر بالطائرة ، ثم نعلم كيف قتل هذا السيد من اعترافات الصياد ولسون أثناء التحقيق . وهذا الفيلم قد وضع قصته الكاتب الأمريكى إرنست همنجواى وأخرجه بيندكت بوجوس . والقصة تافهة ، والاخراج مهمل كل الاهمال حتى لجأ المخرج إلى مناظر فيلم قديم عنوانه « التاجر هورن » ليصور مناظر الصيد وعدو الوحوش فى غابات كينيا . ومن يشهد الفيلم يشعر شعوراً قويا بأن الممثلين لم يواجهوا وحشا ولم يذهبوا إلى غابات إفريقية . هذا عدا الضوء الردئ الذى جعل الصورة بيضاء غير واضحة المعالم أحيانا . أربعة أفلام أخرجت على نمط واحد وعرضت فى وقت واحد . أليس هذا دليلا كافيا على ما تعانيه الأفلام الأمريكية من أزمة لا نرى معالمها فى الاخراج فحسب وإنما نراها أيضا فيما تنشئ أمريكا من قصص ؟ لقد شهدنا فى هذا الشهر فيلمين ما هما إلا اعادة لفيلمين

سابقين لقيا فيما مضى بقصتيهما أو بجوهما نجاحاً كبيراً . نجد فى قصة « انهيار » تكرارا لفيلم « عطلة الأسبوع المفقودة » . « فانهيار » ما هو إلا قصة امرأة امتحنت بداء الخمر بعد أن أهملها زوجها ليتفرغ لفنه . و « عطلة الأسبوع المفقودة » الذى ظفر بجائزة فى مهرجان كان ما هو أيضا إلا قصة شاب امتحن بالداء نفسه . أما الفيلم الثانى فهو فيلم « دراجون ويك » الذى يعد من القصص السوداء ويذكر بجوه القاتم فيلم « ربيكا » الذى أخرج منذ أكثر من أربع سنوات . وقد يذكرنا أيضاً هذا الفيلم « بجين إير » للتشابه الذى يوجد بين بطلى القصتين . فثمة تكرار فى القصة وفى جوها وفى رسم شخصياتها . فكأن مخرجى هوليوود وكتابها لم يستطيعوا إلا أن يحتذوا نماذج وضعت لهم خصيصا ليحاكوها تمام المحاكاة ، غير معنيين بأن يجددوا فى تأليفهم وإخراجهم . وهذا لا يعنى أن فيلم « دراجون ويك » لم يصب نجاحا كبيرا ، أو أنه أخفق إخفاقا شنيعا لانك تلمس فيه شيئا من الجهد وإن لم يصل إلى حد العنف . فقد لجأ المخرج إلى طريقة طريفة ليعبر عن اللعنة التى تعذب هذه الأسرة . لقد رمز إلى هذه اللعنة بشبح امرأة يعود إلى القصر حين توشك الكارثة أن تقع ويأخذ فى الغناء ، ولكن لا يسمعه ولا يراه أحد غير أفراد الأسرة الملعونة . وقد تجد أيضا فى الفيلم بعض صور تذكرك باللوحات الفنية الهولندية .

وما دمنا نتحدث عن الاسراف فى عالم السينما الأمريكية فلنتحدث عن الأفلام الملونة . هذا نوع من الأفلام أسرف فى استعماله ، وأسئ إليه فى كثير من الأحيان مع أنه جدير بالعناية ؛ لأنه يساعد المصور على تحقيق صور فنية جميلة تنسجم فيها الألوان ؛ ولأنه يساعد المخرج أيضاً على أن يسبغ على فيلمه طابعا واقعيا . ولكن للآن لم ينجح هذا النوع من الأفلام إلا فى الملهاة الراقصة فحسب إذ تزيد الألوان الصورة بهجة وروعة . أما فى الأفلام الأخرى ، وخاصة فى الأفلام السوداء ، فلم تنجح الألوان فى إعطاء طابع واقعى للشريط . فالسماء تبدو أكثر زرقة من الواقع ، والوجوه تظهر أكثر احمراراً من الحقيقة . وهناك عنصر آخر ضرورى للأفلام السوداء أو القصص العنيفة وهو الضوء القاتم . وهذا الضوء لايمكن إظهاره فى الصورة الملونة ، مع أنه يبدو جليا فى الصورة البيضاء أو السوداء التى تفوق الصورة الملونة فى أنها تسمح لخيال الشاهد أن يسبغ على الأشياء الألوان التى تروق له ، وأغلب الظن أنه أكثر قدرة على إيجاد اللون الطبيعى الملائم . ولننظر إلى الفيلمين الملونين « السماء الزرقاء » و « غضب الصحراء » فالأول منهما فيلم غنائى راقص ، والثانى فيلم مغامرات وحب . ولست أرمى هنا إلى دراسة الألوان فحسب أو قيمة الصورة الملونة ، وإنما أريد أن أعرف إلى أى حد يلائم هذا النوع من الأفلام كلا القصتين . « فالسماء الزرقاء » فيلم مرح ملىء بالأغانى والاستعراضات الراقصة ، والموسيقى الشجية المطربة . فالألوان هنا ساعدت على إبراز رونق هذه الاستعراضات ، وساهمت فى إنشاء جو مرح طول الشريط . كانت الألوان هنا إذن عنصرا مهما فى إخراج القصة . أما فى الفيلم الآخر « غضب الصحراء » فلن نجد للألوان مسوغا إلا نزوة المخرج . فهذا فيلم غرامى تافه القصة يطمح إلى أن يكون مأساة عنيفة ، ولكن لا يجد سبيله إلى أن يكون مأساة عنيفة ، لما أدخل عليه المخرج

والقاص من مشاهد وتفاصيل لا يجرؤ على إضافتها إلا الأمريكيون . لقد أراد المخرج أن يجعل الشاهد فى لهفة على بطلة الرواية التى تحب رجلا شريراً ، فأسرف فى المشاهد الخطيرة ، والمعارك العنيفة ، والعدو فى طرق الصحراء الموحشة ، إلى غير ذلك . ولو كان هناك مناظر طبيعية تستدعى استعمال الألوان لاظهار حسنها لوجدنا مسوغا للصورة الملونة . ولكن لا القصة ولا المناظر تسوغ استعمالها : فربما كان المخرج يرمى إلى إظهار لون شعر ليزابيت سكوت ممثلة الفيلم !

فالسينما الأمريكية إذن تعانى أزمة شديدة رغم هذا الانتاج الضخم الذى تغمر به أسواق العالم . وهى إزاء هذه الأزمة التى تزداد وضوحا إذا نظرنا إلى المحاولات الناجحة التى يقوم بها المخرجون الأوربيون عامة والفرنسيون والانجليز والايطاليون خاصة لا تفعل شيئاً . لقد شهدنا ما قام به كوكتو وريتيه كلير فى السينما الفرنسية وأعجبنا بآثارهما . وسنشهد ما قام به الايطاليون عما قريب فى أفلامهم : مثل « روما مدينة مفتوحة » و « بايزا » و « شوشا » . فالانتاج الأوربى حالا يهدد الانتاج الأمريكى ، لاسيما أن السينما الأمريكية لا تجد من يجدد فى أساليبها ويزودها بالقصة الصالحة الحسنة . نعم إن هنالك أورسون ولز وروبرت مونتجمرى وسام وود . ولكن أيكفى ابتكار هؤلاء لاحياء السينما فى أمريكا؟ لم نر منذ أمد بعيد أفلاما فيها شئ من التجديد والابتكار . ففرانك كابرا دائب على اتباع أسلوبه فى الاخراج ، وسيسيل دى ميل دائب أيضا على تحقيق أفلامه حسب منهجه المألوف . والآخرون مثل نيجولوسكو وسيلزنيك وبوجوس ، هؤلاء الأشخاص الذين تملأ أسماؤهم دنيا السينما دويا لا يسعهم إلا محاكاة أساليب ويلز ؛ وإن أتوا بأسلوب مبتكر فسرعان ما يسرفون فى استعماله حتى يمله الشاهد . فهؤلاء المخرجون يعتبرون أسرى لأساليب موضوعة ولقوانين بالية لا يستطيعون مخالفتها . لابد لهم من الاستوديو ولا بد لهم من التزييف ليعرضوا علينا الواقع . ألا يمكنهم أن يتركوا معامل التزييف ليصوروا مناظرهم ؟ فلماذا لا يصورون شخصيات قصصهم فى شوارع المدن أو بين أحضان الطبيعة كما يفعل الايطاليون حين وجدوا أن معدات استوديوهاتهم لا تصلح لتصوير الحقيقة : فالجماهير فى الأفلام الايطالية جماهير صورت فى مدن إيطالية لا حشد من الكومبارس ، والشوارع فى الأفلام الايطالية شوارع حقيقية لم تشيد من الورق المقوى فى فناء الاستوديو . والسينما فى إيطاليا تمتاز بهذا الطابع الواقعى الذى تخلو منه الأفلام الأمريكية المزيفة .

وإذا كانت الأفلام الفرنسية لا تجد معدات تساعدها دائما على الاخراج المتقن فانك تجد فيها ما ينسيك هذا الضعف . فالقصة فى كثير من الأحيان حسنة قوية ، والحوار أدبى رفيع ، والصورة جميلة متقنة ، والتمثيل يدل على فن سام . ففى فيلم « الفتاة ذات العينين الخضراوين » سحرنا فرناند لودو بتمثيله المتقن وبقدرته على التعبير الصحيح . ولننظر إلى فيلم « صورة مطابقة » الذى مثله لويس جوفيه . إن قصة الفيلم تافهة لا قيمة لها ، ولكنها تتيح للممثل أن يظهر فنه فى أدوار عدة ، إن صح أن نعتبر أدوار الشخصيات التى انتحلها بطل القصة . فهذا لص مغامر وجد له شبيها فاتخذه ليتستر وراءه أثناء مغامراته ، وكان هذا الشبيه صورة مطابقة للص . وقد قام لويس جوفيه بتمثيل الشخصيتين : والشاهد

لايلمس عبقرية جوفيه فى التمثيل إلا فى دور الشبيه لأنه بدا فى دور اللص كما اعتدنا أن نراه دائما ، لم يغيّر شيئا من تعبيراته ولا من نبرات صوته . أما فى الدور الثانى فقد غير كل شيء : اختلف التعبير كل الاختلاف ، وتبدل صوته تمام التبدل ، وحتى قامته ، وتعثر فى مشيته . ولم يكن الفيلم إلا ليظهر لنا جوفيه ممثلا قديراً . فأنت تلمس فى الأفلام الفرنسية محاولات تكون ناجحة حينا ، أو تكون بين النجاح والاخفاق حينا آخر ، ولكن على كل حال تلمس طموح الفرنسيين إلى الوصول إلى الفن الصحيح . وستتيح لنا الفرصة أن نرى ما أنتجته فرنسا من أفلام قيمة مثل « الصمت من ذهب » و « معركة القضبان » و « السنفونية الريفية » . لما نر تلك الأفلام ولكن ما قاله عنها النقاد ومن شهدوها فى فرنسا ينبئنا أنها إنتاج فنى رائع .

وخلاصة القول أن السينما الأوربية قد تقدمت بعد الحرب تقدما أقلق الامريكيين وإن كان لم يدفعهم إلى تحسين إنتاجهم ؛ بل دفعهم إلى زيادة عدد الأفلام التى ينتجها الأستوديو ليغمروا السوق ويحولوا دون تصدير الأفلام الأوربية . وهم حين يعملون لهذا الانتاج لا يهتمون بقيمة ما ينتجون ، وإنما يعنون بعدده . وقد توصلوا إلى عقد معاهدات تمنع بعض الدول من تصدير أفلامها إلا بعد سنة أو سنتين من إنتاجها . وهذه الاجراءات وإن كانت تسمح لامريكا أن تواصل صناعة الأفلام ، فهى لا تحل الأزمة التى تزداد فى هذه الصناعة . إنه من المؤلم أن نرى هذا الفن يسقط تلك السقطة فى أمريكا ولا يحاول أحد أن يرفعه . وأكبر الظن أن أوربا قد تلقت هذا الفن وأنها قد أحيته تماما . لقد انتقل فن السينما من أمريكا إلى أوربا نهائيا .

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

RENOUVEAU DE LA LITTÉRATURE COMPARÉE

ETIEMBLE

نهضة الأدب المقارن*

حين انتوى مونتانى Montaigne أن يرحل إلى إيطاليا ، لم يكن عليه إلا أن يعد كيسا مليئا ، وحصانا وخادما . أما عن جواز السفر فلا تسل . وقبل حرب ١٩١٤ كان يستطيع من يريد رؤية الدنيا أن يراها دون عائق يعوق حريته اللهم إلا ما كانت تفرض عليه تركيا وروسيا من قيود . أما فى عام ١٩٣٦ ، فما أكثر الأختام والمرور بالجمارك التى تفرض على من يريد السفر من باريس إلى هولندا . وعندما كنت أقيم بشيكاجو عام ١٩٤٠ ، أردت أن أمضى بضع أسابيع فى المكسيك ، فكان على أن أعد فى حقائبى حقيبة خاصة للوثائق اللازمة لتلك الحملة . ولقد وجد المتصنعون snobs فى هذا فائدة لهم ومسرة : فهم يعددون تراخيص السفر إلى البلاد الأجنبية كما لو كانوا يحصون أجدادهم من الأشراف ، ويصطنعون الكثير من ذلك العبث الذى كان يدفعهم إلى جمع بطاقات الفنادق . أما الآخرون، أولئك الذين يريدون أن يحيوا حياة الرجال ، حياة بسيطة ومليئة أيضا ، فما برحوا يسائلون أنفسهم لم تكون الصلات اليوم من وطن إلى آخر أكثر صعوبة مما كانت فى زمن الحريات .

ولا يصح الادعاء بأن كثرة تلك التراخيص والأوراق قد منع اللصوص الدوليين ، أو الجواسيس الأعداء من تأديتهم مهمتهم فى سلام . فان أى رجل من رجال الشرطة ، وأى عضو من أعضاء الأحزاب الثورية يعرف كيف يصنع أوراقا مزيفة . وقد أثبت التاريخ الحديث لجماعات مقاومة الاضطهاد النازى ، أن رجالا أقوياء قد استطاعوا أن يجوسوا خلال أوربا ساخرين من رجال الجستابو . ولم يكن عبثا تقسيم الأرض وتفريقها بهذه الصرامة وخاصة فى عهد الاستبداد . فما كان تقطير الأجانب إلا لوقف الآراء التى سرعان ما تنتشر بانتشار الكلمات السيارة mots-voyageurs (ولنذكر تاريخ الكلمة الصينية تشا teh'a التى صارت فى الروسية تشاى tchai وفى العربية شاى ، وفى الفرنسية ، تيه thé الخ) . فالحواجز الجمركية تستخدم إذن فى وقف الكتب والمجلات والأفكار . وقد ساعد تشويش الأمواج اللاسلكية (أو منع استخدام أجهزة الراديو التى تستطيع التقاط المحطات الضعيفة والبعيدة) على جعل حدود الدول أسوار سجن بدلا من أن توحد بين الشعوب .

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

فليست مصادفة إذن أن تختفى فى سنة ١٩٤٠ مجلة الأدب المقارن *Revue de Litt. comparée* التى أنشئت عام ١٩٢٠ منذ نهاية الحرب العالمية الأولى لتؤكد حاجات العقل وضرورات الاتحاد الثقافى ضد ما كان يسود الناس من بغض . «فما هو الأدب المقارن إذا لم يكن دراسة التبادل الحر ؟ فلو قد ظهرت هذه المجلة أثناء الاحتلال ، لقضت على نفسها بأن تقطع أوصالها ، وألا تفحص من المؤثرات إلا ما يسير فى اتجاه واحد ، وألا تدرس من الآراء إلا ذات الاتجاه الواحد . ولو قد فعلت ذلك لفرضت على نفسها أن تصمت عما يحدث فى انجلترا وفى أمريكا. كلا ! لم يكن هناك مكان لهذا النوع من الدراسة ، لا مكان لدراستنا فيما دعى « النظام الجديد » ، لا مكان لها فى نظام من الأوتوقراطية الفكرية حيث كان المرء يلقى فى كل طرق المدينة اللافتة « ممنوع » Verboten التى تحدد ما يسمح للمرء برؤيته . وما أكثر ما كرر المعهد الألمانى بباريس دعواته لى ، ولكن عبثا ! كانت ترسل لى باستمرار فى السوربون الكراسات الفرنسية الألمانية *Cahiers Franco allemands* ، والكتيبات التى كانت تصدرها جماعة التعاون Collaboration وعديد من المطبوعات الأخرى الآتية رأسا من برلين . لقد صمتنا» (١) وليست مصادفة أيضا أن يكون مارسيل باتايون ، وجان مارى كاريه J. M. Carré — وهما المديران الحاليان للمجلة واللذان أبانا عن حبهما للدراسات البشرية الأجنبية humanismes étrangers أحدهما بكتاباته عن جوته Goethe والآخر ببحوثه عن أرزمس Erasme فى أسبانيا — أثناء فترة احتجاب المعرفة ، فى قمة النضال الجامعي .

أسفاً ! إن أول كراسة من المجلة هى رثاء لبول هازارد P. Hazard (الذى مات قبل أن يرى عودة المجلة التى أسسها وأدارها طيلة عشرين عاما . مات قبل أن يقرأ التجارب الأخيرة لكتابه : « الفكر الأوربى فى القرن الثامن عشر » *La pensée européenne au XVIIIe Siècle*) وتقرأ فيها آخر دراسة أعدها هذا الأستاذ العالم ، وهى مقدمة لكتاب إرزمس « ثناء على الجنون » *Eloge de la folie* وفيها يمتدح روح النقد . وإنه لأمر « رائع ومنقذ » فى نفس الوقت أن تظهر روح النقد فى ساعات التاريخ التى تكون فيها الآراء التقليدية قد استنفدت أغراضها . وإنه لمن الخير أن تعود مجلة الأدب المقارن إلى الحياة لتحيا فى إرزمس « هادم الآراء الزائفة » ، ذلك لأننا اليوم فى حاجة إلى اثنين أو ثلاثة من طراز إرزمس .

وقد ظهرت أربع من تلك الكراسات : ديدرو وهولانده ، برانجيه فى ألمانيا Béranger en Allemagne ؛ جوته وفاليرى Goethe et Valry ؛ كاموئس فى ألمانيا Camoëns en Allemagne ؛ بوكاس والقصة الفرنسية فى عهد النهضة ؛ ريلكه وفان جوج Rilke et Van Gogh ؛ رسكين وبروست Ruskin et Proust ؛ فنكلمان وأندريه شنييه Winckelman et Chénier كوستيس بالاماس وأوربا Costis Palamas et l'Europe ؛ مونتانى عند أصدقائه الأنجلوسكسون Montaigne chez ses amis anglo-saxons ؛ جوته والأدب فى العالم Goethe und die

---

(١) هذا ما كتبه كاريه J. M. Carré فى مقدمته للعدد الأول من المجموعة الجديدة .

Weltliteratur ؛ مانزونى فى فرنسا Manzoni en France ؛ بنـوا بيكار أنموذج شيلر ؛ بوشكين المدافع عن مدام دى ستال . وماذا عن الشرق ؟ هناك كتاب للآنسة دفرنوا Dufrénoy عن الشرق الأسطورى فى فرنسا (وهناك جزء آخر فى طور الاعداد وسيشمل المراجع الخاصة une bibliographie) ؛ وهناك كتـاب عن بارس والشرق *Barrès et l'Orient* ؛ وهنـاك كتاب عن « السعدى فى فرنسـا » *Saadi en France* للـكاتب بنشنب Bencheneb [1] .

رسكن وبروست ، جـوته وفالـرى ، السعدى وفرنسا . كل شئ يتوقف على هـذا الحـرف : « و » ؛ حـرف العطف المتواضع هـذا ، لا يصل بين كلمتـين من الجمـلة ، ولا بـين فعـلين ولا بين جملتين ، وإنما بين رجلين ، بين عملين ، بين نوعين ، بين بلدين ، بين عالمين .

كثيراً ما أخـذت على الأدب المقـارن تحفظـات حقة : من المؤكد أن هـذه الدراسة لا تلغى المتعة الأدبية وأنها لا يمكن (ولا هى تدعى ذلك) أن تقـوم مقـام الدراسـة التحليلية للأعمال الأدبية . واليوم ، وقـد أخذت الخـلافات الوطنية يساء استخدامها فتصبح قطيعة أدبيـة ، نخطىء إذا قللنا من قيمـة الدراسات فى الأدب المقـارن ومن المثل الذى تضربه . فهـذه الدراسـات تدلنا على أن الصـلات بين فرنسا وبين الثقافة العربية لم تكن قط أكثر منها يوم كان الاسلام والمسيحية يتصارعان على السيادة فى البحر المتوسط ، وأن الصراع بـين فرنسا والأسرة المالـكة النمساوية لم تمنع كتابنا الـكلاسيين من حبهم للأدب الأسبانى ، وأن الجزويت

---

(١) يدهشنى ألا يحصى حتى الآن من بين تلك المؤلفـات ، كتاب بريفو Briffault عن « التروبادور والمشاعر الأسطورية » . فهل سننتظر حتى تطبع فى كتاب الرسالة التى قدمها حـديثاً الدكتور محمد عبد الحميد عنبر إلى السوربون وعنوانهـا : « مشكلة التأثير العربى فى شعراء التروبادور الأول» *Le problème de l'influence arabe sur les premiers troubadours* . وكلمـات الأستاذ عنبر الأخيرة ، تؤيد ما قاله ج . م . كاريه Jean Marie Carré فهى تدمغ التعصب الشائع فى أعمال الأدب المقارن . وبهذه المناسبة أقول إن رسالة الأستاذ عنـبر تدعونى إلى أن أعـدل عبارة من المقـال الذى سبق أن نشرته هنـا عن بريفو Briffault : (فيما عدا الحب الجسدى ، كشف العرب لشعراء التروبادور بعض قواعـد الحب الفاضل) . وهى تؤيد نظرية بريفو فى كتابه : «التروبادور والمشاعر الأسطورية » . ويقول الأستاذ عنبر إنه من العدل أن نقول إن أسبانيا المسلمة فى القرن الحادى عشر كانت السبب فى انبثاق كل هذه الأغنيات فى بروفانس Provence .

نشر حديثا مقالان فى عدد خاص لمجلة « الـكاييه دو سود » *Les Caliers du Sud* عن الاسـلام والغرب يثبتان تأثير الشعراء الأندلسيين فى نشأة الشعر فى الـبروفانس . إن الفـكرة صحيحـة إذن . ولـكن ، لـكى لا نغالى فى التأكيد كما فعل مسيو جانروا الذى كان ينكر أى تأثير عربى ، يستحسن أن نذكر أن اللغـة اللاتينية فى العصور الوسطى كانت تستبدل القافية بالوزن المعتاد خاصة فى التراتيل الدينية وأن التروبادور قد استمدوا ميلهم المتجدد لنظام القافية من مصادر عدة .

الذين رحلوا لغزو الصين فى القرن السابع عشر قد كشفوا لأوربا عن حكمة كونفشيوس — رغم إخفاقهم فى حملتهم الدينية — وقد أتاحوا لفولتير موضوع كتابه : « يتيم الصين » *Orphelin de la Chine* . وهذه الدراسات تعلمنا أيضاً أن كل أدب يفرض على نفسه حدوداً وطنية إنما يشوه ويفنى ، وأنه كلما فتحت الحدود العقلية كان نتاج ثقافة ما أعذب وأكثر أصالة . إن ما وهبه مونتانى لشكسبير [١] قد أعاده شكسبير بعد قليل إلى فرنسا . الحقيقة كما كان يقول الحكيم لاو تسى Lao-tseu ، هى حركة ذهاب وحركة إياب . والأدب المقارن يؤيد صحة ذلك .

وإذ كانت دار النشر Guillaume Budé تعد مجموعة من الأدب العربى بنصوصة الأصلية وترجمته الفرنسية ، فى حين تقوم دار الكاتب المصرى والآداب الفرنسية Lettres Françaises بنقل آثار بعض الكتاب الذين يمثلون فرنسا الحديثة [٢] أعظم تمثيل ، فلنرج ولنعمل لأن تكون عودة هذه الصلات دائمة ونهائية . ولا خوف من مضار المؤثرات . لنذكر قول بول فاليرى : «صنع الأسد من خروف مهضوم » .

انيامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

---

(١) بترجمة فلوريو Florio .

(٢) ظهر فى العربية ترجمة : برجسون *Essai sur les données immédiates* ، «سلامبو» لفلوبرت Flaubert, *Salammbo* وذلك فى طبعة : (الآداب الفرنسية ، بيروت) . وظهر أيضاً « الباب الضيق » ، « أوديب — ثيسيوس » لجيد فى طبعة الكاتب المصرى (القاهرة) . . . وقد أعلنت طبعة Budé عن نصوص عربية وترجمة فرنسية لشعر عربى من الجاهلية ، وعدة مختارات أخرى (شعر أندلسى ، شعر أموى ، شعر معاصر) . وأعلنت أيضاً عن طبع المتنبى ، وابن سينا ، وابن خلدون ، والغزالى ، الخ .

من وراء البحار

أزمة الدولار

تكلم عدد نوفمبر من مجلة «العالم اليوم» بين مقالاته عن أزمة الدولار وبعض تأثيراتها. فقال كاتب المقال إن بعض الاقتصاديين يتكرون عبارة أزمة الدولار أو نقص الدولار؛ ومن بينهم مستر روى هارود الذى أنكرها بتاتاً، وقد يكون فى ذلك شئ من الحقيقة. وهو يرى أن العجز فى الميزان الحسابى لبريطانيا إنما هو نتيجة لاتساع برنامج السكن والبناء، وأنه لو أنفقت جهود الرجال والمواد التى وجهت هذه الوجهة فى إنتاج الحاجيات للتصدير أو بدلا مما يستورد، لصغر كثيراً مقدار العجز الذى عانته بريطانيا، وأنه يمكن إعادة التوازن سريعاً إذا نقصت بريطانيا من نفقاتها فى هذا الميدان.

وإذا كان فى هذا الرأى شئ من الحقيقة، فانه ليس الحقيقة كلها؛ لأنه لا يقدر بعض العناصر فى الحالة العالمية الآن إلا فيما يتعلق بالاتجاه العام نحو التضخم. ولم يعمل فى هذا الرأى حساب عدم التوازن الاقتصادى بين الجزء الغربى والشرقى من الكرة الأرضية، بل عدم التوازن بين ممالك مثل كندا والولايات المتحدة وهما واقعتان فى جزء واحد من الكرة الأرضية. ولم يحسب فى هذا الرأى حساب سوء حالة المحصول بأوربا الغربية فى هذه السنة، وهو يكاد يكون كارثة.

وعبارة النقص فى الدولارات تعبر عن حقيقة واقعة، هى أن العالم بأسره أخذ يتوسع فى برنامجه الانشائى وتضخمت أمواله، لكى يستطيع بناء الدور والطرقات والجسور والمصانع وحفر مناجم جديدة وشراء آلات صناعية وآلات المناجم. وهو يعبر كذلك عن واقعة أخرى هى أن الولايات المتحدة، وإن أصابها شئ من التضخم، يدل عليه الارتفاع المستمر فى مستوى الأسعار، قادرة على عمل أمرين فى وقت واحد: أولها الاتساع فى برنامجها الانشائى، والآخر تقديم كميات ضخمة للعالم من الأطعمة والمواد الاستهلاكية والآلات إما هبة أو قرضاً.

ويختلف رأى الناس فى تفسير هذا التناقض الغريب بين حالة الولايات المتحدة وأحوال جميع البلدان الأخرى فى العالم تقريباً. ومما لا ريب فيه أن ثراء أمريكا فى المواد الخام ونجاتها من أضرار الحرب وحرية تجارتها الدولية ونشاط شعبها ومهارته فى الأمور الصناعية والزراعية، كل ذلك مما يفسر هذا الأمر. ولكن أليس من الممكن أن تكون السياسة التى جرت عليها أمريكا، وهى أنها تخلت فى الحال عن التنظيمات الحربية والرقابات الاقتصادية التى دعت إليها الحرب والتى كانت مطبقة فيها بشدة أكثر مما هى فى أى بلد آخر من العالم — أليس من الممكن أن يكون ذلك مما جعل لها التسلط الحالى الاقتصادى؟

كل ما تهم معرفته هو أن قوة الولايات المتحدة فيما قبل الحرب لم تمنع سائر العالم من إيجاد التوازن بينها وبينه. ولذلك لم يكن من المعقول أن يستمر العالم متأثراً بالنقص فى الدولار؛ إذ ليس فى أحواله الطبيعية والسياسية ما يؤيد مثل هذا الفرض. فالموقف الحالى هو نتيجة أسباب بسيطة غير مستمرة. وأهم هذه الأسباب هو ما أصاب

أوربا من خراب ونهك على أثر الحرب . ومما زاد الحالة سوءا أن بذلت مجهودات فى بريطانيا وغيرها من بلاد أوربا لمعالجة الأمور بسرعة أكثر مما يجب ، والقيام بمشروعات فى البناء وفى التطور الصناعى أكثر مما تتحمله موارد تلك البلاد ، وهذا ايتطلب من الحرمان أكثر مما يقره أهلها . ومن الأسباب الاضافية الهامة وقوع أضرار فى الجنوب الشرقى من آسيا وحدوث انفصال سياسى على أثر الحرب فى الأراضى الاستعمارية فى تلك الأنحاء . ولقد كانت الولايات المتحدة من قبل تستورد مقادير كبيرة من الصفيح والمطاط ومنتجات تلك المناطق . وكانت هذه الواردات سلسلة حيوية فى التوازن التجارى بين بريطانيا وأوربا من جهة والولايات المتحدة من جهة أخرى . فاذا لم تعد إلى تلك الجهات قوة التصدير ولم تجد إقبالا من الولايات المتحدة على صادراتها ، فيكون من الصعب جدا على أوربا أن تستأنف العلاقات التجارية على قاعدة طبيعية مع الولايات المتحدة ومع كندا أيضاً .

والآن لنتجه بالبحث نحو تأثير أزمة الدولار التى أدت إلى إعلان الحكومة البريطانية فى ٢٠ أغسطس الماضى ، وقف حق تحويل الجنيه الاسترلينى إلى دولار ، وهو الحق الذى كانت ترتبط به بريطانيا مع عدد من الدول الأخرى . وكانت بريطانيا مقيدة به بموجب القرض الأمريكى الانجليزى الذى عقد فى سنة ١٩٤٦ .

لقد كان الغرض من هذا القرض عند المفاوضين فيه أنه يمكن بريطانيا من بلوغ التوازن فى ميزانها الحسابى فى ثلاث سنوات ، فاذا جاءت سنتا ١٩٤٩ و ١٩٥٠ تمكنت بريطانيا من الوصول إلى هذا التوازن ، وتبتدئ من سنة ١٩٥١ فى الوفاء بالقرض وفوائده . وقد اختيرت بريطانيا لهذا النوع من المساعدة لأنه كان من المتوقع أن توجه إدارة التعمير والانشاء عنايتها دول أوربا . ولكن نص فى شروط هذا القرض على أن تقوم بريطانيا بعد ١٥ يوليه سنة ١٩٤٧ بتحويل جميع الجنيهات الاسترلينية التى نشأت عن معاملات جارية إلى دولارات إذا رغبت البلاد المتعاملة فى ذلك . وكانت الفكرة عند الأمريكيين لا أن تشرك بريطانيا البلاد الأخرى فى قرض الدولار بل ألا تتأثر الصادرات الأمريكية بقلة الدولارات بسبب عدم إمكان تحويل الجنيه الاسترلينى . وكان القصد من النص الوصول من أقرب طريق إلى حرية المعاملة والتجارة العالمية المتشعبة . وظهر من سير الأمور أن الخطوة كانت سابقة لأوانها ، وأن بريطانيا قد أشركت فى الواقع سائر العالم فى الدولارات التى جاءتها عن طريق القرض وكانت مخصصة لها وحدها .

والواقع أن بريطانيا اضطرت فى عدة اتفاقات مع بعض البلاد أن ترضى بتحويل الجنيهات الاسترلينية إلى دولارات قبل ١٥ يوليه ، وهذه البلاد هى الأرجنتين والبلجيك والبرازيل وكندا وإيطاليا والبرتغال . والطريقة التى اتبعت فى ذلك هى أن بنك انجلترا قد فتح لكل دولة من هذه الدول حساباً تحويليا يمكن استعماله بناء على شروط القرض . وقد اضطرت انجلترا إلى هذا الاجراء لأن هذه البلاد تقدم مواد ضرورية وكان الميزان التجارى مع انجلترا فى صالحها . ولو أن بريطانيا لم تفعل هذا لما رضيت الدول أن تستمر فى إمدادها بهذه المواد . وقد كان من تأثير تحديد ١٥ يوليه أن صار الناس أقل ثقة بالاسترلينى كلما رأوا أن دولارات القرض تقل بسرعة

دون أن تبذل الحكومة البريطانية مجهودات فعالة للقضاء على تيار الاستيراد .

ومهما يقل من الآراء فيما يتعلق بالاسراف فى استعمال القرض ، فانه كان من المحتم أن يستهلك هذا القرض فى مدة وجيزة ؛ إذ أنه حدث ارتفاع كبير فى مستوى الأسعار بالولايات المتحدة منذ يوليه سنة ١٩٤٦ . كما أن بريطانيا أخفقت فى إنتاج المقدار الكافى من الوقود فى فبراير سنة ١٩٤٧ ولذلك لم يكن القرض كبيراً بحيث يؤدى الغرض المقصود منه .

ومما يؤسف له أشد الأسف أن تكون لأزمة الدولار الحاضرة نتيجتان سيئتان : أولاهما أنه إذا لم تقدم مساعدة سريعة لأوربا فان جزءاً كبيراً منها سيكون على حافة المجاعة قبل ظهور المحصول القادم وسيصحب ذلك الانقلاب السياسى والفوضى . فأزمة الدولار من هذه الوجهة هى أزمة رداءة المحصول فى أوربا .

والنتيجة الأخرى هى أن هذه الأزمة تهدد بانكماش شديد فى التجارة بين الدول الأوربية فى وقت تكون فيه هذه الدول فى أشد الحاجة إلى المعونة فيما بينها . فمعنى عدم إمكان تحويل الجنيه الاسترلينى إلى دولار وانتهاء الاحتياطى من الدولار فى أوربا أنه لا توجد عملة دولية تقبلها جميع الدول وتتعامل بها . فليس هنالك دولة ترغب الآن فى الجنيه الاسترلينى أو غيره من أنواع العملة ما عدا الدولار غير الموجود. ولذلك فان العالم يسير نحو تبادل تجارى ثنائى أى تحاول كل دولة يكون ميزانها الحسابى فى غير صالحها مع دولة أخرى أن تقلل من وارداتها من تلك الدولة . وهذا مما يهدد العالم بانخفاض التجارة بين أرجائه بسبب عدم وجود عملة موثوق بها .

ومما لا شك فيه أن لجنة التعاون الاقتصادى الأوربى متنبهة إلى هذا الخطأ ويلح خبراؤها بضرورة القضاء على التضخم وإيجاد التوازن فى كل من الدول المشتركة فى اللجنة ؛ ثم إيجاد نظام لتحويل العملات الأوربية بين هذه الدول . ويرى هؤلاء الخبراء أن مثل هذا النظام هو خطوة ضرورية لايجاد سياسة تجارية تكون أكثر حرية فى أوربا .

ويرى الخبراء الماليون أن هذا النظام يكون عبارة عن بناء يعلو الاتفاقات الثنائية التى تعقدها الدول فيما بينها ؛ فتستطيع الدولة الدائنة أن تحول الزيادة لديها من عملة الدولة المدينة إلى أية عملة أخرى حسب حاجات تجارتها . وفى نهاية الأمر يمكن تحويل هذه العملات إلى ذهب أو دولارات بشرط أن يحصر استعمال الذهب أو الدولارات فى أضيق نطاق .

واقترحت اللجنة المالية أن يعقد مؤتمر من خبراء فنيين لوضع تفصيلات هذا النظام . وقد عقد المؤتمر فعلا ، ولكنه لم يصل إلى نتيجة حاسمة. وهذا ليس غريباً؛ فان وضع مثل هذا النظام فى أوربا يتطلب أمرين : أولا إيجاد سلطة جديدة أو بعبارة أخرى إيجاد مصرف مبادلات ليقرر طريقة التحويل والمعاملات . وثانياً ضمان الولايات المتحدة لتقديم دولارات بدلا من أية مقادير من العملة لا ترغب الدول المشتركة فى مصرف التبادل الأوربى فى قبولها .

ومن الواضح أن الأمر الثانى يتوقف على السياسة الأمريكية ، كما أنه يجب على الدول الأوربية أن تعمل لوقف التضخم والوصول إلى التوازن فى حزم . ومع ذلك فالثقة فى الأمور المالية تتطلب وقتاً. وإيجاد السلطة التى تتولى أمور المصرف التبادلى يحتاج إلى زعامة، وقد يكون من الطبيعى أن تتولى بريطانيا

هذه الزعامة بالنسبة لتجارتها وشهرتها فى أمور التجارة الدولية ، وأن يكون الاسترلينى هو واسطة الحساب فى المصرف التبادلى ، بشرط أن يكون قابلا للتحويل إلى دولارات أو ذهب .

على أن الماليين البريطانيين يترددون فى قبول مثل هذه المسئولية وقد يكون الوقت غير ملائم الآن لقبولهم مثل هذا العمل . ولكن مما يرجوه كاتب المقال ، إذا وجد مشروع عملى ليس فيه التواء ، ألا تتردد بريطانيا فى الاشتراك فيه ، وأنه من صالحها كما أنه من صالح كل دولة فى العالم أن تكون لها تجارة دولية حرة نشيطة ، بل ذلك شرط أساسى لوجودها الوطنى .

ظهر حديثا

بين يدى الآن كتب أربعة تختلف موضوعاتها ومادتها وأغراض أصحابها أشد الاختلاف ، ولكنها على ذلك أو من أجل ذلك تصور حياتنا العقلية أصدق تصوير ، وهى إلى ذلك تسر وترضى وترد إلى نفوسنا القلقة بعض الطمأنينة ، وإلى قلوبنا النازعة إلى اليأس فى هذه الأيام شيئا من الاستمساك بالأمل ، وإلى عقولنا المائلة إلى التشاؤم شيئا من الميل إلى التفاؤل والاستبشار ؛ لأن هذه الكتب كلها تعطينا من حياتنا العقلية صورة ملائمة إلى حد ما للحياة العقلية التى نشهدها فى كثير من الأمم الراقية .

فالحياة العقلية فى هذه الأمم تأتلف من عناصر ثلاثة : أولها عنصر الرجوع إلى القديم لاحياء ما يصلح للحياة منه وصوغه فى الصيغة المعاصرة التى تلائم ما طرأ على القلوب والعقول من تغير ، وتلائم الظروف الجديدة التى تخالف تلك الظروف التى أحاطت بالقديم حين أنتجته الأجيال الماضية .

والثانى الاتصال بالحياة العقلية المعاصرة فى الحياة الأجنبية ، لاستخلاص ما يلائم مزاج الشعب منها ، ولتغذية هذا المزاج بها وتمكينه من أن يثبت وينمو ويصفو ويمضى فى سبيله إلى الرقى غير متلكئ ولا متعرض للجمود والخمود .

والثالث الانتاج الخاص الذى يصور شخصيتنا وما يكونها من العواطف والأهواء والميول ومن الخواطر والأفكار والآراء ، محتفظاً فى هذا كله بما لابد من الاحتفاظ به من الخصائص الموروثة ، ملائما بينه مع ذلك وبين ما يطرأ من حقائق التطور ومظاهره .

وسيرى القارئ أن هذه الكتب الأربعة تبين فى وضوح أن حياتنا العقلية ما زالت مؤتلفة من هذه العناصر على رغم ما يحيط بنا من الخطوب ، وعلى رغم الظروف التى تعرض حياتنا العقلية للضعف والانحلال . فما يسر ويرضى إذن أن هذه الحياة ما زالت قوية خصبة ، تقاوم الخطوب وتغالب الأحداث وتمضى فى طريقها لاتتأثر إلا قليلا بهذه الأعراض التى تحد النشاط وتثبط الهمم وتفل العزائم . ولعل هذه الكتب الأربعة تصور ظاهرة أخرى من الظواهر التى تمتاز بها حياتنا العقلية فى هذه الأيام الشداد ، وهى محاولة الهرب من الواقع البغيض إما إلى الماضى فى الزمان لنساير قوما كانوا راضين مستبشرين ، وإما إلى الحاضر فى مكان بعيد عنا يعيش فيه قوم يفكرون على نحو غير النحو الذى نفكر عليه ويتأثرون بمؤثرات غير التى نتأثر بها ، وإما إلى الخيال نتخذه وسيلة إلى التخلص مما يحيط بنا من الظروف ويثقلنا من الاعباء .

ونحن فى أثناء هذا كله لا ننسى بيئتنا ولا نعرض عن أنفسنا ، وإنما نفر منها لنعود إليها بما ينفعها ويصلح من شأنها بعض الاصلاح .

رسائل صينية تأليف لويس ديكنسن ترجمة الدكتورة سهير القلماوى (دار المعارف بمصر)

وأول هذه الكتب هذا السفر الضئيل النحيل الممتع على ضآلته ونحوله ، أو الممتع لضآلته ونحوله ؛ لأنه لا يثقلك ولا يشق عليك ، ولا يخيفك حين تأخذه وتنظر فيه ، ولا يلقى فى روعك أنك ستحتاج إلى إنفاق الوقت الطويل والجهد المتصل لتقرأه . وأنت مع ذلك لا تكاد تبدأ قراءته حتى يشغلك عن نفسك وعما حولك ، و إذا أنت ممعن فيه حتى تفرغ منه . ثم تعود إلى نفسك فاذا أنت لم تفارقها ، وتعود إلى ما حولك فاذا أنت لم تتركه . ذلك لأن المترجمة قد حاولت أن تفر من نفسها ومن بيئتها إلى كتاب إنجليزى يتحدث عن الصين فأبعدت فى الفرار . وأين مصر من انجلترا ! وأين مصر من الصين ! ولكن المترجمة مع ذلك قد أبعدت ولم تبعد ؛ فالموضوعات أو الموضوع الذى يتناوله الكاتب متصل بمصر أشد الاتصال وأقواه ؛ لأنه الاختلاف بين الشرق والغرب ، والاصطدام بين الاستعمار المتغلب المتسلط والمغلوب الذى أعوزته القوة المادية ولم يعوزه التراث القيم ولا القوة الروحية الخصبة ؛ فهو ينكر الغرب ومذهبه فى فهم الحياة وتدبيرها ومذهبه فى النظر إلى الشرق ومحاولة الغض منه والتسلط عليه . فهذه الفكرة هى التى تشغل المصريين ، بل تشغل الشرقيين منذ استيقظ الشرق . فلتصدر هذه الرسائل عن الصين أو عن الهند أو عن ايران أو عن مصر ، فهى إنما تعبر عما تضطرب به النفوس الشرقية كلها من هذا الشعور المر بتسلط قوم ليس لهم الحق فى أن يتسلطوا ، وخضوع قوم لا ينبغى لهم أن يخضعوا ، وبأن للشرقيين من حضارتهم الموروثة وأخلاقهم ومذهبهم فى الحياة وتدبيرها ما هو خليق أن يكفل لهم حسن الرأى فيهم وحسن الظن بهم ، وأن يكفل لهم العزة والكرامة والسلطان إن أتيحت لهم الوسائل المادية لتحقيق هذه الخصال . وهم خليقون إذا ظفروا بعزتهم وكرامتهم ، وسلطانهم ألا يطغوا كما طغى الغرب ، وألا يستعلوا ولا يستأثروا كما يستعلى الغربيون ويستأثرون ؛ لأن لهم من حضارتهم وتراثهم الروحى ما يعصمهم من التكبر والتجبر ومن العدوان والطغيان .

ولست فى حاجة إلى أن أصف مذهب الكاتب فى الكتابة وأسلوب المترجمة فى الترجمة . فالكاتب الانجليزى لويس دكنسن أشهر وأظهر من أن يحتاج إلى تعريف ، ومكانه الأدبى العالمى أظهر من أن ندل عليه . والدكتورة سهير القلماوى قد عرفها القراء الشرقيون جميعاً بما يمتاز به أسلوبها من اليسر والقرب والارتفاع مع ذلك إلى أرقى منازل البيان .

ألوان من أدب الغرب للأستاذ على أدهم (دار المعارف بمصر)

وقد أبعد الأستاذ على أدهم كما أبعدت الدكتورة سهير القلماوى ، ولكنه ظل فى أوربا يتنقل بين شرقها وغربها وشمالها وجنوبها ، يقتطف زهرات من هنا ويجتنى ثمرات من هناك ، ثم يقدم هذا كله إلى قراء العربية ، ولسان حاله يقول كما كان يقول الشاعر الفرنسى لحبيبته : « إليك هذه الأوراق والغصون والثمار والأزهار . » ولكنى لا أدرى أيضيف كما أضاف الشاعر لفرنسى : « ثم إليك بعد ذلك قلبى الذى لا يخفق إلا لك . »

فلست أدرى أيصلح الشرق العربى الآن موضوعا للغزل .

والأستاذ على أدهم واسع الثقافة عميقها رفيعها ، مع أنه لم يسلك إليها الطريق المعبدة التى تعود الناس أن يسلكوها ، وإنما أخذ ثقافته بالقوة والعنف وافتتحها عنوة ، إن جاز هذا التعبير . فهو لم يتخرج فى جامعة مصرية أو أوربية ، وإنما تخرج فى جامعة خير من الجامعات كلها ، فى غرفة من غرفات داره عكف فيها على الدرس والبحث والاستقصاء ، وتعمق حقائق الأدب والفلسفة والتاريخ ، فظفر من الثقافة الرفيعة الممتازة بما لم يظفر به كثير جدا من الذين تخرجوا فى الجامعات ، بل من الذين اشتغلوا فى الجامعات ليخرجوا فيها الطلاب .

وكتابه هذا مزاج رائع من التأليف والترجمة جميعا ؛ فهو يتحدث إلينا عن جماعة من الكتاب الممتازين فى روسيا وأسبانيا وإيطاليا وبلجيكا حديث من درسهم فأحسن درسهم . ثم أراد أن يظهر مواطنيه على بعض ما يمتازون به من الخصائص وعلى بعض ما أنتجوا من الآثار ، متخيراً فى ذلك موفقا فى الاختيار ، يعرض ما يريد أن يقول ، ثم يترجم من آثار الكاتب أو من آرائه ما يثبت هذا الذى عرضه . وكل ذلك فى أسلوب يسير قريب يخيل إليك أن الكاتب لم يبذل فيه جهداً ولم يحتمل فيه عناء . ولكن حاول إن شئت أن تسلك الطريق التى سلكها وأن تنشئ كتابا كالذى أنشأه ؛ فستعلم حينئذ أنه قد بذل الجهد أعنف الجهد واحتمل العناء أشد العناء . وهو مع ذلك لا يتمدح ولا يستطيل ولا يبتغى جزاء ولا شكوراً وإنما هو حب المعرفة للمعرفة وحب النفع ؛ لأنه يعلم حق العلم أن لا خير فى عالم لا ينفع الناس بما علم .

الحان الحان للأستاذ عبد الرحمن صدقى (دار المعارف بمصر)

أما الأستاذ عبد الرحمن صدقى فقد أبعد الزمان والمكان جميعا ، فهو يتحدث إلينا عن أبى نواس الذى عاش فى القرن الثانى للهجرة ومات فى أوائل القرن الثالث . وهو يتحدث إلينا عن أبى نواس شاعر اللهو والمجون ومغنى الخمر والسكر والعبث .

ولست أدرى أكان أبو نواس خليقا أن يرضى بهذا العنوان الذى اختاره الأستاذ صدقى لكتابه والذى يرضى عنه أصحاب البيع كل الرضا لما فيه من هذا الجناس التام . فقد كان أبو نواس يلم بالبيع ولكن إلمامات قصيرة خاطفة . ولكن الشئ

المحقق هو أن هذا العنوان خفيف على اللسان غريب الموقع فى الأذان، مغر بقراءة ما يأتى بعده من الحديث. وإغراؤه صادق حسن، لا يغر ولا يخدع ولا يكذب القارئ ولا يخيب أمله، وإنما يرضيه كل الرضا ويقنعه كل الاقناع.

وقد وفق الأستاذ العقاد حين جمع بين الأستاذ صدقى والأستاذ على أدهم فى مقال واحد نشرته الرسالة أخيرا. فالأستاذ عبد الرحمن كصديقه الأستاذ على أدهم من هؤلاء الذين سلكوا إلى الثقافة الممتازة طريقا رسموها لأنفسهم فأحسنوا رسمها وأحسنوا سلوكها، وانتهوا إلى غايتها فى كثير جدا من المشقة والجهد لا يعلمه الذين يقرءون كتبهما ويجدون فيها ما يجدون من متاع العقل والقلب جميعا.

فالأستاذ صدقى لم يتخرج فى الأزهر ولا دار العلوم ولا فى كلية الآداب بجامعة فؤاد، ولكنه يتقن الأدب العربى كما لا يتقنه كثير جدا من الأزهريين و «الدرعميين» — إن أجاز المجمع اللغوى هذا النحت — والجامعيين.

وقد قرأ الناس له منذ أعوام قليلة رسالة موجزة ممتعة عن حياة أبى نواس، فلم يكتفوا بالرضا عنها وإنما أعجبوا بها إعجابا شديدا. وهو الآن يقدم إليهم سفرا ضخما يدرس فيه أبا نواس شاعر الخمر والمجون درسا دقيقا مفصلا مستقصى، كأحسن ما يكون الدرس وكأروع ما تكون الدقة والتفصيل والاستقصاء. وأيسر النظر فى هذا الكتاب يدل فى وضوح على أن الأستاذ عبد الرحمن صدقى قد قرأ ديوان أبى نواس كله فأحسن قراءته وفهمه والنفوذ إلى أغراضه وأسراره. وما أقل الذين يجدون فى أنفسهم القدرة والشجاعة على قراءة ديوان من دواوين الشعر القصار فكيف بديوان طويل عريض عميق متنوع أشد التنوع مختلف أعظم الاختلاف، كديوان أبى نواس!

والأستاذ صدقى لم يقرأ ديون أبى نواس مكتفيا بنسخته المطبوعة الشائعة؛ لأنها قد طبعت على عجل فكثر فيها الغلط والخلط، وإنما صحح ما قرأ، رجع إلى النسخ المخطوطة التى أتيح له الوقوف عليها، ثم تتبع شعر أبى نواس فى كتب الأدب وأسفار النقد، فلم يرو ما روى من الشعر إلا عن علم وثقة وحسن استيثاق. ثم هو لم يكتف بقراءة أبى نواس وانما قرأ شعر الذين عاصروه والذين سبقوه والذين جاءوا بعده فى وصف الخمر واللهو ليعرف لأبى نواس مكانته عن دراية وفهم. ثم هو قد قرأ بعد ذلك ما كتب الكاتبون عن أبى نواس فى العصور القديمة وفى العصر الحديث، لم يهمل أو لم يكد يهمل من ذلك شيئا.

وما عسى أن يطلب إليه المتشددون فى مناهج البحث أكثر مما فعل، ولكنه هو قد فعل أكثر مما يريد المتشددون فى مناهج البحث. فاتخذ شعر أبى نواس ولهوه ومجونه وسيلة إلى الدرس المفصل لأشياء كان يستطيع أن يلم بها إلماما قصيرا. فهو يصف أندية اللهو ومجالس الشراب والأديرة التى كان اللاهون والماجنون يخلون فيها أو يجتمعون فيها إلى لهوهم ومجونهم لا فى العراق وحده ولكن فى الشام ومصر. ثم هو يستقصى بعد ذلك أشياء أخرى كثيرة مختلفة إن دلت على شئ فانما تدل على أنه قد بذل أعنف الجهد، وظفر بأحسن التوفيق.

ولو لم يكن الأستاذ صدقى قد أهدى إلى قرائه إلا هذه الجملة الضخمة الصالحة من شعر أبى نواس وأصحابه مصححة مصفاة

مبرأة من الخطأ لكانت هذه الهدية قيمة عظيمة الخطر ، فكيف وهذه الجملة الصالحة من شعر أبي نواس وأصحابه ليست إلا مادة قد أخضعها الكاتب لذكاء نافذ وذوق مترف وشعور دقيق . فجمع الدراية إلى الرواية ، ونقد فأحسن النقد ، واستنبط فأجاد الاستنباط ، وعرض علينا صورة لعصر أبي نواس إلا تكن مطابقة للأصل كل المطابقة فهي قريبة منه أشد القرب .

والذين يعرضون لموضوع كهذا الموضوع على أسلوب كهذا الأسلوب معرضون من غير شك مهما يجيدوا ومهما يتقنوا لشئ غير قليل من النقد الذى يتصل بالكتاب فى جملته كما يتصل بكثير من الدقائق والمفصلات .

وما أحب أن أعرض للنقد المفصل، فليس هذا موضع النقد المفصل ، وإنما ألاحظ شيئين تركتهما قراءة الكتاب فى نفسى وكنت أحب ألا تتركهما :

الأول أن الأستاذ عبد الرحمن صدقى شغل بلهو أبى نواس ومجونه ونصوص الشعر الذى يصور هذا اللهو والمجون أكثر مما شغل بفن أبى نواس . فمن الحق أن أبا نواس أبرع شعراء العرب فى تصوير الخمر وما يلابسها من رغبة فيها وتهالك عليها ، وإن كنت أتحفظ بعض التحفظ فلا أقول كما قال الأستاذ صدقى إنه أشعر شعراء العالم فى هذا الفن . لا لأنى أقطع بأن هناك شعراء فى لغات أخرى قد تفوقوا على أبى نواس ، بل لأنى لم أوازن بين أبى نواس وبين الذين وصفوا الخمر من شعراء اليونانيين واللاتينيين والأوربيين المحدثين والمعاصرين. وأنا واثق كل الثقة بأن الأستاذ صدقى لم يعمد إلى هذه الموازنة ، ولعله لا يستطيع أن يعمد إليها ؛ فهو لا يستطيع أن يقرأ شعر هؤلاء الشعراء فى لغاتهم الكثيرة المختلفة ليستطيع أن يرضى مذهبه فى الموازنة الدقيقة عن علم واستقصاء .

أقول إن الأستاذ عبد الرحمن صدقى شغل بشعر أبى نواس فى الخمر عن فن أبى نواس فى هذا الشعر . فهو لم يبين الوسائل الفنية الدقيقة التى اصطنعها أبو نواس فى تصويره للهو والمجون وفى تغنيه للخمر والشراب . ثم هو لم يبين لنا مكان أبى نواس من الناحية الفنية الخالصة بالقياس إلى الذين سبقوه كالأعشى والأخطل وبالقياس إلى الذين عاصروه من أصحاب البديع وغير أصحاب البديع . ورواية الشعر الكثير المصحح قيمة ، والاستدلال بهذا الشعر على حقائق التاريخ قيم أيضا . ولكن هناك شيئا آخر أقوم من هذا كله ، وهو النقد الفنى لهذا الشعر والاستدلال به على استكشاف الخصائص التى يتمايز بها الشعراء .

الشئ الثانى أن الأستاذ عبد الرحمن صدقى قد وازن بين خمريات وخمريات فذكر عمر الخيام ، ووازن بين التفاؤل والتشاؤم فذكر أبا العلاء ، هذا الباب كله من كتابه يحتاج فيما أعتقد إلى أن يعاد النظر فيه . فمن أيسر اليسر أن يقال إن أبا نواس كان متفائلا ، ولكن من أعسر العسر أن يعلل هذا التفاؤل . وقد جعلت أسأل نفسى منذ حين أكان أبو نواس وأصحابه المجان متفائلين حقا أم كانوا متشائمين . فهذا العكوف على اللهو والانقطاع للذات والتتبع للشهوات وإرضاء الغرائز ، والتصريح بذلك فى غير تحفظ ، والاستهتار بذلك فى غير احتياط ، إنما يدل على فساد فى الحياة الاجتماعية والسياسية وعلى انتقال خطير من طور إلى طور ، وعلى انهيار للقيم الثابتة الموروثة وعجز عن إنشاء قيم أخرى مكانها . ومثل هذا الطور من أطوار الحياة لا يدعو إلى التفاؤل ولا إلى

الرضا، وإنما يدعو إلى التشاؤم والاشفاق، ثم إلى انتهاز الفرص والتخلص بانتهازها من آلام الحياة الواقعة.

وعمر الخيام أكان متفاءلا أم كان متشائما؟ فمن التشاؤم ما يتخذ مظاهر البهجة واللذة. وكيف يوازن بين عمر الخيام وأبى نواس، ولا يوازن بين عمر الخيام وأبى العلاء؟ وهناك أشياء أخرى قد نخاصم فيها الأستاذ عبد الرحمن صدقى. ولكن خير الكتب ما يثير أسباب الخصام.

سلوى فى مهب الريح قصة مصرية للأستاذ محمود تيمور بك (مطبعة الاستقامة بالقاهرة)

ولم يرتحل الأستاذ محمود تيمور بك إلى الشرق ولا إلى الغرب ولم يبعد فى الزمان ولا فى المكان ليأتينا بقصته هذه الرائعة البارعة حقا، وإنما أقام بيننا فى مصر، بل أقام بيننا فى القاهرة. ولم يكن له بد من أن يقيم بيننا ليقدم إلينا أثره هذا الممتع الرفيع؛ فهو إنما انتزع هذا الأثر من حياتنا انتزاعا واستخلصه منها استخلاصا بعد أن تعمقها حتى وصل إلى أدق أسرارها وأعمق دخائلها، دون أن نحس جهده فى ذلك أو نشهد ما احتمل فيه من العناء. وكذلك الكتاب البارعون من أصحاب الخيال الممتاز النافذ يسحرون الناس عن أنفسهم ويسرقون منهم ضمائرهم ثم يقهرونهم بعد ذلك ويفرضون عليهم لا أقول الرضا والاعجاب، بل أقول ماهو خير من الرضا والاعجاب وهو الاستمتاع الفنى الخالص من جهة، وتغذية القلب والعقل والشعور من جهة أخرى.

وفن الأستاذ محمود تيمور ليس فى حاجة إلى وصف أو تحليل؛ فقد عرفه قراء العربية جميعا أدق معرفة وأصدقها لكثرة ما قرءوا من آثاره الممتعة، ولأنه عرض عليهم مذهبه فى الفن عرضا لم ينسوه بعد، بحيث أصبح الذين يتحدثون عن آثاره الجديدة إنما يقصدون إلى التسجيل والشكر أكثر مما يقصدون إلى التحليل والنقد.

وقصة سلوى هذه قد وصلت إلى فى أعماق الريف الفرنسى أثناء الصيف الماضى، فلم ألق إليها بالا أول الأمر إذ كنت عنها مشغولا فأرجأت النظر فيها إلى وقت من أوقات الفراغ، ثم رجعت بها إلى باريس وفى باريس هممت أن أستريح إليها من بعض الجهد، فهى تصرفنى صرفا تاما عن كل ما كنت فيه من قراءة وزيارة وإملاء، وإذا أنا أفرغ لها ولا أفارقها حتى أفرغ منها. وإذا استطاع الكاتب أن يردنى إلى القاهرة وإلى الريف المصرى وأنا مقيم فى باريس، وأن يصرفنى عما تعودت الاقبال عليه حين أكون فى باريس من القراءة والاملاء والزيارة والاضطراب فى الحياة الباريسية، فقد استطاع أمرا عظيما.

والواقع أن قصة سلوى هذه من أمتع ما كتب الأستاذ محمود تيمور ومن أنفعه ومن أنفذه إلى حقائق النفس المصرية. فهذه الفتاة التى تنشأ فى بيئة متوسطة قريبة إلى الطبقة العليا والتى تختلف عليها ظروف الحياة، وإذا هى تصور لنا طبقات المعاصرين من المصريين جميعا، قد درسها الأستاذ تيمور فوفق فى درسها إلى أبعد حدود التوفيق. فتاة ساذجة نقية كأحسن ما تكون السذاجة والنقاء، ما تزال بها ظروف الحياة حتى

تجعلها امرأة شريرة آثمة كأشنع ما يكون الشر والاثم ، ثم تردها المحنة آخر الأمر إلى شيء من هذا الصفو الشاحب الكئيب الذى يشيع فى النفس غير قليل من الرضا الحزين. والغريب أنك لاتجد فى هذا التطور شيئا من الاحالة أو الاغراب أو التكلف . فالشر يأتى للفتاة من أمها وما أكثر ما تجنى الأمهات على البنات . والشر يأتى إلى الفتاة من حسنها ، وما أكثر ما يجنى الحسن على الحسان . والشر يأتى إلى الفتاة من الاغراء ومن الفقر بعد الغنى ومن الطمع بعد القناعة ومن الطموح بعد الاعتدال ومن الخمر ، وما أكثر ما تجنى هذه المغريات كلها على الرجال والنساء جميعا! وما أعرف قاصا مصريا قد أتقن تحليل النفس المصرية وتصوير ما يحيط بها من الظروف التى تدفعها إلى ما تدفعها إليه من الاحسان والاساءة كما أتقن ذلك الأستاذ تيمور فى قصته هذه .

فأما سلوى وعشاق هذه الأم والباشا وابنته وزوج ابنته ورفاق سلوى والخدم فى بيوت الطبقة الوسطى وفى قصور أصحاب الثراء العريض وفى مواطن اللهو والفجور ، كل أولئك قد حلت نفوسهم كأدق ما يكون التحليل ، وعللت أعمالهم كأصدق ما يكون التعليل ، وصورت حياتهم كأبرع ما يكون التصوير . والشاب الذى كتب عليه الاخفاق وفرض عليه اليأس فى حياته العقلية والصحية وفى آماله الكبيرة وأعماله الصغيرة وتفكيره السخيف قد صور تصويراً يهز النفوس حقا . والغريب أن القارىء لا يجد فى هذا كله جهداً ولا مشقة ولاعناء ، وإنما يقرأ فى يسر ويرضى فى يسر ويسخط فى يسر ، ثم يحزن الحزن الأليم العميق فى يسر أيضا ، ثم يخرج من هذه القراءة وعلى ثغره ابتسامة يسيرة حزينة مرة فيها كثير من الألم وفيها كثير من الأمل . فقد صور الأستاذ تيمور لنا حياة بشعة إلى أبعد غايات البشاعة، ولكنه مع ذلك لم يؤيسنا من روح الله ، ولم يقنطنا من أن فى النفس المصرية وفى الحياة المصرية ما هو خليق أن ينتهى بها إلى الاصلاح وأن يرقى بها إلى الخير .

طه حسين

فى مجلات الشرق

من لبنان

العرفان العدد ١ : ٣٤ (نوفمبر ١٩٤٧)

من مقال للسيد عارف النكدى بك رئيس مجلس الشورى فى سورية ، عنوانه « القوة المعنوية » :

« القوة هى التى تسيطر على هذا العالم : تدير شئونه وتدير أمواله ، لا سلطان إلا لها ولا غلب إلا بها . . . والخلق لفظ أجوف لا قيمة له إلا إذا ساندته القوة . . . ونحن العرب لسنا إلى يومنا هذا فى شىء من القوى المادية ، فماذا عسى أن يكون مصيرنا ؟ إن مصيرنا رهن بأيدينا ، يكون كما نريده أن يكون ، إذا نحن آمنا بحقنا ووطننا . إن وراء هذه القوى المادية التى نوهنا بعظمها وخطرها ، من عدد غفير ، ومال وفير ، وعلم غزير — قوة أعظم أثرا وأشد خطرا ، تلك هى الايمان أو القوة المعنوية كما يسمونها اليوم . وإذا كانت القوة المادية فى يد الانسان وعضله ، وهما يغلبان ، فان القوة المعنوية فى عقله وقلبه ، وهما لايغلبان . وماذا عسى أن تبلغ قوة الجسم بما تجره وراءها من ظلم واستبداد من قوة الروح بما فيها من عقيدة وإيمان ؟

« نذكر للعرب فيما يذكر من تاريخهم مواقف كانوا فيها ضعفاء فى المادة ، أقوياء فى الايمان ؛ فتمت لهم الغلبة ؛ ومواقف كانوا فيها أقوياء فى المادة ضعفاء فى الايمان فتمت عليهم الغلبة .

وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى
ولا الأمن إلا ما رآه الفتى أمنا !

« قال النبى العربى الكريم : نصرت بالرعب مسيرة شهر ! يريد أن الله مكن هيبته فى قلوب أعدائه فاستولى عليهم الخوف ، فاذا كان بينه وبينهم مسافة شهر هابوه وفزعوا منه !

« وفى هذا المعنى يقول على : ما لقيت رجلا إلا أعاننى على نفسه !

« إن ما يحتاج إليه العرب فى يومهم هذا إنما هو القوة المعنوية التى غلبوا بها يوم كانت لهم ، وغلبوا بها يوم خلوا منها . إننا نريد هذه القوة ، لا للغلبة بل للتحرر . وليس للاستعمار بل للاستقلال ! »

الأديب العدد ١٢ : ٦ (ديسمبر ١٩٤٧)

من مقال للأديب إلياس خليل زخريا ، عنوانه « أفعوان » يصف به ما يرسف فيه الفكر العربى من قيد ، وما لا يزال يتقيد به الحاكم العربى من قيد :

« يقف الحاكم العربى من الفكر العربى موقف الحذر والقلق والخوف ، ويراه — كلما رآه — أفعى تلتف فى ثورة الهجوم على عنقه فتنثر حبات اللؤلؤ وزمرد العقود ، فتخلو

القصور كما خلت الأبراج القديمة إلا من أحاديث الأفاعي ولطخات الدماء الجانية !

« وعندي أنه يجب على الفكر العربي أن يكون أفعى مخيفة ، تحمل السم ، والناب ، والحلقات المتماسكة الشديدة ، والجرأة ، واليقظة ، والتأمل ، والحقد العميق ، والشجاعة على ارتياد الآجام والمستنقعات الكثيفة والحصون المحصنة وبطون الأرض الخفية .

«أفعى تنساب في ثنية الاصغاء والاطراق والطموح بين مشابك الصخور ومحابك الأودية ، ومصاعد الصحارى والجبال ؛ فاذا رأت حاكما عربيا « بغى وطغى وتكبر وتجبر » قاتلته قتال الرقطاء حتى تقتل في الجهاد أو يقتل في طغيانه وبغيه وتكبره وتجبره !

« لن يتحرر المفكرون العرب من قيد الحاكم العربي إلا يوم يتخلقون بأخلاق الأفاعي المخيفة التي تملأ طرق الغابات والبيوت روعا وغضبا ووجلا ؛ لأن من أبرز صفات الظالم أنه جرىء في مظهره جبان في قلبه !

« علينا أن ننساب في كل عتمة انسياب الأفاعي ، لكي نمزق خيوط هذا الشبح الضخم الذي عششت فيه عناكب الشر الحاكم ! »

ومن مقال للأديب عبد اللطيف شرارة ، عنوانه « معركة الحياة الأدبية » يتحدث فيه إلى الأستاذ ألبير أديب صاحب « الأديب » :

« تعال الآن واشهد أنواع الحياة التي تمر بها في استعراض الحيوات الانسانية ، من العامل إلى الفلاح إلى الجندي إلى التاجر إلى السياسي إلى الأديب — تجد أن الأديب من بين الناس هو الوحيد الذي يحيا حياته بخطر ، حتى لتحسب حين تبلغ الأعماق أن بقاءه حيا — أعني مجرد بقائه على قيد الحياة مدة من الزمن — ضرب من الاعجاز يضارع كل عمل جليل يراه الناس معجزاً ،وبعبارة ثانية : تعجب كيف يحتمل الأديب حياته وكيف لا يموت !

« ذلك لأن الأديب — الأديب الحق — يحمل وحده رسالة الحضارة الصحيحة من بين مواطنيه ومعاصريه جميعا ، فلا يقر له قرار ، ولا يهدأ له بال . . . فهو دائما في صراع مع نفسه ، مع بيئته ، مع الأوضاع الاجتماعية ، مع القوانين الغاشمة ؛ وأخيرا مع الحياة ذاتها التي تشكل في نظره قيداً يمنعه من رؤية الموت وما وراءه !

« ثم إنه إلى ذلك — على الرغم من غربته وانفراده وتألب الجماعات عليه وخلوه من السلاح — يحارب على عدة جبهات في آن واحد ؛ فهناك عيشه الذي ينبغي له أن يكسبه ، وكثيراً ما يحارب في رزقه ويقطعه عنه أعداء الفكر والحرية . وهناك خصومه في الرأي والعقيدة . . . وهناك . . . وهناك . . .

« ذلك لشيء واحد ، هو أن الأديب يقيم وزنا للعاطفة وللفكر ، ولا يرى في الوجود ما يعدلهما في الأثر والقيمة ، بينما يرى الناس من حوله غارقين إلى الآذان في المادة وأحوال المادة .

« والغريب في أمر هذه المعركة أنها تنتهي أبدا ودائما بانتصار الأديب ، ولكنه انتصار من نوع آخر ، لا يعرفه القواد ولا الساسة ولا التجار — يتبدى على أكمل ما يكون حين تسرى الروح الأدبية في طبقات الناس ، تلك الروح التي يعبرون عنها بالذوق الاجتماعي ؛ هذا هو انتصار الأديب . . . »

فى مجلات الغرب

من لندن

القرن التاسع عشر وما بعده *The Nineteenth Century and After*

(عدد نوفمبر ١٩٤٧)

فى الفلسفة — يبتدئ هذا العدد بمقال ذى شأن للكاتب الايطالى الكبير بنديتو كروتشى (١) عنوانه « وجود المسيخ الدجال فى أنفسنا » . ويريد الكاتب أن يثبت لنا ثم أن يبسط لنا فكرته عن وجود المسيخ الدجال لابيننا بل فى أنفسنا . وإذا كان المسيخ الدجال فى العصور القديمة « يعتبر العدو الأكبر الكامل للعلم والخير » ويتمثل بمقتضى الظروف التاريخية فى شخصية هذا الحاكم أو ذاك ، أو فى هذه النظم أو تلك (كما حدث مع البابا فى عهد الاصلاح) أو فى شعب أو فى دولة (كما كانت الحال فى الحرب الأخيرة) فهو اليوم فى حقيقة الأمر « ميل ، إن لم يكن ظاهر النشاط فى أنفسنا ، فهو كامن فيها » . ثم يحاول بنديتو كروتشى أن يصف هذا المسيخ الدجال المعاصر لنا ويعدد مميزاته وأفعاله . فهو يوجد ، على حد قول الكاتب ، فى الجهل والجحود واستغلال القيم وازدرائها التى يعدها لغواً باطلا وخرافات ، بل «حيلا للنفاق ترمى إلى أن تخفى عن السذج والبلهاء الحقيقة الوحيدة التى ما هى إلا رغبة الفرد وطموحه الموجهان نحو اللذة والرفاهية » . وقد أصبح خطر المسيخ الدجال عظيما ، فنجده بين هؤلاء الذين ننتظر منهم أن يدرسوا الوسائل إلى تكوين جبهات للمقاومة . ولكن هذه الجبهات تشبه جبهات العدو ؛ ولذا لن تنتصر عليه بل ستكون ضحية له .

ثم يقول الكاتب إن اللواء الوحيد الذى يجب أن نرفعه لنواجه به روح الشر هو لواء الحرية ؛ ففى الحرية تنمو الصفات المنشئة ؛ إذ أن حل المشكلات الفردية يسمح بتحقيق المثل العليا . ولحرب هذه الفردية يقف المسيخ الدجال وقد تمثل فى شكل جماعة منظمة . وتثبت بعض الأحداث المعاصرة هذا الوصف للمسيخ الدجال « كالخديعة التى تتخذ سلاحا عاديا للهجوم فى غير خوف من استكشاف وفى غير حياء إذا استكشفت ، بل حتى فى غير هذه الصورة اليسيرة من الحياء التى نسميها الاختلاط ، وإنما تضبح الخديعة مادة للابتسام والتمدح بما فيها من جرأة وشجاعة ، ويصبح المنكر لها موضع التهكم ويعتبر ساذجا غرا لم يلاحظ أن الكذب قد صار حقا للذين يستسلمون لهذا الاله الخبيث .

وإذا كان هذا المقال موفقا فى عباراته

---

(١) *The antichrist within us,* by Benedetto Croce

وفى منهجه اللاتينى فى التفكير وفى الاستنتاج ، فيجب على الأقل أن نعترف بأنه لا يأتى بشئ نكاد نجهله ولا يدلنا على شئ من وسائل المقاومة لهذا الشر البغيض .

فى السياسة — وتقدم لنا المجلة نفسها نصا يكشف لنا عن الفكرة السياسية الفرنسية بعد التحرير ، ولكن الأحداث كما سيتضح لنا فيما بعد قد تخطت هذا المقال الذى ما هو إلا حديث دار بين الكاتب الفرنسى الشهير جان كاسو الذى كان عضواً فى حركة المقاومة وبين أ. أ. سيمان[1] المحرر فى المجلة .وقد قدم الكاتب فى إطناب شخصية جان كاسو وأعماله فى حركة المقاومة ، ثم عرض فكرة مقاله الأساسية ، وهى بسط حال فرنسا السياسية بعد تحريرها . وتمتاز هذه الحال بخيبة الأمل التى أصابت حركة المقاومة ، وقد فرق بينها وبين تحديد مصير فرنسا . كانت تعتقد أنها جديرة بأن تتولى الحكم . وكان طموحها إلى الحكم يرتكز على أمرين أساسيين : أولا نظامها الادارى الجدير بالاعجاب . وثانيا اشتراك أعضاء الأحزاب معها مهما تكن عقائدهم وميولهم اشتراكا كاملا غير مشروط . ثم كانت حركة المقاومة ترمى إلى أن تجعل من توليها للحكم ثورة سلمية : كانت تريد أن تحرر فرنسا لا من الألمان فحسب بل من أشياء تفوق الاحتلال الألمانى . وكانت تأمل أن تصل إلى ما أسماه يونج Young فى سنة ١٧٨٩ : « إصلاح ما فسد عامة » . ويقول كاسو : « ولم لا ؟ وهذا الشعور أيمكن إهماله وقد أصبح دافعا وطنيا ؟ » وقد عرض الكاتب الأسباب التى حالت دون تحقيق هذه الآمال . ثم سأل كاسو إلى أى مدى يريد أن يشترك مع الشيوعيين الفرنسيين . فأجاب : « دع هذا الحديث[2] لا داعى لاقامة العقبات ونحن جادون فى العمل . لقد بذل الشيوعيون أعنف الجهد أثناء الحرب ، وكانت سياستهم موجهة إلى تحقيق عظمة فرنسا . » وأضاف إلى ذلك : « وقد أكون غير راض عن وسائلهم ، ولكنى الآن على استعداد أن أشترك معهم اشتراكا كاملا . »

هوريزن *Horizon* (عدد نوفمبر ١٩٤٧)

فى الفنون — يقدم لنا هذا العدد مقالا لهربرت ريد Herbert Read ذا شأن خطير وهو جدير بأن ينقل بأكمله . وعنوان المقال : «مصير فن التصوير الحديث»[3] ولا يدور موضوعه ، كما يمكن أن يتبادر إلى الذهن ، حول مصير التصوير من حيث الأسلوب والفن بل من حيث مصيره الاجتماعى والحيوى . ويدرس الكاتب فى مقاله هذه الوسائل التى تتيح للرسامين ولآثارهم أن يحيوا فى عالمنا الحديث .ويقصد بالحياة أبعد معنى لهذه الكلمة .

ويبدأ هذا الحديث بكلمة للشاعر روبرت

(١) *Conversationss in France. I,* by Jean Cassou

(٢) بالفرنسية فى النص : « Pas d'histoires »

(٣) *The Fate of Modern Painting,* by Herbert Read

جريفز Robert Graves : « إنى أنظم قصائد للشعراء وهجاء ولهو (١) للاذكياء ، أما للافراد العاديين فأكتب نثراً . ويسرنى أن أراهم لا يلحظون أنى أكتب شيئاً آخر . » ومعنى هذا أنه إذا كان الأدباء يستطيعون أن يعيشوا فى غنى عن تقدير الجمهور أو اهتمامه فأمر الرسامين مختلف ، وإن لم يكن هذا منطقيا فى رأى الكاتب . وسبب ذلك يرجع إلى التكوين الاقتصادى للمجتمع . فقديماً كان الفنانون يجدون عند حماة الفن ما ييسر لهم العيش ويتيح لفنهم أن يزدهر، ويغنيهم عن أن يهتموا بحاجاتهم المادية . وكان أساس هذا النظام الثروة الفردية . ويبدو أن هذا الأساس كاد ينهار نهائياً ، فى أوربا على الأقل . وقد استطاع الشاعر أن يرضى بهذه الحال : فهو يقوم بعمل ما ليعيش منه وينظم شعره « فى السيارات العامة أو فى عطلة الأسبوع » . أما المصور فلم يقبل هذا الوضع . ولذا يطالب الدولة بأن تقوم بدور حماة الفن . وهذا هو موضوع المقال . ويريد هربرت ريد أن يدرس هذه المسألة من ثلاث نواح : هى باختصار :

١ — إذا اختير هذا الحل فمن يكون بالفعل حامى الفن ؟ وبأية وسيلة سيكون اختيار الآثار ؟

٢ — ماذا يكون مصير الآثار الفنية التى تشتريها الدولة ؟ وما تأثيرها فى الجمهور حينئذ ؟

٣ — ما أثر الدولة الحامية للفن فى الفنان وأثرها فى فنه من حيث الجودة ؟

ثم يحلل الكاتب هذه النقط الثلاث وينقدها ويثبت بوضوح أنه ليس حلا ؛ لأن اختيار الآثار وتشجيع الفنانين سيكون خاضعا للاستبداد الادارى من اللجان وتغيير أعضائها واختيار أعضاء قد لا يكون لهم ذوق فنى بل قد لا يكون لهم ذوق سليم . وإلام تصير حال هذه الآثار ؟ وهل تزيد كثرة الآثار الفنية فى المتاحف الكثيرة الذوق الفنى عند الجمهور ؟ ويقول هربرت ريد : كلا ! وهو ينصح باتباع قصد الصينيين واليابانيين فى الفن : الحد من الاحساسات الفنية . إن حالات يقظة الاحساسات الفنية من تأثير زيارات المتاحف نادرة جدا . لأن الانسان اليوم « إنسان ميت » فنيا . لقد ماتت عنده الاحساسات الفنية فى المدرسة قبل أن يجاوز الثانية عشرة من عمره .

وهذا النظام يجعل الفنان فى حيرة لأنه يجهل ما يطلب إليه . وهنا يعود الكاتب إلى الجملة التى ذكرها فى أول المقال ويغير من ألفاظها بعض الشئ فيقول : « يجب أن ترسم اللوحات الفنية للرسامين . أما لعامة الناس فيجب على الفنانين أن ينشئوا أشياء مفيدة ، وأن يسرهم ألا يلحظ الجمهور أنهم ينتجون إنتاجا آخر . »

والكاتب يرى أن من الأصلح أن نعود متواضعين صابرين إلى الظروف التى نشأ فيها الفن ، أى يجب على المؤرخين أن يقدموا لنا تحليلا دقيقا جدا للظروف الاجتماعية التى نشأ فيها الفن فى الماضى ، وعلى علماء النفس أن يقدموا لنا تحليلا دقيقا للمراحل التى يمر بها الانشاء الفنى عند الفنان وفيما بينه وبين زملائه من الصلات ، وعلى المربين أن يصلحوا طرق التعليم لكى يحافظوا على الحس الطبيعى للانسان ويرهفوه . وإذا ضمنا توازنا كاملا بين مواهبنا الحسية

(١) « I write poems for poets and satires or grotesques for wits... »

والعقلية فقد وضعنا أساسا متينا لعهد إنشاء فنى . »

وثمة مقال جدير باهتمام المعنيين بالموسيقى الحديثة . وهذا المقال يسبغ على هذا العدد من مجلة « هوريزن » صفة فنية . وقد أنشأه إريك ولتر وايت ويتحدث فيه عن إيجور سترافنسكى [١] .

والمقال دراسة لفن الملحن الذى يؤثر اليوم موسيقى الأوركسترا على موسيقى الآلة المنفردة . والجزء الأكثر شأنا فى هذا المقال الفنى هو الذى يحلل فيه الكاتب آثار سترافنسكى أثناء الحرب الأخيرة ، وخاصة « السنفونية ذات ثلاثة أقسام [٢] » حيث أضاف سترافنسكى إلى الأوركسترا العادى البيان والهارب ، وهما يقومان بدور ذى خطر . ويقول الكاتب إننا نلمس فى هذا الأثر نفس الاستعداد القوى الساخط الذى نلمسه فى آثار الملحن الأولى ، وقد وضعه داخل إطار منظم لسنفونية كلاسيكية تدل على بلوغ أوج الفن .

من نيويورك

الفنون المسرحية *Theater Arts* (عدد أكتوبر ١٩٤٧)

فى المسرح — ويجد القارئ فى هذا العدد حديثا دار بين الممثل الفرنسى جان — لوى بارو واثنين من الصحفيين [٣] إن للممثل جان — لوى بارو نشاطا متعدد النواحى : فهو ممثل مسرحى وسينمائى ، ومخرج ومدير مسرح ، بل مؤلف أيضاً ؛ إذ أنه نشر دراسة عن مأساة « فيدر » . وآخر ما أنتجه جان — لوى بارو ، هو «القضية» لكفكا التى اقتبسها أندريه جيد الذى ترجم « هملت » لشكسبير وقد مثلها هذا الممثل . ويقول كاتبا المقال عن فن جان لوى بارو : « انه لاءم بين الحركة والالقاء فى أسلوبه التمثيلى — وهو يهتم غالبا بالايماءات التعبيرية — وقد أصبحت هذه الملاءمة روح فنه . »

فى الرقص — (فى عدد نوفمبر ١٩٤٧ من المجلة نفسها)

وفى هذا العدد نجد مقالا عن مؤلف الرقص بالونشين[٤] Balanchine يسوق إلينا بعض معلومات عن شخصية هذا الراقص وعن بعض نواحى فن المراقص التى لا نعرف عنها إلا القليل . ويلاحظ صاحب المقال فى حق أنه من العسير أن نقدر مركز مؤلف الرقص أثناء نشاطه الفنى ؛ إذ أنه «من اليسير أن نلحظ الكمال النسبى عند الرسام أو الموسيقى فى منتصف نشاطه.» أما فى فن الرقص فالأمر يختلف كل الاختلاف .

---

(١) *Stravinsky, Latter Day Symphonist,* by Eric Walter White

(٢) *The Symphony in Three Movements,* by Igor Stravinsky

(٣) *Jean-Louis Barrault, An Interview with France's Outstanding Actor-Director,* by Luce and Arthur Klein.

(٤) *Balanchine Musagète,* by Lincoln Kirstein

ترك بالونشين روسيا في سنة ١٩٢٤ ، وهو حائز لشهادة المجمع الدولي للرقص في بتروجراد ثم عمل مع دياجيليف Diaghileff الذي صقل مواهبه وبنى له مجدا عظيما . ويقيم بالونشين في أمريكا منذ ١٩٣٣ . إن أسلوب المراقص الجديد قد نشأ في أوربا وفي باريس خاصة. وهذا الأسلوب يجمع بين مواهب الموسيقى ومؤلف الرقص والرسام [1] . مثال ذلك المرقص الذى يسمى «استعراض» *Parade* (١٩١٧) وقد وضع موسيقاه إيريك ساتى Eric Satie وصور رقصة ماسين Massine وأنشأ قصته كوكتو Cocteau ! ورسم مناظره بيكاسو Picasso . ويزدان هذا المقال الذى يمدنا بمعلومات قيمة بصور ورسوم عدة .

من باريس

طرق العالم *Chemins du Monde* عدد ١ : «حضارة»

أنشأت هذه المجلة الجمعية « حضارة » التى تكونت في سنة ١٩٤٦ « والتى تريد خاصة أن تهيئ الفرصة لرجال بلاد مختلفة ليتبادلوا الآراء في بعض المشكلات الخطيرة المعاصرة سواء أكانت مادية أم روحية » . وفي المقال الافتتاحي يحاول فرنسوا برج François Berge أن يعطى لنا فكرة واضحة عن الحضارة كما يتخيلها . ويجد القارئ في هذه الصفحات القليلة بعض آراء بنديتو كروتشي وخاصة رأيه عن النفاق في حياتنا الحالية . ويقول فرنسوا برج : « كان النفاق قديما احتراما تقدمه الرذيلة إلى الفضيلة ؛ أما اليوم فالرذيلة —أى القوة الذاتية — أصبحت هى الفضيلة نفسها وهى التى تنظم القيم كلها . » ويلمس القارئ الغرض الأساسى للمقال بعد أن يمر سالما بأمواج من التصوف تملأ هذه الصفحات . وهذا الغرض هو أن يدفع الانسان إلى أن يعود إلى القيم الدائمة على هامش كل دين وكل فلسفة . والفقرة الأخيرة من المقال تبسط لنا عقيدة جمعية « الحضارة » وهى : « نحن نعتقد أن الانسان مقدس في جسمه وفي قلبه وفي عقله ، وأن تبادل الآراء الصالحة يجب أن يساعد على تنظيم الحقائق الجزئية احتراما لروح الحق . »

فى هذا العدد مقال للعالم الفرنسى الكبير لويس دى بروى [2] وعنوانه « العلم والحضارة » . وما يلفت نظر القارئ في هذا المقال هو أناقة الأسلوب الجديرة بالاعجاب : فرجل العلم هنا يعبر عن فكره في لغة دقيقة ساحرة لا نجد لها مثيلا عند الأدباء في أكثر الأحيان . ويذكر الكاتب في أول الأمر تلك الكلمة المأثورة التى تقول إن المعرفة العلمية تتيح للانسان « أن يتحكم في الطبيعة وهو مذعن

(١) أنظر « المسرحيات الراقصة » في مجلة « الكاتب المصرى » عدد ٢٧ (ديسمبر ١٩٤٧) .

(٢) Louis de Broglie, *Science et Civilisation*

لقوانينها » . ويلحظ لويس دى بروى حين يتحدث عن البحث غير المغرض والعلم التطبيقى أن اعتبار العلم اعتبارا نفعيا يضيره ويوشك أن يذهب بما فيه من خصب حين يكبت صوراً أخرى للتفكير والشعور، وحين يدفع إلى شئ من الشك . كل هذا يوشك أن يضيع على الانسانية الشعور بالجمال الكامل للاثار الفنية الرفيعة لحساب جمال آخر لا شك فيه ولكنه مختلف النوع ، وهو جمال بعض الآلات المبتكرة . ويضيف الكاتب أن خطر الرقى العلمى يزداد بمقدار « ما تبطىء الانسانية فى التقدم لأن تطورها أشد بطئا من علمها » .

ويختم المقال بتأملات رائعة حول قول هنرى بوانكاريه : « . . . إنما الفكرة برق يلوح فى ليلة طويلة ، وإن هذا البرق هو كل شئ » (١).

---

(١) Henri Poincaré in *La valeur de la science*

فهرس المجلد السابع

أكتوبر ١٩٤٧ — يناير ١٩٤٨

دراسات أدبية

* كل مقال أمامه هذه العلامة كتب خاصة للمجلة بقلم كتاب أوربيين أو أمريكيين .

(١) *The 400th Birthday of Cervantes,* by Henry Baerlein

دراسات فلسفية

دراسات اجتماعية واقتصادية

دراسات تاريخية

دراسات سياسية

دراسات فنية

(١) Hilde Zaloscer, *Symbole et ornement*

(٢) ilde Zaloscer, *La crise actuelle de l'art*

قصص

شعر

من هنا وهناك

شهرية العلم

شهرية السياسة الدولية

شهرية الفلسفة (١)

شهرية المسرح

شهرية السينما

من وراء البحار

من كتب الشرق والغرب

ظهر حديثاً

---

(١) Didier Anzieu, *Chroniques Philosophiques*

(٢) Etiemble, *André Malraux victorieux de la mort*

(٣) Etiemble, *Hermès Trismégiste et la crise du rationalisme*

(٤) Etiemble, *Renouveau de la littérature comparée*

فى مجلات الشرق

فى مجلات الغرب



الباب الضيّق

تأليف أندريه جيد

تعريب نزيه الحكيم

مع رسالة من أندريه جيد الى المترجم
ورد طه حسين الى أندريه جيد

« ترجمة كتبي الى لغتكم ؟ . . . الى أى قارىء يمكن أن تساق ؟ وأى الرغبات يمكن أن تلبي ؟ ذلك أن واحدة من الخصائص الجوهرية فى العالم المسلم فيما بدا لى ، أنه وهو الانسانى الروح يحمل من الأجوبة أكثر مما يثير من أسئلة . أمخطىء أنا ؟ »

أندريه جيد

« لم تخطىء أنت ، وإنما دفعت الى الخطـأ . لقد خالطت كثيراً من المسلمين ولكنك لم تخالط الاسلام ... فلو قد تعمقوا الدين تعمقاً دقيقاً لأظهروك على ما يشير القرآن من مسائل وما يعرض لها من جواب . »

طه حسين

[من مقدمة كتاب « الباب الضيق »]

١٤٦ صفحة
الثمن ١٨ قرشاً (البريد ١٢ مليما)

تحت الطبع

سافونارولا

قصة الراهب الثائر والمصلح الديني والسياسي والاجتماعي

للدكتور حسن عثمان

الضحك

للفيلسوف الفرنسي هنري برجسون

تعريب سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم

غانية أطلنطا

قصة رائعة للكاتب الفرنسي بيير بنوا عضو المجمع اللغوي الفرنسي

تعريب رشدي كامل

عقدة الافاعي

قصة تحليلية لفرنسوا مورياك عضو المجمع اللغوي الفرنسي

تعريب نزيه الحكيم

قصة رجل مجهول

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

تعريب محمود الشنيطي



مطبعة الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية